

بينيديتا تشيبراريو

أحمر قرمزى

ترجمة
نيرمين وجيه حكيم

2437

سلسلة
الإبداع
القصصي

أحـمـر قـرمـزى

(روايـــة)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2437
- أحمر قرمزى
- بينيديتا تشيبراريو
- نرمين وجيه حكيم
- اللغة: الإيطالية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:
ROSSOVERMIGLIO
Benedetta Cibrario
Copyright © Giangiacomo Feltrinelli Editore Milano 2008
Arabic Translation © 2014, National Center for Translation
All Rights Reserved

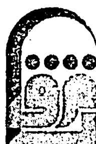
حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

أحمر قرمزى

(رواية)

تأليف : بينيديتا تشيبراريو

ترجمة : نرمين وجيه حكيم



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تشيبراريو، بينيديتا.

أحمر قرمزى/ تأليف: بينيديتا تشيبراريو؛ ترجمة: نرمين وجيه حكيم.

ط١، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤

٣٨٨ ص؛ ٢٠ سم

١ - القصص الإيطالية.

(أ) حكيم؛ نرمين وجيه (مترجم)

(ب) العنوان ٨٥٣

رقم الإيداع ٢٠١٣/٩٣٢١

الترقيم الدولى 978-977-718-346-8

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

إهداء

إلى والدى

وكان هو موجوداً، غير مرئى - هذا ما عرفته بعد ذلك - كان فى ظل قمة شجرة الصنار فى البرد، وكان يرى النوافذ مليئة بالنور، والحجرات الشهيرة مجهزة ومعدة لإقامة حفل، والمدعوون بالشعر المستعار يرقصون. ما طبيعة الأفكار التى كانت تمر بذهنه؟ أكان يتحسر ولو قليلاً على حياتنا؟ هل كان يفكر فى مدى صِغَر تلك الخطوة التى كانت تفصله عن العودة إلى عالمنا، مدى صغرها ومدى سهولتها؟ لا أدرى فيمَ كان يفكر وماذا كان يرغب، هناك.

لست أعلم إلا أنه بقى طوال مدة الحفل وأيضًا بعد انتهائه، إلى أن انطفأت الشمعدانات واحداً واحداً ولم تبق نافذة واحدة مضيئة.

إيتالو كالڤينو، "البارون المعلق"

"اطمئنا، أيها الملك وأيتها الملكة، إن ابنتكما لن تموت".

شارلز بيروو، "الجميلة النائمة فى الغابة".

إن الشخصيات التى تظهر فى هذه الرواية هى من نسيج الخيال، وكل إشارة إلى أحداث أو أشخاص واقعيين هو محض صدفة.

— ١ —

١٩٢٨

١

أعلم اليوم أن هناك جمالاً وجمالاً؛ ويصدق هذا على الأشخاص وعلى الأماكن أيضًا. لا توجد هنا صحارى موشاة بالرياح أو جبال تطل على البحيرات، لا توجد خلجان تحتضن البحر أو جزر فى الأفق على مرمى البصر، هناك فقط صف ساكن من أشجار الكروم المصطفة فى انتظام، وسلسلة من المنخفضات والمرتفعات؛ وهناك من يسمع موسيقى تمتزج برائحة الغابة بعد سقوط المطر. من يفلح الأرض، يتظاهر بعدم رؤية هذا الجمال؛ إذ يبدو له أنه من شيم الكسالى التوقف لمشاهدة الوادى حينما يغمره الظل أو تتسرب الشمس فترسم دربًا فى الغابة. ليس هذا من قبيل الازدراء أو الاستخفاف، ولكن ما هى إلا عادة.

فالأرض هى الأرض، والغابة هى الغابة، وحقل الكروم هو حقل الكروم. ولا أحد يضيع وقته ليتذكر متى شُيد برج سان بياچو ومن الذى شيده، هذا البرج الذى بُنى بالكامل فى اتجاه الشمال، ويغطيه نبات المسك الذى يتغلغل صخوره. البعض يطلق عليه برج المراقبة، على الرغم

من أنه، من على قمة البرج، لا يُرى أى شىء على الإطلاق بفعل الضباب الدائم. ودائما ما كنت أفكر بداخلى أنه كان ينبغى بالأحرى تسميته برج "الانتقام". أقصد انتقامًا لطيفًا؛ ولعل لفظ "الانتقام" ليس هو باللفظ الصحيح، إنما ينبغى أن نقول "النكاية والغيظ"، ليس فقط، فيما يخصنى أنا فقط وإنما فيما يخص كل الذين وُلدوا وماتوا فى هذه البلدة على مر السنين، والذين انتزعوا من الغابة مترًا تلو الآخر من التربة، والذين حفروا بالمعزقة فأزالوا حصى قطعة أرض تلو الأخرى، وهم يحاولون ألا ينظروا إلى هذه الغابات الوعرة التى تمتد على مرمى البصر بلا نهاية كأمواج البحر.

عند العودة من إحدى الرحلات إلى مدينة "سيينا" أو إلى "سان چيمينيانو"، فيبدأ الطريق فى الانحدار نحو "سان بياچو" بعد منحنيات "كيانتيجانا" المعتدلة، قد يفكر المرء فى أنه لابد وأن يكون بعض البؤساء هم أول من وضعوا أساس هذه البلدة؛ وعلى بُعد عشرات الكيلومترات، أعدت الطبيعة للعين بانوراما من المناظر الجميلة الخلابة التى تأخذ بالألباب. أما هنا على العكس، يتهيأ للمرء أنه فى بعض أيام الشتاء والخريف لا تشرق الشمس بأشعتها الدافئة أو أن المطر لم يعد يغمر المكان وإنما تنزلق قطراته بلا جدوى، فتحفر آثارًا خفيفة متشابكة فى التربة الطينية.

إنه تنظيم غير اعتيادى بالنسبة لبلدة تعود إلى العصور الوسطى، ومن المُبالَغ فيه تسميتها بالبلدة، لدرجة أنه بعد اجتياز التل، يحيط بها منظر رائع من حقول الكروم وأشجار الزيتون. تتشابك الأساطير بشأن نشأة البلدة، وتختلط وكأنه ليس هناك ما يستحق أن نحكيه، فهناك أسطورة تقول إنها نشأت كمنزل ريفى، أو إنه فى القرن السابع عشر كانت تُعقد بها اجتماعات السحرة الليلية، ويؤكد صحة هذا الافتراض ذلك الضباب الشتوى الذى يرمى على الطبيعة مسحة شيطانية، خاصة إن لم تأت أيام الربيع الرائعة التى يسبق قدومها انفراجة السماء الغائمة فى نهاية شهر مارس، فتجلب معها أضواء وألوانًا وروائح عطرة وأصواتًا بالتأكيد لا تمت للسحر المظلم بأية صلة.

يُقال أيضًا إن هذه المجموعة الصغيرة من البيوت، المجتمعة حول الكنيسة والبرج، كانت تتوارث حتى أصبحت جزءًا من تراث أبرشية ثرية تابعة للشمال، وكان لزامًا على المستأجرين أن يدفعوا لها ضرائب عالية جدًا أدت شيئًا فشيئًا إلى بلوغهم حد الفقر المدقع مما حولهم إلى لصوص وقطاع طرق؛ ويقولون أيضًا إن سكان البلدة هجروها وقد تحولت إلى أنقاض وأطلال إلى أن امتلكها أحد أفراد عائلة كيجى وضمها إلى حقوله وأراضيه الخاصة وبنى بها منزلاً سيديًا، بعد أن ألحق به البرج وهدم حوائط وجدرانًا وأحدث ثقوبًا فى مخازن حفظ النبيذ وأعاد بناء الأسقف.

تأخذ الحيرة كل من يصل إلى هنا، من جهة الأرض المردومة وبعد عبوره البوابة الحديدية، فإنه يرى فناءً من الأرض الممهدة، يحيط بها سور من الأربع جهات وكأنها حصن منيع، والسور ملىء بالثغرات والقبب، وبالسلالم والنوافذ التى تبدو وكأنها مفتوحة عشوائيا.

لا يساوى البيت وحده الشىء الكثير، وتبلغ مساحة الأرض مائتى هكتار من الغابات الكثيفة الصالحة لصيد الحيوانات فقط.

وقد اجتث كيجى الغابة، وباع الأخشاب وحرق كتل الأشجار الكثيفة، فحصل بذلك على منحدرات يمكن أن يستغلها كأراض زراعية؛ ثم بعد ذلك اشترى أرضاً أخرى وغرس بها أشجار زيتون، وأحاط حدود أراضيه بصف من أشجار السرو؛ حتى يعرف الجميع أن تلك هى أراضيه حتى من على مسافة بعيدة. ويقولون إنه هو الذى دشنها بهذا الاسم: "المحمية" ومنذ ذلك الحين، تناقلت أغصان التاريخ هذه الأرض الزراعية الشاسعة من أسرة إلى أسرة وكأنها ورقة شجر فى فصل الخريف. هذه حقيقة نتعلمها ونعيها جيداً عبر السنين: وهى أن الأشياء، مثلها مثل البشر، ينتهى بها الحال دائماً إلى أن تحملها الصدفة؛ فأنا لم أُولد بها، ولم يصحبنى أحد إلى هناك. كان باستطاعة الحياة أن تحملنى إلى مكان آخر. ولكننى على العكس مكثت هنا.

فى كل مرة يأتى فيها المسئول عن الشحن ليحمل صناديق النبيذ، يعود إلى ذهنى كيف بدأت هذه القصة. لم أعد أعلم كم مضى من الوقت. يراجع دينو، مستأجر المزرعة، الصناديق الكرتون وهو يضرب بقدمه فى عصبية ويقول إنها مسألة تشنج عضلى، ولكننى أعلم أن هذا يرجع إلى سبب آخر. كل ما فى الأمر أنه يأسف لرحيلى. تصلنا منذ بضع سنوات جوائز تقدير وإعجاب، ويقولون لنا إن نبيذ "لونيدينتى" نبيذ أحمر ممتاز، يتحدث عن نفسه، وإن النبيذ "روسوڤيرميلليو" لنبيذ مذهل ورائع حتى اسمه بديع. ولقد وصلت الشهرة التى اكتسبتها العلامة الخاصة بنا إلى أماكن بعيدة. وتشترى أفضل المطاعم الأوروبية والأمريكية صناديق قليلة من نبيذ "روسوڤيرميلليو" وبأسعار عالية. يخطب هواة جمع زجاجات النبيذ ودنا لشهور عديدة من أجل نصف دستة زجاجات. وتصلنا تقارير مدح وإطراء تثير الحماس، ويثنى علينا أفضل خبراء صناعة النبيذ وأكثر النقاد قسوة. أنا نفسى أجد مشقة فى فهم أسباب نجاحنا، فنحن شركة إدارتها شبه أسرية وبها عمال قليلون شقت طريقها عامًا بعد عام، فى هدوء وبموارد قليلة.

ونحن اليوم نحقق مكاسب جيدة. ترتفع قيمة الأرض الزراعية موسمًا بعد الآخر ودائمًا ما نتلقى عروضًا مغرية وكريمة. غير أننى

عجوز وأعيش هنا منذ عمر طويل، ولا أحد يبيع عمره. يبتسم دينو ويرفع كتفيه زهواً. وهو محق حينما يقول «يحتاج النبيذ إلى الشمس والحرارة اللازمة لزراعة العنب، كما يحتاج إلى الظلام والجو البارد اللازم لعمل النبيذ، وهنا في الأرض "المحمية" نضفي عليه أيضاً سر الصنعة». لا نسمح لأحد بزيارة مخازن حفظ النبيذ الخاصة بنا، ولا نبيع للجمهور بشكل مباشر. وعندما يصل أحد السائحين الفضوليين، يصرفه دينو ببساطة وبلا أي إكرام، ويتكفل بالباقي نباح الكلاب الغاضبة بشدة من وجود غرباء. فليذهبوا لزيارة أراضي الـ "سينيزيي" الواسعة التي تقع على بعد مسافة قليلة، وأراضي "كامبو اللي كاتشي"، و"سان چوستو" و"سان سيستو"، بما فيها من ممرات تصطف على جانبيها أشجار السرو والبيوت الضخمة المبنية من حجارة فاتحة اللون؛ حيث كانت الحياة تدور، ولا تزال تدور في اعتقادي، حول موضوعين فقط، وهما هل العام القادم سيكون جيداً لعمل نبيذ "كيانتي" وللصيد. حتى هناك لم يتغير أي شيء على الإطلاق؛ فإيطاليا تكونت ثم أعيد تكوينها، فبعد الدوقات العظماء جاءتنا عائلة "سافوي" ثم الجمهورية، وفي أثناء ذلك، الحروب والجوع، ومع هذا فالصيد والنبيذ ليسا بالأشياء التي تُنسى هنا. إنه درس محفور في قلبي لا يُمحى.

فى الأعوام الأخيرة، كانت أمى، وقد أصبحت الآن تتذكر القليل حتى مما كانت تفعله أثناء يومها، تنتقل من غرفة إلى أخرى وهى تطلق صيحات صغيرة تنم عن فرح ودهشة وكأنها زائرة فى بيت الآخرين. لم تكن تتعرف على أى شيء مطلقًا، كما أنها نسيت أحداث حربين ونسيت أخى إنريكو الذى اضمحل فى الهواء، وهو فى الرابعة والعشرين من عمره، إثر طلقة بندقية انفجرت فيه بطريق الخطأ. وقتها كانت تتحدث الإنجليزية فقط وبتلك النبرة المتقنة التى لا تتحدث بها سوى بنات اللوردات وبطلات شكسبير الشهيرات فى الطرف الغربى.

كما إننى أتذكرها هكذا، جسم أحدب يلفه شال مطرز، دائمًا ما تأخذ من السلة التفاحة العطبة، فهى أول من يقدم لها الخادم السلة ولذا فهى التى عليها أن تقدم هذه التضحية الصغيرة.

كنا فاحشى الثراء؛ إذ كان والد جدتنا قد هاجر إلى أمريكا الجنوبية، حيث كون ثروة من خلال العمل فى مناجم الفضة أو فى فضلات طيور النورس؛ إذ تختلف الأقاويل داخل الأسرة حول هذه النقطة، ولما عاد إلى تورينو بنى لنفسه منزلاً جميلاً على التل، وسط غابة من الكستناء تطل على النهر ناحية الجنوب.

كان قد جلب من باريس أول ورق حوائط مطبوع على الآلة وأراد أن يكون مرسوماً عليه المشهد نفسه مع اختلافات بسيطة للغاية؛ وهو مشهد مناظر طبيعية خيالية عن جزر الهند الغربية والشرقية. كانت رسومات النخيل، وسكان الجزر بلونهم الخمرى وأوراق الأشجار الغزيرة الوفيرة بلونها الأخضر الداكن كما هو الحال فى الغابات، والسماوات الزرقاء الفيروزية، كان الغرض من هذا كله، فى اعتقادى، هو إطفاء حنين الشوق إلى هذه الأماكن. هذا بخلاف الستائر الثقيلة المنتشرة فى كل مكان والمطرزة بأشكال ورسومات بهية، وقد نُسج عليها أشكال ببغاوات وزهور رخوية، وطيور أخرى فى وضع طيران غير منظم وخيالى. كانت الستائر مفرودة دائمًا، وكان الهواء بالحجرات ثقيلاً ينم عن مكان مغلق، وتختلط به رائحة باقات أوراق الأوكالبتوس الكبيرة.

يُقال إن والد جدتنا قد واجه صعوبة فى تزويج ابنتيه، اللتين ورثتا عن أمهما القادمة من بيرو، لون البشرة النحاسى المذهب والشعر الأسود القاتم. ولم يكن جمعه ثروة كبيرة هو محل عدم غفران البلدة بقدر ما كان السبب هو عودته إلى موطنه للتباهى بهذه الثروة؛ وكان هو يتفاخر بثروته بأسوأ الطرق، من جهة نظر الطبقة الأرستقراطية المتشددة؛ فكان ذوقه غريباً متكلفًا ومسرفًا فى جلب الأشياء الغريبة عن المكان، وإحضار ما لذ وطاب من الأطعمة والمشروبات وأوراق اللعب.

على أية حال فقد نجح فى تزويج ابنتيه فى تورينو، وأعانه على ذلك، بالطبع، ما لديه من مال وافير؛ وربما ساعده فى ذلك أيضًا كون الابنتين اللتين ولدتا في مستعمرات أمريكا الجنوبية متميزتين بلون بشرتهما وشعرهما وسط الوجنات الشاحبة والعيون الفاتحة التى تميز أترابهما، ولكن هذا مجرد حدس.

إحدى هاتين الابنتين هى "لوبى"، جدتى.

إن اسمها بالكامل له صوت موسيقى ساحر يرن فى أذنىّ الصغيرتين، ماريا جوادا لوبى يوانا إيزابيل. وهو رنين موسيقى بقدر ما هو موسيقى أيضًا لقب الأم القادمة من بيرو وهو برينيكيا دى وندر، وهو ساحر بقدر ما يثيره شكلها من غموض فى صورتها التى يظهر فيها جزؤها الأعلى فقط ويزدان بها الصالون فى بيت والدىّ. يظهر فى الصورة سيدة تعبيرات وجهها قاسية، ترتدى ثوبًا غامقًا وتتحلى بقلادة كبيرة من الذهب وشريط من القطيفة حول الرقبة؛ وتبرز من الأكمام التى تصل إلى حد الكوع ثنيات مقببة من الدنتيللا البيضاء المتشابكة المتداخلة؛ تحمل كتابًا على يدها، بينما يقف على ذراعها الآخر ببغاء ذو لونين: أحمر وأخضر، وقليل من الريش الأصفر على رأسه، ومنقار مدبب ومقوس يشبه علامة فاصلة ضخمة، وعين زجاجية عدائية؛ على الأقل يبدو لى هكذا أنا الطفلة ولا أفهم لماذا أراد الرسام أن يصور جدتى ومعها ذلك الحيوان المفزع الذى يحط على ذراعها فى سكون ودعة.

لم أكن أعلم أى شىء، وقتها، عن أمريكا الجنوبية، وعن الغابات المليئة بطيور ذات ألوان متعددة، وعن مظاهر الثراء التى تصبح ثروات أسطورية، بمجرد عبور المحيط، وعن عائلة برينيكيا دى وندر، وديارهم التى تزخر بالأفنية، وعن الكنائس المعتمة الرطبة حيث يلوذ المرء بعيداً عن حرارة الشمس، ولا عن والد جدتى الذى تزوج من وريثة عائلة دى وندر، وأقنعها، بعد حياة كاملة قضتها هناك فى جنوب أمريكا، بالانتقال مع ابنتيها، لوبى وماريا روزاريو، إلى القارة القديمة على تلال مونكاليرى، الجميلة أيضاً، ولكن تلال "لى أنديى"، نعم تلال "لى أنديى" لا تبرح أعماق القلب الذى يتحسر عليها وكأنه يثقل بها. لقد حزنت ماريا روزاريو إثر انتقالها لدرجة أنها توفيت نتيجة إصابتها بحمى فى المخ ولم تكن قد بلغت بعد عامها الخامس والعشرين؛ ولم يشفع فى شىء عناية زوجها الشاحب وحبه الذى ظل منكسراً وكالشارد التائه لشهور طويلة بعد وفاتها.

كانت الفترة التى وُلدت أنا فيها وبعدها بسنوات عدة، لا تخلو من كل أنواع المظاهر، المنازل، فى المدينة وفى الريف، تمتلئ عن آخرها بقطع الأثاث واللوحات الزيتية؛ والمشرفين على الأموال الذين كانوا يخلعون قبعاتهم ليحملوا سجلات ودفاتر الحسابات منسوخة بخط جميل؛ والجواهر، والهيبة الاجتماعية والمناصب الشرفية. كان كل شىء هناك،

بديعًا ولامعًا، كل شيء فى مكانه كما لو كنا فى حفل راقص ساهر؛ غير أنه لم يعد يبقى شيء وراء كل هذه المظاهر، فالأرض لم تكن تدر أرباحًا ولم يكن من الممكن أن نقضى على المستأجرين بالموت جوعًا، أكثر من حالة البؤس المزرية التى أوصلهم إليها المسئولون عن جمع الأموال؛ وكان من الواجب دفع الضرائب والعناية بالأملاك وصيانتها. كانت الأسرة تعرض ممتلكاتها للبيع شيئًا فشيئًا، غير أن سوء الفهم الكبير كان لا يزال قائمًا يحجب الرؤية، ألا وهو الاقتناع بالامتياز والتميز، هل من أجل هبة إلهية؟ والاقتناع بأنه سوف يكون هناك دومًا وفرة من المال، الذى لم ينقص أبدًا.

لم يكن يساور والدى أى شك فى أنه بالإمكان أن يعمل السيد النبيل صاحب المال والجاه، وما كان يعتبر فترات الإقامة الطويلة فى الريف، من مايو وحتى سبتمبر، بمثابة العمل. أما بقية التزاماته فقد كانت تحتم عليه المشاركة فى الحياة المدنية الاجتماعية فى مدينتى تورينو وفلورنسا، مرتديًا الزى الرسمى والقلادات، وتحتم عليه أن يلعب بالورق لعبة "الهويست" ويعول والدتى وأبناءها كما كان ينبغى. كل هذا على الرغم من أن زيارة مدير الأملاك، الذى كان يجىء إلى المدينة مرة فى الشهر وينفرد بوالدى فى حجرة المكتب، كانت تزيد من اضطراب والدى وانزعاجه، عامًا بعد الآخر.

ذهب والدایَ إلى المسرح فى ذلك المساء. كان خروجهما مساءً، يحدث بعض الجلبة والحركة فى المنزل، وكان الذهاب إلى المسرح فى ذلك الوقت يتطلب رداءً يشبه زى الحفلات الراقصة. كانت أمى تُخرج القَبة من ريش النعام الأبيض وقطعة المجوهرات المعتادة وهى طوق من لآلئ النهر وحجر الزفير. كان أبى يرتدى بدلة الفراك ذات الصُدرة الواقية الصلبة وصف الأزرار البلاتينية. كان كلاهما يحتاج إلى مساعدة كى يرتدى ملابسه. وبعد الانتهاء من لف آخر خصلة شعر على المكواة الساخنة، كانت والدتى تهبط مع والدى إلى الصالون ليحتسيا كأسًا من الشمبانيا قبل أن يخرجا.

كانت هذه لحظاتى المفضلة، إن تمكنت من الإفلات من حراسة السيدة وودرووف، مديرة المنزل، وهى اللحظات التى أراقب فيها، وأنا مختبئة وراء الستار، طريقة التزيين الخاصة بوالدتى التى كانت تبدو لى ملكة، بل على العكس، أجمل ألف مرة من الملكة؛ لأن وجهها كان مألوفًا لدىّ، وكنت أعرف قسماته فكنت بذلك قادرة على إدراك تحوله الرائع. كانت المجوهرات، وبودرة الوجه، وريش النعام تحول ذلك الوجه العذب إلى قناع من الأناقة الرفيعة. وكنت أنا أستمتع سرًا، دون أن يرانى أحد، بهذا العرض، وبهذه الإشارات والإيماءات الطبيعية الهادئة التى كان والدایَ يقدمانها إلىّ؛ وهما يجهلان تمامًا مقدار المفاجأة التى

يثيرانها بداخلى وأنا أراهما هكذا على راحتهما على الرغم من أنهما فى كامل زينتهما، كما لو كانت تلك هى طبيعتهما الحقيقية وقد ظهرت أخيراً على السطح.

ذلك المساء، وبعد أن صرف والدى الخادم وقام شخصيًا بصب الشمبانيا فى كأس والدتى، فى بادرة غير معتادة استحقت أن تعقب عليها والدتى قائلة: - كيف يكون هذا؟ أهناك ما يسوء يا ڤيكتور؟ استأنف والدى الحديث بصوت متعب ومتسلط، كحاله دائمًا فى أغلب الأحيان.

- عزيزتى، لعله من الضرورى أن نخفض من مصروفاتنا. فنحن نواجه بعض الصعوبات. عندما تكونين فى الريف، على سبيل المثال، أتحتاجين حقًا طباخًا، وقائدًا للسيارة، وخادمة وخادمين؟

تنهدت أمى.

- لكن... لست أعلم. عمن يمكن الاستغناء؟ كل منهم يقوم بدور لا غنى عنه فى إدارة أمور البيت وتسييرها. إن هذا ليس إسرافًا، يا ڤيكتور. إنه أسلوب حياة... طبيعى.

نهض أبى وأخذ يروح ويجيء. كان يتمايل قليلاً. ثم استدار نحو أمى وقال لها بكل ما أوتى من عذوبة:

– إلينا، ربما خادم واحد... فعندك خادمان. لعلك تتمكنين من الاستغناء عن واحد منهما، وتعهدى للأكفأ بمهام الآخر.

نهضت أمى بغتة.

– لكن ما السبيل إلى ذلك؟ أنت تعلم أننى أخرج، وأقوم بزيارات.

– لديك سائق.

– بالطبع لا يمكننى أن أذهب بمفردى مع السائق، هذا ما كان ينقصنا، لم يحدث هذا من قبل أبداً. لابد أن يأتى الخادم معى.

– حسناً. ليصحبك خادم واحد. أما الآخر فيمكننا الاستغناء عنه.

وضعت أمى يديها على وجهها. وهى حركة نادراً ما كانت تقوم بها.

– يا إلهى، لم أكن أعتقد أن الموقف خطير إلى هذا الحد. سامحنى، إن لم أكن قد أدركت الأمر... إذن، ينبغى أن ننبه إلى عدم استقبال أية زيارات، حينما أكون فى الريف... أو فى الخارج وأنا أستقل السيارة.

– ليس هذا ضرورياً... فأنا لا أدعوك إلى العزلة الجبرية أو الانسحاب من الحياة الاجتماعية.

– ولكن يا عزيزى، إذا كان الخادم يرافقنى فى الخارج، فمن الذى يفتح الباب ليستقبل الزوار؟

– حسناً... أقترح... آدا، خادمتك. أليس اسمها آدا؟

– لا! لا يمكن أن يحدث هذا أبداً! إن هذا المنزل منزل أسياد وجهاء، ولا يمكن لامرأة أن تقوم بفتح الباب. فأنا لن أقبل هذا أبداً. ويدهشني أنك تمكنت من التفكير بهذه الطريقة، يدهشني ويحزنني.

كم مقدار الاستياء والاستنكار التى كانت أمى تنجح فى بثه إلينا من خلال هذين الفعلين اللذين كانت تستخدمهما بابتذال وبصفة يومية. كانت هذه هى طريقتها فى إنهاء أية محادثة. كانت تدير بالكاد كتفيها، وفى اختلاجة سريعة تمد يدها وتقبض على دنتيللا وحرير ونسيج الغرغن. لم أر أبداً سيدة غيرها تلملم رفل ثوبها على هذا النحو.

كانت محقة، فى منزلنا لم يكن هناك مجالاً للإسراف. إنما، إن كان ليس بالإمكان أن يكون لدينا كبير خدم مهمته أن يفتح الباب وهو يرتدى الفراك وربطة العنق السوداء، حسناً، فليس هناك ما يدعو للتفكير طويلاً، فالباب لا يُفتح، أليس كذلك؟ وهكذا، فمن كان يبغى أن يبعث برسالة، أو أن يشكر من أجل دعوة، كان بمقدوره أن يدق الباب لساعات ولأيام طوال؛ وإن كان يتمتع بقدر من المثابرة، لم لا؟، يمكنه إقامة خيمة عند بوابة الدخول، مثل أمير مونروى دى باندولفينا، ويكتفي بوجبة سريعة من الحرشف البرى المطهو بالغلى البطيء وعليه كريمة الكمء مع قليل، قليل من الشمبانيا، وينتظر فى صبر عودة السيدة الكونتيسة.

لم أكن لأذهب للنوم مطمئنة، ذلك المساء، لو كنت شعرت فقط ولو من قبيل الحدس أن مخاوف والدى المالية تشبه نسمة الهواء فى شهر أغسطس التى تنذر على الرغم من اعتدالها، بهبوب عاصفة شديدة.

أما بالنسبة لأمى، فهى لم تكن لتتنازل بالقطع عن واحد من خدامها. كانت على يقين من أنه يكفيها أن تمتعض وتلوى شفتيها فينحني العالم كله أمام رغباتها، وهو ما كانت سوف تفعله.

٥

كانت السماء تمطر، ذلك المساء الذى غير فيه أبى مسار حياتى. كنا قد نهضنا لتونا من على المائدة، والدتى ووالدى وأنا، وقصدنا الصالون. كان شقيقى أنريكو فى النادى كعادته كل خميس.

– لقد أعددت قائمة صغيرة، ياعزيزتى.

قالها أبى وهو يمد لى يده بورقة زرقاء صغيرة ملأها بخط يده بكلمات حروفها كبيرة.

ابتسمت أمى وقامت بدق الجرس. حان وقت تقديم القهوة وقطع الشيكولاتة الصغيرة.

– ما هذا يا أبى، ما الأمر؟

كنت غير مهيأة على الإطلاق. كان عالمى ينحصر آنذاك فى الخيول، ولم أكن أفكر فى أى شىء آخر. أثناء الأمسيات الطويلة الهادئة التى كنت أقضيها فى المنزل مع أبوىَّ، كنت أتوه فى عوالمى الخاصة، الخيالية والمليئة بالمغامرات، وبسبب هذا التيه فى أماكن بعيدة هكذا، جعلنى صوت والدى أرتعد وأكتم أنفاسى.

– ما الأمر؟

– الأمر يتعلق بالزواج. لقد تشاورت مع والدتك وجدتك. وأخذنا فى اعتبارنا ميولك واهتماماتك وقمت بإعداد قائمة أسماء. فكرى فيها. أمامك الليل بأكمله لتفكرى فيها، ويمكننا أن نتحدث فى الأمر غداً ونحن نتناول فطورنا. إنهم خمسة أشخاص ممتازين، مناسبين لأسرتنا. آن الآوان كى نعلن خطبتك. يمكنك أن تختارى الشخص الذى يحظى بإعجابك أكثر من الآخرين. من ترينه أكثر... من... خلاصة القول، الزوج الذى تفضلينه. أنتِ تعرفينهم جميعًا ولا أريد أن أؤثر على اختيارك. سوف أحترم وأؤيد اختيارك.

لا يزال يرن فى أذنى صوت جدتى الحاد القاطع، "جرانماما"، كما يطلقون عليها فى المنزل، وهى تقول:– الزواج عن حب، يا له من ابتذال!

إنه الكلام الرتيب المتكرر بين الحين والحين لإنهاء موضوع أحد المعارف، ابن أحد الأحفاد وقد جاء فى زيارة وعيناه تلمعان من الانفعال والتأثير وهو يقول:- من يدرى إن كانت فتاة بيتشنسا تلك، سوف يروق لها الإقامة فى تورينو أيضًا، لقد تعرفنا هذا الشتاء، والدها محامى عصامى، وأنا مغرم بها.

تستشيط جدتى غضبًا وتثور وهى جالسة على المقعد، تسقط عنها العدسة الصغيرة، ثم ترن الجرس طلبًا فى المزيد من الشاى، وعندما يرحل الحفيد أخيراً، تتنهد فى انكسار قائلة:- "مغرم بها"... ما عساه يقصد؟

كان عمرى تسعة عشر عامًا. لم أكن أريد أن أحيا من أجل رجل، من أجل بيت ملىء بالشقوق التى تتسرب منها الريح، من أجل أطفال ملتصقين بهدب التنورة، لم أكن أبغى زوجًا من اختيار أبى، اسم من بين خمسة أسماء، خمسة! خمسة فقط هى الاحتمالات التى منحنى أبى إياها! وتلك الوريقة التى كان أبى يمدها لى، ماذا عساها كانت غير حكم سريع وتعسفى، شبح قادم من ماضى العرف والتقاليد المتجمد؟ إنه زواج مدبر مرتب. ولماذا هذه السرعة؟ لم يحدث هكذا لصديقاتى، فها هى أوليمبيا رينيون قد تزوجت من ملازم بسلاح الفرسان الذى ظل يخطب ودها طوال فصل شتاء بأكمله. كنت أعلم أنه لا مكان فى بيتنا

لبعض "الأساليب العصرية"، إلا أننى لم أكن لأعتقد أنه قد يبلغ بهم الأمر إلى هذا الحد. كنت قلقة، مذعورة وغاضبة. فأنا عمرى تسعة عشر عامًا فقط ونحن نعيش فى عام ١٩٢٨، إنه عالم عصرى، انظر خارج النافذة، يا أبى، على نهر الطريق، تمرق السيارات إلى جانب عربات العلف وعربات اليد! إن العالم والعادات تتغير، فلا تضحِّ بى من أجل طقوس ظالمة، غير مجدية وبالية وقاسية...

وعلى العكس سمعت نفسى أقول، بصوتى المعتاد، وأنا أجول ببصرى فى القائمة:

– جوزيبى براكموند... ابن عم... أفضل أن أحتفظ به هكذا. جوڤانى بريكيرازيو... إنه عجوز للغاية، يا أبى، لست أود أن... أنريكو بللاردى... موظف فى أحد البنوك، ثرى جداً. قد يصبح بيتنا سوقًا للتجارة... وفرنشيسكو ڤيللافورستا... لم أره سوى مرتين... يمتطى الجواد بشكل جيد، أليس كذلك؟

– أجاب والدى:– بلى، إنه ابن وحيد ويمتلك أراضى واسعة يعمل على رعايتها. يقولون إنه شاب ممتاز. وأمه...

لم أعد أصغى إليه. كان يبدو لى أن هذا السيد المدعو ڤيللافورستا هو المعجزة التى منحها الله لى فى آخر لحظة. ورحت أفكر أن

ڤيللافورستا سوف يسمح لى بتربية خيولى الأصيلة؛ فهو يحب الخيول والحياة الرياضية، مثلى؛ والمرات القليلة التى رأيته فيها بدا لى رجلاً أنيقًا، لا يميل كثيرًا إلى مباهج الدنيا، وربما كان قليل الكلام. عندما وقع بصرى على آخر اسم فى القائمة، أوچينيو ديللا تورى، علمت يقينًا أنها فعلاً معجزة. فقد كان المسكين ديللا تورى يُعد أكثر الرجال بلاهة فى المدينة كلها.

تزوجت فى تورينو، فى العاشر من أكتوبر ١٩٢٨. لم أكن قد بلغت بعد العشرين من عمرى، وإذ بحماقة ديللا تورى وبلاهته وثراء بيللاردى، وشعر بريكيرازيو الأشيب، وعلاقة القرابة مع براكموند، كل هذا جعلنى أسير، ورأسى مغطاة بطرحة أصلية من بروكسيل، بطول جناح كنيسة القديسين بطرس وبولس. هأنذا، أحمل بيدى باقة تضم مزيجًا من زهور الزنبق مربوطة بخيوط حريرية؛ وأرتدى فى قدمى حذاءً بديعًا آخر صيحة، مصنوعًا من جلد البقر الأبيض برباط والكعب على شكل بكرة؛ أما ثوب العرس فهو من تفصيل الأختين جامبينو، وهو موديل أحدث صيحة، من باريس وبالكاد يلمس العرقوب. أرتدى فى عنقى عقد من اللآلئ يصل إلى أسفل البطن وهو هدية من جدتى. هل هو مكافأة؟ هل هو وعد بهدايا أخرى براقة إن أنا سلكت كما ينبغى؟ الشىء الأكيد هو أننى بحق، على الأقل ليوم واحد! فتاة على الموضة، ولقد وضع أبى جانبًا

كل همومه المالية، وكما يقول أخى "مظاهر بخله"؛ لأننى ابنته الوحيدة ويريد أن يجعل من حفل عرسى حفلًا يليق به وبى.

وقد أمر الملك بأن يتركوها تنام فى هدوء طالما لم تحن بعد ساعة الاستيقاظ.

راحت جدتى تتذمر وتقول:– خسارة، خسارة، خسارة، إنّه لم يعد أحد يرتدى ريش النعام نهاراً؛ فقد كنت أود أن أراك ترتدين القبة الخاصة بى المستوردة من الصين.

وهنا تتدخل أمى قائلة:– لا يا جدتى، إنها ليست مستوردة من الصين، لقد اشتريتها مع ڤيتوريو من نابولى، فى رحلة شهر العسل، من ريڤييرا دى كيايا.

ويتدخل والدى قائلاً:– لا، يا إلينا، لقد اشتريناها من باريس من عند جوت، ألا تتذكرين؟

وهكذا مضوا يتباحثون عن قبة النعام، وعما إذا كان قد تم شراؤها من بكين، أم من نابولى أم من باريس، لماذا لا تنظرون جميعكم إلىَّ؟ لماذا لا تدركون أننى لا زلت هنا؟ حتى وإن دام الأمر وقتًا قصيراً، الوقت الضرورى لإقامة المراسم الدينية، وبعدها أخرج من الكنيسة ونقف كلنا فى وضع التقاط الصورة وقد أصبحت الآن "السيدة ڤيللافورستا" فمن الأفضل وضع هذا فى الاعتبار. انظر إلى زوجى الذى اختاره لى والدى،

إنه جميل، ويتسم بنظرة فخورة جذابة، عنده شوارب ويتحدث إلىَّ برقة متناهية.

لست أشعر بأى شىء آخر، لا بفضول ولا بأية رغبة.

وبعد حفل الاستقبال، وانصراف آخر ابنة عم وقد انحرفت مجموعة الريش التى كانت تزين قبعتها، ذهبت أنا وفرنشيسكو إلى ريفيليسكو، فى بيت والدته؛ حيث سنقضى الليلة الأولى سويًا. أختلى بنفسى فى غرفتى. ترسل لى حماتى إيرينى، خادمتها الخاصة التى تساعدنى فى خلع ملابسى وتصفيف شعرى والاغتسال، وتنثر العطر على جسدى وهى تتمتم بلهجة إقليم بيمونتى وتقول جملاً غير مترابطة وتضحك بينها وبين نفسها.

أنا ساذجة ولكن ليس بالقدر الكبير. يمكننى أن أتكهن بأن هذه الخادمة التى بلغت منتصف العمر وقد ثُلم فوها كإناء شاى قديم، تلمح إلى ما سوف يحدث لى بعد قليل من الآن.

أشعر بالنفور من هاتين اليدين السمينتين اللتين تصففان لى شعرى وهاتين العينين الصغيرتين المتغامزتين، فأصرفها فى قسوة.

لا شك أنها سوف تبلغ حماتى غداً، التى سوف لا تتردد فى تأنيبى متسائلة لماذا أردت أن أهين امرأة على هذا القدر من الطيبة وحسن الأخلاق، لؤلؤة، تعمل فى المنزل منذ أربعين عامًا؟ لماذا؟

٦

ذهبنا إلى باريس فى رحلة شهر العسل.

نزلنا فى فندق "لوتى" وبات واضحًا جليًا بعد أيام قلائل أنه ولا حتى الخيول كانت لتقربنا من بعضنا. كنا نسير فى شارع فوبورج سانت أونوريى، وبينما كنت أحاول استنشاق رائحة باريس وأخزن بذاكرتى كل واجهات المحال الزجاجية، وكل مقهى، وكل مار، كان زوجى يُظهر نبرة سأم وضجر، كمن شاهد واختبر بالفعل كل شىء؛ ولعل أصدقاءه فى سلاح الفرسان وما يحكونه عن النساء سهلة المنال والسباقات التى تقام فى "لونجشا"، لعل كل هذا أفسد عليه بحق المفاجأة؛ لعل فرنشيسكو كان يبحث فى باريس عن مشاعر وأحاسيس أخرى، تختلف عن تذكارات الرفاهية التى يمكن استخدامها وبكل سهولة عند عودتنا فى صالونات مدينة تورينو.

كان يشعر بالملل وهو معى، ففى اعتقادى أنه كان يعانى من عدم انتمائه لجماعة الوجهاء وسيدات المجتمع الذين يثرثرون حول دوق وستمينستر، ومن أنه لا يمتلك بالمنزل حاجب الهواء كورومانديل مثل كوكو شانيل أو من أنه لا يسافر إلى بيارَيتز صيفًا.

غير أن سوء مزاج فرنشيسكو كان ينزلق من علىَّ دون أن يترك أى أثر. كنت فى باريس. كان هناك على الدوام من يذهب إلى تورينو كى

"يُقيِّم الموقف" فيما يخص الموسيقى، أو الفن أو المسرح، وكان هناك على العكس من يذهب إلى تورينو لتفصيل الأقمصة، مثل العم كلا ڤيسانا. وقد ظلت باريس عالقة فى ذاكرتى كمكان نجلب منه أكثر الأشياء تباينًا واختلافًا، مثل الورود الحريرية التى نضعها فى المزهريات والعطور، والكبد وأقلام حيوان السمّور التى كانت جدتى تستخدمها فى الرسم.

كانت قائمة الأشياء طويلة طويلة، تضم السادة الوجهاء فى زى الفراك الأسود الرسمى وهم يتنزهون فى الصباح الباكر حتى يستعيدوا نشاطهم بعد ليلة بهجة ومرح، وكبار مصممى الأزياء، ومجموعة "فابيرچى" التى باعتها مجموعة من الروس لدفع إيجار غرفتين بحى سان ميشيل، ومتحف اللوڤر وما به من كنوز، حيث كان قلبى يرتجف ليس لرؤية الچيوكونده، وإنما بسبب هذه الدهاليز والممرات اللانهائية الخاوية، وكنت أفكر، ماذا وإن تهت هنا بالداخل، فمن الذى سيجدنى؟ ومن ذا الذى ينقذنى؟ هل سأتحمل ليلة بأكملها وأنا محبوسة هنا بالداخل وسط كل هذه الوجوه؟ هل من الأكيد أنها لن تقوم بمسيرة لتثير زوبعة من حولى فتفقدنى عقلى؟ ألم يحدث شىء من هذا القبيل لأحد السائحين الهولنديين قبل بضع سنوات؟

لم تكن المدينة وحدها هى التى تؤجج هذه الإثارة؛ فقد كان يثيرنى أمر لم أحسه من قبل، حيث إننى، هناك، بين واجهات المحال التى

تعرض كل ما هو مطابق لذوق العصر، قمت باكتشاف ما؛ إذ قد فهمت أننى جميلة.

حينما كان فرنشيسكو يتأخر فى العودة مساءً، لست أدرى أين كان يذهب، لكننى أستطيع أن أتخيل، كنت أخلع ملابسى وحدى، وحدى أخيراً، فى الحمام وكنت انظر لنفسى فى المرآة وأنا من دون ملابس. لم أكن ممتلئة مثل نساء "رينوار" اللّبنيات، مثلما كانت أمى وجدتى أيضًا؛ ولكننى لم أكن ذات عظام بارزة كذلك.

لم تكن لفرنشيسكو أية علاقة بهذا الاكتشاف. كان الوقت الذى قضيناه سويًا ليلاً رديئًا لا يستحق أن يُذكر منه شىء.

وعلى العكس من ذلك، أعتقد أن أول لقاء لى مع تروت كانت له علاقة كبيرة بما قمت به من اكتشاف بخصوص ما أتمتع به من جاذبية كامرأة.

كنا قد دعينا إلى حفل استقبال لدى بارونة لوندن، وهى واحدة من بنات عم والدتى كانت قد تزوجت من دبلوماسى ألمانى.

أتذكر جيداً ذلك البيت فى حى كامون، وقد أُضىء بدستة من الشموع، ومزهريات الكريستال حيث وضعت البارونة باقات كبيرة من زهور الكالا. كانت الصالونات الأربعة مزينة وفقًا للمذاق الكلاسيكى الحديث؛ هذا وكأننا نقول إنه بعد العبث، بعد الزخرفة المثقلة، والزخرفة

برسوم وزهور صغيرة والأسلوب الانتقائى، وكل ما نريده من أساليب، ها نحن نعود إلى أناقة الخطوط البسيطة الثرية، نعود إلى الجص الأبيض الذى يتناوب مع اللون الذهبى، حقًا لم يكن هناك استخدام لألوان أخرى داخل هذا البيت بخلاف اللونين الأبيض والذهبى. وزهور الكالا، المتصلبة فوق أعوادها، تلك الزهور الباردة الأنيقة والمعاصرة، كانت تشير إلى أن البارونة كانت تعلم، آه، وكيف لا تعلم أنه هناك بالخارج، على الطرقات الكبيرة، كانت الغلبة لشىء يُطلق عليه "الذوق الجديد"، وأن الكثير من قطع الأثاث التى يعلوها الجص كان ينبغى نقلها إلى سطح البيت؛ لأن البيوت التى تتبع الذوق العصرى اليوم هى عبارة عن قواقع رقيقة من البرنيق الأسود والسجاجيد الفاتحة اللون، فاللون الواحد أسهل، لا يختلف عليه اثنان، غير أن البارونة تشبه الماريشال المتمسك بكل ما هو قديم، كما تذكرنا أيضًا ألقابها الكثيرة وصفاتها؛ لذا فهى لا تستسلم بسهولة لزيف الذوق العصرى. ومع هذا، عندما تأتى للقائنا مبتسمة، ترتدى رداء من قماش الچرسيه مفتوحًا حول العنق بطريقة انسيابية وعلى كتفها دبوس مشبك من الألماس وأحجار الياقوت الحمراء أسلوب زخرفته يعود إلى العقد الثانى من القرن العشرين.

أخيراً يبدو فرنشيسكو على سجيته، فهو يتحرك منطلقًا برشاقة، وقد تعرف على شخصين أو ثلاثة يدخل معهم فى محادثات طويلة.

وتهتم بارونة لوندن بأمورى، فتأخذنى هنا وهناك وتقول لكل من نقابلهم إنها لمفاجأة جميلة كونى "جذابة هكذا وجمالى جمال أصيل حقيقى". يومئ ضيوفها وكأنهم يقولون لها إنها على حق؛ وتغتاظ البارونة، وتحتج، لماذا أبعدوننا كل هذا الوقت؟، "هل هذا ممكن؟"، كان ينبغى أن أصل إلى باريس "قبل ذلك بكثير"؛ ولا أسألها تقصد قبل ماذا. ففى قلبى شك، بل إننى على يقين من أن كلمة "قبل" تلك تعنى قبل زواجى السريع بفرنشيسكو، والتى تعتبره البارونة بالطبع زواجًا غير متكافئ. أرتعد، ولكن ليس من قبيل الاستنكار، بل لسبب عكس ذلك تمامًا، فأنا أيضًا أعتقد أنه كان لزامًا علىَّ أن أرى بعض مباهج الدنيا قبل أن أرتبط، روحًا وجسداً، بسيد مهذب بالكاد أعرفه.

حينما نجلس على المائدة، أكون فى مواجهة زوجى، غير أننى لا أراه. فهو يختفى وراء صوانٍ عالية من الكريستال والبرونز المذهب، مملوءة بالزهور البيضاء وكرات صغيرة متعددة الألوان. يجلس عن يمينى سيد إنجليزى عابر، يتجاذب أطراف الحديث معى مبديًا ملاحظات مهذبة حول آخر الاكتشافات بخصوص التدفئة المنزلية، كيف يكون هذا؟ لم أكن أعلم أنه يمكن أن نكون من أنصار هذا المنهج أو ذاك، أنابيب تُملأ بالهواء الساخن مقابل أنابيب مملوءة بالماء المغلى؛ وأنا أيهما أفضل؟ ما النظام المتبع فى إيطاليا؟

وحينما أجيبه أنه بالحقيقة تعجبنى النار فقط؛ لأن لها رائحة طيبة وضوءاً جميلاً، تغوص المحادثة فى الرمال تماماً مثل جزع شجرة على ضفة النهر؛ ولا شىء بعد يمكنه أن يحييها من جديد. وإذ يشعر السيد الإنجليزى بالإحباط، يلتفت عن يمينه ويبدأ يتجاذب أطراف الحديث مع امرأة فى ثوب أحمر، ألا يزال يتحدث عن التدفئة؟ أنظر أمامى، وأتأمل بإعجاب العناية التى نظمت بها البارونة مدعويها الذين يثرثرون جميعهم فى انطلاق ويسر، اثنين اثنين.

أقول لنفسى إنها أخطأت معى فقط؛ فهذا السيد الإنجليزى الذى تلمع عيناه عن رضا داخلى بينما يشرح طريقة تشغيل مدفأة حديثة، سوف يعود إلى منزله محبطاً ومتيقناً أن الإيطاليين لا يعنيهم التقدم فى شىء، بل، إن كان الأمر بيدهم...

التزم الصمت. لقد احتسيت القليل من الشمبانيا والآن تختلط الأمور كلها؛ الأصوات، ورنين أدوات المائدة، وضوء الشموع الراقص، وهنا أعى، من خلال التكهنات التى تحرق من كثرة وضوحها، أننى داخل مصيدة وأن شخصاً آخر قد قام بتقرير حياتى وتنظيمها والتخطيط لها. لقد أعطونى سوراً أستطيع بداخله أن أرفس، وأتحرك، وأتكاسل؛ لكنه شىء من قبيل حقل ترويض الخيل. أما العالم فهو خارج هذا السور.

– سيدتى، هل حضرتك حزينة هكذا دائماً؟

أثلجتنى وقاحة السؤال.

لا أزال أنظر مائدة البارونة واختيارها لهذه الزهور البيضاء. أخذ نفسًا عميقًا، قبل أن أحدد الكلمات الثلجية التى سوف أجيب بها على مثل هذه الوقاحة؛ فأنا مثل "بيك"، حصانى، عندما يخاف من رعد ما.

ينتفخ وريد الوجه، وتحدق العينان فى الفراغ، وترتجف فتحات المِنخَر.

وأروح أرفس، وأكيل الضربات ولا أسمح لأحد أن يمسك بلجامى. ينبض قلبى بشكل جنونى.

لا يتسرب خارجًا أى شىء من ملامح هذا التحول الحاصل بداخلى.

ثم ألتفت عن يسارى ببطء.

غدوت بلا حراك، ولكننى أشعر بأننى أهوى بداخلى.

أهوى فى الفراغ.

لم أعد أرى أو أسمع المزيد.

كل هذا حدث فى لحظة، فالساحرات الطيبات يسرعن فى عملهن.

أمامى رجل فى الثامنة والعشرين، الثلاثين من عمره. أمامى تروت.

علمت فيما بعد أنه بدا لتروت أننى أنظر إليه بنفس النظرة التى كان هو ينظر بها إلىَّ، وأنه أحس فى نظرتى بنفس القدرة الجليدية التى كنت قد شعرت بها أنا أيضًا فى نظرته. كانوا يطلقون عليه تروت اختصاراً للقب نمساوى طويل للغاية ومن الصعب نطقه، وهو أحد الأسماء التى كانت بارونة لوندن لتصفه بأنه فى مهب الريح. وُلِد تروت بمدينة ڤينيسيا، ولكنه قضى طفولته وشبابه فى باريس لأن أسرته خشيت أن تؤذيه الرطوبة؛ إذ كانت شقيقته قد ماتت متأثرة بالحمى الروماتيزمية، وقتما كانت أسرته لا تزال تقيم على "القنالى جراندى"؛ وعلمت أنه قد تزوج منذ بضعة شهور بفتاة من مدينة "بوردوو" اسمها إيناس. كان البعض يقول إنه رجل أعمال؛ أو إنه يعمل بالسياسة، وفقًا لرأى البارونة التى كانت تحب أن تدعوه لأنه كان يتكلم الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية بطلاقة، وكان على قدر كبير من حسن الأخلاق لدرجة جعلته من أكثر الضيوف قبولاً واستحساناً.

لم أكن لأتخيل أبداً، فى ذلك المساء، كم الأمور التى سأعرفها عنه. وقتها، كنت على يقين تام من أنه يرانى جميلة فى عينيه، كما لن يرانى أبدًا أى شخص آخر. شعرت أيضًا أننى أفقد شيئًا ما. لم يبد لى، فى ذلك الوقت، شيئًا ذا قيمة كبيرة. لم أفهم، حينئذ، أهمية ما كان يحدث.

كنت قد سمعت بحق صوت فرقعة أصابع البهلوان، وحتى الأسياخ التى كانت بداخل المدفأة، محملة بفراخ الحَجَل والديوك البرية توقفت عن الدوران وانطفأت النار كذلك. كل هذا حدث فى لحظة، فالساحرات الطيبات يسرعن بحق فى عملهن.

وأنا أيضاً غلبنى النعاس. ظللت أتجرع النبيذ وأتجاذب الحديث فى ذلك المساء، ثم بعد ذلك، قضيت الأيام التالية فى الاستمتاع بباريس وطرقاتها البديعة. عدت إلى تورينو وبدأت حياتى الجديدة، الاجتماع على وجبة الغذاء، والذهاب إلى الصيد وبروقات الخياطة ومصممة الأزياء؛ لأنه كان يجب أن أجدد صوان ملابسى مرتين فى العام بعد أن أصبحت سيدة متزوجة.

كان هناك أمر ما يسمونه بالحزبِ الجديد يشتعل، خارج حجرة صالونى المكسوة بالحرير، وكانت المناقشات تُهيج كل من كان يُتعب نفسه فى قراءة الجرائد من أزواجنا.

لم يكن فرنشيسكو واحداً من هؤلاء. ففى كل صباح كان ينتظر بفارغ الصبر أن يصل چينو من جهة طريق "كونيولى ألتى"، على التل، ويحمل معه دلاء معدنية مليئة باللبن. كان چينو يجلس فى المطبخ، ويصب لنفسه كوباً من نبيذ "باربيرا" منتظراً فرنشيسكو كى يعطيه أخباراً عن الخيول، وعما إذا كان المُهر الجديد يأكل جيداً، وعما إذا كانت الفرس حبلى أخيراً. هذه كانت الأخبار الوحيدة التى كانت تهم زوجى.

أما بالنسبة لى، فبسبب الكسل أو الجهل أو عدم الاهتمام بالعالم الخارجى، فلم يكن حتى يراودنى.أى شك فى أنه بالإمكان أن تكون هناك حياة مختلفة عن حياتى وعن أيامى البطيئة التى تتشابه كلها والتى أقضيها بين الواجبات الاجتماعية وبعض المهمات المنزلية النادرة.

اليوم أستطيع أن أقول، وبمنتهى الثقة، إننى كنت أنام وقتذاك. وإلا لكنت قد تنبهت أن تورينو قد تغيرت سريعاً فى سنوات قليلة. كان يكفى السير تحت الأروقة عصر السبت لترى وجوهاً لم ترها من قبل، فتيات جميلات وجناتهن حمراء وهن يتنزهن متأبطات ذراع خطابهن، وأناس تتكهن من ملابسهم أنهم وصلوا لتوهم إلى المدينة، جنود من الشباب وطلاب. كانوا يفتحون منشآت ودور سينما جديدة، ومقاهى ومطاعم صغيرة على طول نهر البو، وكانت عائلات بأكملها تنتقل من الريف إلى المدينة. عندما كنت أستمع، طوال تلك السنين، لأحاديث أبوىَّ وأنا شاردة، غالبًا ما كنت أسمعهما يقولان، بقليل من الاشمئزاز، "إنه رجل صناعة". كان هذا يُقال عن السيناتور رايموندى وعن البارون مونكالڤو، وعن أفراد عائلة كليرمونت وعن آخرين كثيرين. كان رجال الصناعة هؤلاء، من وجهة نظر أمى، هم الذين كانوا يجعلون من أوقات فراغهم وأوقات فراغنا شغلهم الشاغل؛ فعلى سبيل المثال "العربات" على حد قولها، "والأفلام، التى تصلح فقط للخادمات وبائعى اللبن"، وبالمثل كان رأى والدى محدوداً لا يختلف عن رأى أمى. من بين كل المهن الممكنة،

كانت مهنة رجل الصناعة هى التى تثير فيهما إعجاب وريبة؛ فهى مسألة وقت حتى تُقام منشآت كبيرة ذات طابع يسارى "عصرى"، مكان الحقول المزروعة، وهى مسألة وقت حتى تنشأ مصانع الجعة والحلويات، وعند هذا الحد كانت أمى لا تفهم بحق من كان يمكنه أن يرغب فى احتساء الجعة أو تناول حلوى صناعية، ولكن علينا أن نتمهل لنرى إن كان هؤلاء سيحظون بالنجاح فعلاً! وإن كانوا سيتجاوزون الحارس العجوز طالبين أن يُسمح لهم بالاشتراك فى النادى أو مقدمين على شراء الڤيللات التى تعلو التل... راحت أمى تفكر، وقد أصابتها قشعريرة حقيقية، فى مصير كونتيسة "سان بيير" العجوز، التى وُجدت مضطرة أن تبيع لشخص ما يُدعى فينوليو أكثر القطع قيمة وأهمية من مجموعتها الفنية... كما كانت تفكر أيضًا فى مصير عائلة كوستامانيا، التى تنازلت عن قصر العائلة لرجل متخصص فى صناعة المنسوجات الصوفية وهو ابن لأحد المدرسين بالمدرسة الابتدائية... وقد أقام رجل الصناعة حفلاً راقصًا تكلف مبالغ باهظة... وأحضر الكماء والمحار على سبيل الإبهار... إبهار من، يا ترى؟ خلاصة القول، كان الحذر والحيطة يحتمان الابتعاد تمامًا عن هذا كله، خاصة وأن هؤلاء ما كانوا ليهتمون بدعوتنا.

كان فرنشيسكو له رأى مخالف لهذا، على الأقل بخصوص هذا الأمر، وفى الفترة الأولى من زواجنا، كان كثيراً ما يحثنى على توسيع دائرة المدعوين خارج نطاق الأصدقاء المعتادين. أتذكر تلك المناسبات

النادرة كنوع من التغيير المحبب؛ فعادة ما كانوا رجالاً شغوفين بالحديث عن أعمالهم الخاصة أو عن الصعوبات التى يواجهونها بصفة يومية. كنت أسمعهم يتكلمون عن السياسة وعن اتحادات عمالية، عن أرباح ومكاسب وأسواق أوروبية، عن أزمة اقتصادية ومشاريع ترتبط بالتسويق أو بتحسين هذا المنتج أو ذاك. كلها موضوعات جديدة تماماً بالنسبة لى، وكنت أجتهد حتى أفهمها وأتذكرها.

كانت آداب اللياقة تقتضى أن يبقى الرجال، بعد تناول الغذاء، فى حجرة السفرة لتدخين السيجار واحتساء "البورتو"، بينما تنتقل السيدات إلى حجرة الاستقبال. كان المفترض أن نتحدث، نحن السيدات، عن الموسيقى، وعن المعارض الفنية أو عن تربية الأبناء. واكتشفت، وكان هذا بمثابة المفاجأة لى، أن بعض أولئك السيدات يطرحن حججهن بطريقة تختلف كثيراً عن طريقة والدتى وصديقاتها؛ فكن يطرحن أسئلة، ويعترفن بما يساورهن من شكوك. وأحياناً لا يجدن إجابات على أسئلتهن.

أدركت بمرور الوقت أن هذه الأمسيات كانت مسعى غير موفق من قبل زوجى حتى يساير ما كان يحدث فى المدينة؛ حيث تسقط الحواجز، ويمعنى آخر الأحكام المسبقة، ويختلط الكل. غير أن زوجى، على مدار عام، خَلُص إلى فكرة تتطابق تماماً مع فكرة أبى وأمى وهى أنه ينبغى الاحتراز من كل ما هو مستحدث. ومن الأفضل أن نترك الحديث عن

أخبار التجارة والاتجاهات السياسية لصفحات الجرائد، وأن تقتصر أحاديثنا داخل حجرة الصالون على سباقات الخيل وإثارة الطريدة.

كان لفرنشيسكو حياته وأنا لى حياتى. وأمست أحاديثنا تقتصر على الضرورى منها فقط.

كنت على يقين من أنه لا شىء سوف يتغير من الإيقاع البطىء غير الواهم الذى سارت عليه حياتنا اليومية الرتيبة. كنا نعيش داخل أسوار حديقة لترويض الخيول، الأمر لا يتعدى هذا. ربما كان هناك ما هو أسوأ.

٨

إنه صباح عيد الميلاد. مضى شهران على زواجى. عند العودة من رحلة شهر العسل، طلبت من زوجى أن ننام فى حجرتين منفصلتين وإن كانتا متلاصقتين، وقد كان لى ما طلبت، لم يبد ڤيللافورستا ما كنت أخشاه من اعتراضات. بل اقتصر على رفع كتفيه وهو يقول ببرود تام:-
كما تفضلين.

لكنه دخل حجرتى هذه الليلة، خلسة وكأنه لص. يتسرب ضوء خافت من بين الستائر، تهيأ لى أنه ضوء الفجر إنما هو على العكس، الجليد الذى سقط بعد منتصف الليل بقليل.

- للجليد انعكاس بديع، حتى فى الظلام.

- نعم. يا لها من روعة. الجليد فى عيد الميلاد.

أجبت وأنا أطوى غطاء السرير ليغطى جسدى كله حتى عنقى. تظاهر ڤيللافورستا بأنه لم ينتبه إلى ما أقوم به من مناورات ثم اندس فى الفراش، بنفس السهولة والتلقائية التى يعقد بها رباط عنقه. أحسست بأننى أتجمد، لكننى لم أقو على قول أى شىء.

أسند رأسه فى تجويف كتفى. تلامس خصلات شعره وجنتى.

وسألنى:- لماذا؟ لماذا أنتِ خائفة؟

قلت له:- لست خائفة، لست خائفة إطلاقًا.

فهمس:- إذن اتركى نفسك ولا تقاومى.

إلى أين أترك نفسى؟

أجبته بكل ما أوتيت من حدة وقسوة:- لست فى أى احتياج إلى أن أترك نفسى.

أدركنى محتجًا:- كما تريدين.

إنه ليس بعناق، إنه تأكيد على حق ما.

لا أشعر بأى شىء. أحسه مرطباً بعرقه، كحمل ثقيل على بطنى أود لو تخلصت منه ولكننى لا أجرؤ على إبعاده عنى. أغلق عينىّ كى أركز فقط على أحاسيسى الجسدية. لا شىء على الإطلاق. لا شىء يحدث. فأنا شاردة الذهن بعيدة، ودون وعى أو إدراك أنشطر وأنزلق من صورة هذه المرأة التى يكاد يحجبها جسد فرنشيسكو الجاف. كما لو كنت أشاهدهما معًا، هو وهى، عاجزين عن التواصل، يتباعدان أكثر فأكثر، على الرغم من تقاربهما جسدياً، فهما غريبان يتقاسمان فراشاً واحداً ولكنهما ينتميان إلى عالمين مختلفين.

فيما بعد، حينما نعس ڤيللافورستا، تسللت خارج الفراش وقمت بارتداء ملابسى.

لم يبزغ ضوء الفجر بعد. امتطيت بمفردى الفرس ڤيبورنو وذهبت فى اتجاه المتنزه. تبدو تورينو ساكنة وخاوية، كما لم أرها من قبل.

استكملت طريقى بعد أن وصلت إلى حلبة ڤالنتينو لتدريب الخيول.

لست أدرى السبب، لكننى ببساطة لم أتوقف.

عبرت الجسر الذى يحمل اسم الملك أومبرتو وشرعت أصعد فى اتجاه "ڤال ساليتشى". أصعد على مهل؛ فالأرض زلقة. تأخذ آثار حوافر الخيل شكل ثقوب كثيرة داكنة اللون، وتتسبب فى وحلة من المياه. ترتفع درجة الحرارة سريعًا. لن يبقى الجليد كثيراً. تهبط عربتان من ناحية

التل، وتحمل فلاحين يحضرون الأخشاب للمدافئ أو اللبن والزبد إلى المدينة. تترك الإطارات أخاديد ممتدة مستقيمة واضحة متقنة.

يلقى المزارعون نظرة خاطفة نحوى، وأكاد أتكهن بما يدور بداخلهم من دهشة لرؤية هذه المرأة التى تروم الصعود بمفردها حتى قمة التل، فى عناد وإصرار تماماً مثل الفرس الذى تمتطيه. عندما تتكشف التلال عن مخرج ينبئ بالوصول إلى السهل الذى يغمره الجليد، أتوقف برهة وأربت على ظهر ڤيبورنو، أشعر بملمس البَوص الحريرى والذى بالكاد ينثنى تحت أصابع يدى.

يرغب الجواد فى العدو، وأفهم ذلك من الطريقة التى يحرك بها رأسه. أطيعه، فنحن - الاثنين - نحتاج أن نشعر بوخز الهواء الجليدى على وجهينا، وبانبساط العضلات وهى تبذل مجهوداً وبسخونة الجلد من جراء سرعة ضربات القلب وبالنفس الذى يصبح قصيراً. نجرى، لوقت طويل، حتى لا يبقى شيء خلفنا يستحق أن نلتفت للنظر إليه.

تبدو الأشجار والحشائش التى يعلوها الجليد وكأنها تنتمى إلى عالم آخر، وليس فقط إلى منظر طبيعى مختلف. لم يعد أى شيء مألوفاً لدىّ، بعد أن تحول إلى هذا المشهد، عقب سقوط الجليد وقد لف سكون الليل المكان. انقشعت السحب وصفت السماء.

لا يغطى الضوء الذى يبعثه الجليد على ضوء النجوم. أعود إلى البيت أكثر هدوءاً وسكينة.

أقوم بالتنزه فى عالم غير واقعى ألوانه تشبه ألوان لوح آلة تصوير داجيرية.

يخفف الجليد من صوت حوافر الجواد. الجو ليس بارداً، ويوشك القمر على الاختفاء.

كان والدایَ قد أقاما حفل عشاء مساء يوم خطبتى إلى فرنشيسكو. أخذت جدتى ساعة الجيب من البنك حيث كانت تحتفظ بها كميراث من أبيها. وفتح أبى شخصيًا زجاجة الشمبانيا، فى اللحظة التى ألبسنى فيها فرنشيسكو خاتم الخطبة، وهو عبارة عن حجرين ياقوت تم تركيبهما بطريقة عكسية، ثم دعانا إلى الذهاب إلى الحديقة.

اقترب منى فرنشيسكو وحاول أن يعانقنى. رجعت للخلف بضعة خطوات حتى اصطدمت بحائط السور.

كان الوقت صيفًا، وفى الظلام كان يُسمع دعاء الكروان الليلى وتُشتم رائحة الياسمين التى تصعد نفحاتها فى الجو. كان يصل صدى المحادثة التى تدور بين أبى وأمى من خلال النوافذ المفتوحة. كانت هناك يراعات ونجوم كثيرة جداً.

– لا أريد يا فرنشيسكو.

– أعرف. هونى عليك.

أستطيع أن أتخيل أنه كان يبتسم فى الظلام. بالتأكيد كنت أبدو له فتاة غبية. فتاة توشك أن تقول له إنها لا ترغب فى الزواج وإنها لا تعرف حتى كيف تقبل وإنها بحق لم تكن لتريد ذلك، إن كان من الممكن تجنبه...

كانت تلك القبلة غير المرغوب فيها، هى أول قبلة أمنحها لرجل على الإطلاق. لم أفهم وقتها إن كانت قد أعجبتنى. لا أعلم. لم أكن أعلم. ظللت أحدق فى تلك النقطة المضيئة بعيداً وهى مصباح الطريق. لم أغلق عينىَّ كما كنت أرى نجمات السينما يفعلن، ولكن كان هناك صوت بيانو يعزف وكانت هى أمى التى شرعت تعزف حتى يقضى الضيوف وقتًا طيبًا.

والآن أيضًا، تبدو لى النجوم وكأنها مئات من الناظرين، كما بدت لى وقتها أيضًا. وسماء الليل ما هى إلا زخم من النظرات التى تتفرس فىَّ. الكون كله ينظر إلىَّ. وأنا أبادله النظرات، بقدر ما أستطيع، وبقدر ما يصل الشعاع الذى ينبعث من حدقة عينى، وبقدر مدى الرؤية.

لا أعرف ماذا يجب علىَّ أن أفعل.

كل العيون التى تنظر من سماء مرصعة بالنجوم تتجه نحوى.

لم تنجح النزهة التى قمت بها فى أن تنزع من على كاهلى رُهاب الأماكن المغلقة بحجرة نومى، ولا حيرتى وترددى. أود أن أهرب، ولكننى لست أدرى من أين أبدأ.

لست أدرى شيئًا. عمرى تسعة عشر عامًا، ولست أدرى ماذا أفعل بها.

٩

كان قد مر على زواجى بضع سنوات حينما رأيته ثانية. التقينا فى منزل عائلة "بسيرانو"، وإنما قد يكون من الأدق أن أقول إننا اصطدمنا ببعضنا بعضًا، هكذا كانت شدة ما شعرت به من انفعال وأنا أراه من جديد. كما أننى لم أكن مهيأة إطلاقًا لهذا النوع من الانفعال. فكيف يمكننى أن أصفه؟ كم يمر من الوقت بين اللحظة التى تسقط فيها الصورة على شبكة العين واللحظة التى تصل فيها إلى المخ؟ وهل هناك تنشأ الذاكرة والدهشة والرغبة، بعد أن تسير الصورة فى مجراها وتتشعب فى تشعبات أجهلها؟ كم هى قصيرة المسافة التى تفصلنا لسنتيمترات قليلة من قبيل آداب اللياقة، بينما تروت ينحنى ويأخذ يدى ليقبلها وهو يهمس:

– أتتذكرينى؟

غير أنها مسافة لا نهاية لها؛ حيث تُضىء وتنطفئ كأنوار كشاف رؤى متعددة الأشكال عنى وعن تروت معًا، وقد وقع كل منا فريسة للآخر ثم تباعدنا بلا حدود كشخصين غريبين تمامًا. أيكفى وجه أو صوت حتى

يطيح بما أسسته من ثوابت راسخة وعقلانية؟ لماذا لا أرضى بشكل العالم كما يظهر لى، وهو بالفعل امتياز كبير، موائد معدة بأوان من الفضة والكريستال، منازل فخمة وأزواج مهذبين، غطاء اليدين من فراء الزبلين وعربات مطلية بالكروم صغيرة وجديدة وسريعة وجميلة للغاية؟

– هل تتذكرين أننا كنا مدعوين على الغذاء عند بارونة لوندن فى باريس قبل أربعة أعوام وكنا جالسين جنبًا إلى جنب؟

هأنذا أفيق من نومى على رنين صوته وأدرك أننى حية ويقظة وفى كامل قواى فقط فى حضور تروت ولكنه إحساس يجعلنى أشعر بالثمالة.

أدرك أنه منذ الأمسية التى قضيناها فى حى كمبون وحتى هذا المساء على ضفة نهر البو كنت مستغرقة فى نوم غير واقعى مثلما ينام أبطال الحكايات، لقد عشت أيامى فى كتمان تام، دون الشعور لا بأفراح حقيقية ولا بآلام حقيقية.

يعلم تروت تمامًا أننى أتذكر. ولكننى أجبته على أية حال:

– أتذكر. نعم، أتذكر.

لا ينم صوتى عن أى فزع ولا يفصح عن أى انفعال.

يمد تروت ذراعه ليصطحبنى داخل حجرة الصالون. لم نتقدم سوى خطوات قليلة وها هى سيدة مبتسمة ترتدى ثوبًا من قماش المَوصلى

الفضفاض تقترب نحونا. وجهها نحيل تبدو عليه أمارات التوتر، غير أن ذلك لا يغير من جمال قسماته. لون عينيها أسود غامق. تنظر إلىَّ باهتمام.

- نحن لم نتعارف، أليس كذلك؟

يقدم تروت كل منا للأخرى. إنها إيناس، زوجته وقد قررت أن تعود إلى منزلها بصحبة إحدى صديقاتها؛ لأنها تعانى من صداع نصفى رهيب.

تتفحص تروت قبل أن تبتعد عنا، ولكنها لا تقول له شيئًا البتة.

وعلى العكس، تستدير نحوى وتقول بابتسامة صغيرة:

- أستودعك إياه.

لا يبدو على تروت الانزعاج بسبب تعب زوجته. بل إنه حتى لم يعرض عليها مرافقتها إلى المنزل.

أشار إلىَّ زوجى الذى كان واقفًا فى الجانب الآخر من الصالون. أذهب إليه، تاركة تروت خلفى. لا ألتفت ورائى، ولكننى أعرف أنه ينظر إلىَّ.

إنه حفل استقبال كبير، جندت فيه عائلة الكونت بسيرانو لخدمتها جموع من بائعى الزهور وأصحاب الفراشة، من الواضح أنهم يعلمون

جيداً أصول دعوة الناس لمثل هذه الحفلات. وكانت أمى تقول: إنها ليست بالطبع مسألة مال، وإنما مسألة عادات، وسلوك نادراً ما يمكن اكتسابه ولا حتى بالضرورة يُوَرث. كثيراً ما نرتاد أنا وفرنشيسكو هذه المجتمعات، من الواضح أننا لا نجد ما نقوله لبعضنا بعضاً منذ زمن بعيد.

انظر إلى حشود الضيوف الصاخبة المرحة، وأجدنى أشعر بنفس الضيق الذى تشعر به مضيفتنا منذ أن تزايد عدد المدعوين الذين اعتادوا على ارتداء زى النظام الحاكم الكئيب، بدلاً من الفراك.

إن أسوأ لحظة هى لحظة الجلوس على المائدة.

فأنا أشعر بالملل الرهيب، ولكننى اعتدت تماماً على ملل هذه الحفلات. يجلس تروت على مسافة مائدتين أو ثلاث من مائدتى؛ ينظر إلىّ طوال فترة العشاء، لدرجة أنه اضطرنى، أكثر من مرة، أن أحنى رأسى له.

يمكننا أن ننهض من على المائدة، فقط حينما يحين وقت تقديم القهوة. وببطء نتفرق فى اتجاه حجرات الصالون وصالة الرقص. أخرج من حجرة السفرة فى نفس اللحظة التى يمر فيها تروت من أمامى.

لا أقول شيئاً، ولا ألتفت نحوه، عندما يدس فى يدى بطاقة تعارف وأنا أبتعد ممسكة بذراع ابن خالى أودونى الذى لم يعد ينتبه إلى أى

شيء بعد أن احتسى كأسين من الشمبانيا. أدلف خلف ستار شبه مغلق. يرتب بعض الخدم المرتدون حلتهم الرسمية الأكواب التى انتهوا تواً من غسيلها ويضعونها على الصوانى. ينظرون إلىَّ فى صمت وهم مندهشون. ولكن ليس بقدر دهشتى وأنا أقرأ المكتوب على البطاقة:

– أنا أول من اندهش لإصرارى على النظر إليك، ولكننى أجد فى ذلك سروراً وسعادة لا يمكننى أن أتنازل عنهما.

لا أتذكر بعدها إلا القليل مما حدث فى ذلك المساء. كانت هناك فرقة موسيقية صغيرة، فى إحدى زوايا الصالون، تعزف موسيقى حديثة. لابد وأن فرنشيسكو كان قد غاص فى مقعده الوثير يتباحث مع سيد البيت عن أمور الخيول.

لمحت باب نافذة مفتوحاً يؤدى إلى الشرفة، دلفت بها مسرعة وبقيت هناك لبرهة.

لدقائق معدودات. إن أغمضت عينىَّ نفسى فى ثوبى الأورجانزا البنفسجى الذى يتمايل بخفة بفعل تيار الهواء.

لم يكن الهواء شديداً، غير أن النسمة المنعشة بعد القيظ الشديد، تصيبنى بالقشعريرة.

أحس بحفيف الأوراق من وراء ظهرى، ثم تلتف ذراعان حول خصرى.

لست فى حاجة لأن أستدير كى أتأكد أنه تروت. أشعر به يلمس أذنى بشفتيه ويهمس قائلاً:

– متى أراك ثانية؟

لا أقول شيئًا. تضيع كلماته وسط الطنين الآتى من حجرات الصالون.

أتردد. لا أستطيع أن أجد إجابة على سؤاله، فربما بعد ساعة، وربما غداً، أو أبداً.

ماذا يجب علىَّ أن أقول؟ ها هو صوت تروت يُحدث من جديد شقًا ودوامة فى الزمان والمكان تمتلئ برؤى لا حصر لها لشخصه وشخصى معًا، بمفردنا، دون بريق الشموع، ودون الصالونات الملمعة لاستقبال الحفلات، ودون موسيقى، ودون...

لم يعد تروت موجوداً. لقد اختفى، من يدرى إلى أين ذهب؟ عيناى تبحثان عنه، بقدر ما تسمح به أصول الاحتشام. لا شىء على الإطلاق.

لدرجة أننى أقترب من كونتيسة عائلة بسيرانو، وأكاد أكره نفسى إذ لا أقوى على الحيلولة دون هذا التطفل غير اللائق الذى يعرضنى للسخرية. غير أن هناك ما هو أقوى من حيائى، وهكذا ودون تورية أسألها، بطريقة شبه حادة قائلة:

– تُرى، هل رأيتِ تروت؟

– من، ياعزيزتى؟ تروت؟ من يكون تروت هذا؟

أجابتنى بصوت أجش ينم عن ضيق وضجر؛ لأنها بالتأكيد تعرف تروت باسمه الحقيقى، وليس بهذه الكنية المثيرة للضحك.

غير أننى استنفذت كل شجاعتى عند طرحى هذا السؤال الوحيد، ولا أقدر على صياغة سؤال آخر. ليس بصوت مسموع على الأقل.

ما السبب الذى يدفعنى أنا، الآن، كى أكرر على مسامعى، فى صمت بينى وبين نفسى، هذه التساؤلات: تروت؟ من يكون تروت هذا؟

وفيما بعد، فى المنزل، وبينما أنا أتقلب فى فراشى عاجزة عن النوم، أنتبه إلى أنه قد خاطبنى بصيغة "الكاف".

- ٢ -

الحمية

١

يلف المكان ضوء خفيف؛ فأنا أحتفظ بالأضواء خافتة وأشترى لمبات ضعيفة، بحيث لا ينتبه فى الحال من يأتى لزيارتى إلى السجادة التى تنسلت، أو إلى الغبار الذى يعلو كل شىء تقريبًا، وإلى الفضيات غير اللامعة. كل ما هنالك أننى لم أعد أرى جيداً، كما أننى أبداً ما اعتنيت بالقدر الكافى بمثل هذه التفاصيل. ولا أعتقد أن الخادمات الشابات، اللاتى يأتين فى أيام متعاقبة حتى يطهون لى ويزلن التراب من هنا وهناك، لا أعتقد أنهن يعرفن كيفية الاعتناء بمنزل؛ وأما بالنسبة لى فأحسب أن الوقت الذى تبقى لنا ثمين مثل السكر فى زمن الحرب، فبأى حق أهدره هكذا فى تلميع البراويز الفضية؟

لم يعد هناك وجود لشىء أو لشخص من حولى. فمنذ خمسة عشر عامًا على الأقل، مات آخر جواد، بلوبيرد، بالسكتة القلبية على ما أعتقد، لأننى لم أعد أقدر أن أمتطيه. كان الطبيب سكاورى البشع يحذرنى بقوله:

– النسـاء فى سنك يكتـفين بأن يمـارسن دور الجدات أو أمـهـات الجدات. إذا أصبت بكسر الآن، فمن ذا الذى سيقيمك ثانية ويجعلك تمشين؟ ولا حتى عذراء الـ لوردز. انزلى لو سمحت من على ظهر الجواد واكتفى بلعبة الورق "كَنَستة".

– اسمع يا دكتور سكاورى، الخيل هى حياتى؛ فأنا أمتطى الجواد منذ أن كان عندى اثنا عشر عاماً. أتعرف ما معنى أن تستيقظ كل صباح فى الخامسة وتطلق لجوادك العنان وتخرج به مهما كانت الظروف الجوية، وتترك البيت ليلاً أثناء العواصف والأمطار كى تهدّئ من روع الخيول متحدثًا إليها بصوتك.

– بل اسمعى حضرتك بالأحرى. بدءًا من لحظة معينة فصاعداً يصبح الجسد عدواً وعلينا أن نتعامل معه بذكاء، وإلا فسوف يقذف بنا فى الطريق. أتفهميننى، أم لا؟ فالسنون تمر أيضًا بالنسبة لكِ.

بالتأكيد. تمر السنون أيضًا بالنسبة لى؛ لذا استبدلت النزهة على ظهر الحصان بنزهة على الأقدام لمده نصف الساعة كل صباح، إلى أن أبلغ المكان الذى يسقى فيه رعاة الماعز، والكلاب تتبعنا فى الخلف. ومن أعلى ذلك المكان أرى صفوف أشجار الكروم، التى تبدو حزينة فى الشتاء وكأنها صلبان حرب مقامة فى أحد الحقول، ولكن بمرور الشهور

تكسوها السروع والأوراق، كالفتيات فى الأعياد. ينتظرنى دينو على قمة المطلع، ينزع قبعته ويقول:

- إنه ليوم جميل، أليس كذلك؟ حتى وإن سقط المطر أو غشى الضباب أو هبت الرياح. كلها أيام جميلة بالنسبة لنا هنا فى الريف. ويلهب الهواء المنعش الرئتين.

خطرت لى هذه الفكرة أثناء قيامى بإحدى هذه النزهات الصامتة؛ فأنا أريد أن أقيم حفلاً، كحفلات الأيام الخوالى، أدعو فيها إلى هذا المكان الأصدقاء الذين لا أراهم منذ زمن بعيد. لا أقصد أى أصدقاء، وإنما أولئك الذين شهدوا مجيئى إلى "المحمية" مجردة من أى شىء. هربًا من زواج أمسى صعب الاحتمال. وقد حملت على كاهلى عدم موافقة الأسرة وأصدقاء الطفولة لوقت طويل جداً لدرجة أننى لم أعد أعرف معنى أن يوافقك شخص على ما تفعله. والآن وأنا أشعر بالوقت يتسرب من بين أصابعى، أريدهم أن يروا. ولا أعلم لماذا أخلط بين ما أحسست به من أحاسيس وبين ما كنت عليه وقتها: خائفة، وحيدة، حازمة، لم أكن أجيد حرفة أو برأسى فكرة ما، وإنما كنت أمتلك هذا الحقل فقط.

أين انتهى الحال بهم جميعًا؟ تعج سنوات الشباب والنضوج بالحركة والنشاط. ثم، تهدأ الحركة، دون حتى أن ندرك متى وكيف

يحدث هذا، وتصبح بالكاد محسوسة، وفى النهاية تزيحنا وتنحينا جانبًا بضربة يد تعسفية.

تتغير الأذواق والأمزجة، وتأتى الأحداث، وبمعنى أدق التاريخ، الذى يدوم طويلاً فارضًا سطوته، ليسجل أمورًا نحن فيها بمثابة المشاهدين ليس أكثر.

جرس إنذار من البحر المتوسط الذى يتحول الآن إلى بحر استوائى. يحذر خبراء المناخ، الذين اجتمعوا فى فلورنسا لحضور مؤتمر دولى، من أن متوسط درجة الحرارة قد ارتفع على مدار خمسين عامًا بمعدل ثمانى درجات ومن المقدر أن يستمر فى الارتفاع.

إنها أحداث لم تعد تنتمى إلينا ولم نعد نحن ننتمى إليها.

يحدث هنا الشىء نفسه. بيتى والبرج الملحق الذى تحطم، والحديقة والهكتارات المزروعة كرومًا، ومدينة سيينا بعيدًا، هناك، أعلى ذلك التل مثل لوحة خلفية لـ جويدوريتشو من فوليانو، ودينو، الذى ربما يجول حول الأراضى على ظهر الجواد. وأنا هنا بالداخل، أسمع من بعيد صوت عربات النقل الحديدية وهى تمرق على الطريق السريع المؤدى إلى فلورنسا، وأرى الكرم المُعترِش ذات التوترات العالية، وأستمع إلى نشرة أخبار المساء، ولكن إن صرخت فلكِ أعلن للعالم أننى هنا، حية أُرزق، فقد يكون لصيحتى صدى فى أذنى فقط، لأننى لم أعد أنتمى للعالم.

يدخل دينو وقد أحضر معه الحسابات. إنه أمر عسير للغاية. أرقام، وحسابات وقوائم وفواتير واجبة السداد، والإيرادات. عندما وجدت نفسي وحيدة، في النهاية، كان عليّ أن أتعلم ولكن بمشقة وصعوبة بالغة. لحسن الحظ دينو موجود معي يساعدني. وهو يتحلى بالصبر، مثلي؛ إذ أن الأمر يتطلب صبراً لا حدود له لمواجهة شهور الشتاء الطويلة، حينما تبدو الحقول خالية من الحياة، وكذا حقول الكروم وحقول الزيتون؛ ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتوقف العمل ولا حتى شتاءً، غير أن كل المجهود والمثابرة نجني ثمارها بعد ذلك بشهور.

من الضروري اقتلاع مائة شجرة زيتون تعود إلى خمسين عامًا مضت وقد تفرعت وتشعبت بشكل رديء. يقول دينو إنه يمكن غرس أشجار كروم أخرى في هذه الأرض بعد أن تستريح بعض الوقت، وإنه لابد أن نركز الآن على إنتاج النبيذ وخصوصاً بعد أن حصلنا على كل هذه الجوائز. ويقول دينو:

– إن عالم الاستثمارات هو الذي يتغير ونحن نتبعه. إنهم يريدون النبيذ ونحن نعطيهم إياه. لا تقلقي بسبب أشجار الزيتون؛ فقد وجدت صاحب مشتل بفلورنسا سيتكفل هو بكل شيء على نفقته، سيقتلع الأشجار والنباتات. إنها صفقة، ونحن لدينا

أشـجـار أكـثـر من اللازم. اضطررنا العـام الماضى إلى بيع الزيتـون وهو على الأشـجـار؛ فلم يعـد إنتـاج الزيت يدر ربحًـا. أصغى إلى نصيحتى. من الأفضل إنتاج النبيذ.

أمـا أنا فـأعـاند، ولا أرضخ ولا أرضى. ويقف دينو هناك مـاسكًا بقبعته فى يد وفى اليد الأخرى ورقة مكرمشة، يحاول تهدئتى شارحًا لى كل شىء للمرة الألف، من البداية وبصبر متناهٍ.

لقد فهمت جيدًا؛ فأنا لست حمقاء.

ولكن أجد أنه من البشاعة أن نضطر إلى اقتلاع أشجار لا تزال قوية ومثمرة.

أجدنى عاجزة عن أن أشرح لدينو أن حقل الزيتون ذلك، قد غرسته أنا عام ١٩٤٦، فى نهاية شهر ديسمبر، وقتها كان هو حديث الولادة. كانت الرياح تهب عاتية وكنت قد استرددت عافيتى لتوى. سوف أقتلع تلك الأشجار إن وجب علىّ ذلك، ولكننى لا أريد مالاً فى المقابل.

يتمايل دينو وهو ينظر نحوى فى إحباط.

إن لم أكن أعرفه جيدًا، لقلت إنه يفكر أننى أخرف، وأننى بمثابة نوع آخر من أشجار الزيتون المعمرة التى يود أن يقتلعها بكل سرور مقابل بضعة مئات الآلاف من الليرات.

المحـامى فى طريقـه إلى الوصـول. فـهـو يتـصل بى هـاتفـيًا كل يوم اثنين ويقـول إنه يريد أن يطمئن على صحتى. فى حين أننى أشك، منذ سنين، أن اتصاله التليفونى هو مجرد حجة ليدعو نفسه على العشاء مرة واحدة أسبوعيًا على الأقل. نبدأ نتحدث عن أمور شتى، ويحكى لى أنه، على الرغم من اعتزاله المهنة منذ حين، إلا أنه لا يزال هناك بعض عملائه المرتبطين به.. من فلورنسا... والذين بمقدورهم أن يلجئوا إلى معارف كثيرين، ولكنهم مع ذلك يضعون ثقتهم فيه هو وحده، وفى نصائحه... طالما يمكننى أن أنفع شخصًا ما... فلم لا...

أما دينو، الذى يذهب عنده لإتمام بعض الأعمال المنزلية من حين إلى آخر، فيقول إن الأمور لا تسير على هذا النحو، وإن الهيكل العظمى الذى يدعى ريكورسى، يبقى طوال اليوم متكومًا على الفراش وبيده مجلة "ستيمانا إينجميستيكا" أو جالسًا أمام شاشة التليفزيون وقد أصابته العتة.

وهكذا أقرر أن أدعوه، وأفتح زجاجة نبيذ وأطلب من لاسانتا، زوجة دينو، أن تحضر كعكة البندق والكفتة.

أذهب إلى حجرتى، كى أستعد لمقابلته. آخذ على الأخص منديلاً من الدرج وأبلله ببضع قطرات من العطر. وعندما يصل المسكين ريكورسى أضغط بالمنديل على أنفى كما وإن كنت أعانى من نزلة برد.

إن ريكورسى المسكين، ويا له من اسم يُطلق على محامٍ(*)، يدخن بلا توقف وقد أصبح الآن متشبعًا بالنيكوتين مثل طفاية السجاير. أنا لا أتحمل هذه الرائحة؛ لذا أغطى أنفى بالمنديل. ودائمًا ما تبدأ المحادثة بيننا بهذه الكلمات، وبإيقاع أوبرا تراچيدية:

– أيتها الكونتيسة العزيزة، من غير المعقول، ألا يزال عندك ذلك البرد اللعين؟!

– سوف يزول، سوف يزول سريعًا يا حضرة المحامى.

– لكن اسمحى لى... حضرتك تقولين هذا كل مرة... هل عرضت نفسك على طبيب؟

– تذكر يا حضرة المحامى، الكلمات الثلاث:

الخدم، المال، الصحة. على أيامى، أقصد أن أقول على أيامنا، كان الحديث عن هذه الأمور الثلاثة أمرًا لا يغتفر. ألم يقولوا لك هذا أنت أيضًا؟

رفع المحامى كتفه قائلاً:

(*) معنى اسم "ريكورسى" طعون (المترجم).

– لا أتذكر. ربما لا، كونتيسة، لم يكن أحد يقول لى هذا. بل، على العكس، إن أردتِ الصدق... كان الحديث الدائر فى بيتنا دائمًا هو حديث المال والصحة. لم نكن نتحدث عن الخدم؛ لأنهم كانوا غير موجودين. أتعرفين، يا كونتيسة، أن أبوىَّ كانا من الفلاحين؟

– مرة ثانية، يا حضرة المحامى؟

– هل ذكرت لكِ ذلك من قبل؟ أتعرفين أنه فى العام الذى وُلدت فيه حدث سيل وولدتنى أمى فى الشارع، بينما كان والدایَ يحاولان الهرب إلى الجبل، ليس فى الشارع بالضبط، وإنما فى مزود للأبقار، خلاصة القول فى ما يشبه الإسطبل تحت جبل الأمياتا؟

– أيها المحامى العزيز، يبدو لى إنه ميلاد...

انطلق ريكورسى يضحك ويقرقر ضحكًا.

ثم يدمدم قليلاً ويقول إنه يعى جيداً أمور نزلات البرد والسعال؛ لأنه قام بدفن ثلاث سيدات، أعرفه منذ خمسين عامًا وأعلم أنه لا يقصد أن يتمنى لى الشر؛ فهو بالفعل قام بدفن ثلاث سيدات، الحماة والزوجة والأخت، فى فترة زمنية قصيرة، ثم بقى وحيداً.

ويُعد هذا بمثابة نجاح بالنسبة له، وهو الشخص العنيد المتشدد؛ إذ لم يكن يروقه على الإطلاق ما كانت تفيده الإحصائيات بأن السيدات أطول عمرًا من الرجال.

والآن فهو يرى أنه سخر من علم الإحصائيات والطب بضربة واحدة؛ حيث إنه كان يدخن علبتين سجائر فى اليوم الواحد. ربما كان محقًا، ربما استهزأ بهما معًا. ولكن ما الذى جناه؟ جنى فقط بقاءه وحيدًا كالكلب، وأزرار الصديرى نصفها مخلوع والعديد من البقع الغريبة المصدر تنتشر فى أماكن متفرقة من سرواله؟ جنى تسول الدعوات على العشاء لدى جيرانه، كما يفعل معى؟

يسعل ريكورسى ويعطس هذا المساء؛ إذ أصابته نزلة برد قوية.

– اطمئن يا حضرة المحامى، البرد هو داء الأصحاء.

أراه يبتسم. أقدم له كوبًا من النبيذ، فيتجرعه مرة واحدة. وبعدها ينهض، فى حيرة من أمره هل يرحل عائدًا إلى منزله أم يبقى بعض الوقت. ولكننى لا أشجعه على البقاء؛ بل إننى أود أن أنهى هذه الأمسية عند هذا الحد.

يهمهم المحامى وهو ينحنى ليقبل يدى:

– لقد شخت سريعًا، أليس كذلك أيتها الكونتيسة؟ وليس هذا هو حالك أنتِ؛ فأنتِ لا تزالين مثل اليوم الذى عرفتك فيه، وكنت قد

وصلت هنا لتوك، منهكة من المدينة، وكانوا يقولون فى البلدة، إنكِ سوف تسأمين الريف سريعًا. دون أية إهانة، هل سبق وأخبرتك عن رأيى فيكِ؟ إنكِ جميلة للغاية حتى تقيمى هنا. طريدة عابرة، تأتى على حين غرة ثم ترحل ثانية دون مبرر، فى سكون كما جاءت. ولكنك على العكس بقيت. تعلمين القول الذى يؤكد بأن الكرم مثل القرع... ولكنك على العكس التصقتِ بأشجار الكرمة وانغرستِ فيها مثل خيال المآتة.

– أتعرف يا ريكورسى ما هو معنى أصل كلمة "المحمية"؟ إنها كلمة قديمة جداً، تعود إلى العصور الوسطى ومن أصل قوطى. يحظر غابة، أو قطعة أرض، كان معناه إعلان أن هذه الأرض مخصصة فقط للصيد. هل كنت فى رأيك، طريدة عابرة؟ إذن "فالمحمية" كانت هى المكان المناسب لى.

– لقد أخذت الكلمة من على لسانى. المكان المناسب.

٣

أنا لا أزال على قيد الحياة. حينما أقول هذا، فأنا لا أفكر فى الحرب العالمية الأولى والثانية، ولا أفكر فى الإنفلونزا الإسبانية التى حصدت فى عام ١٩١٨ وفى خلال أيام قلائل عدداً لا بأس به من

معارفنا، مثل الآنسة باراڤاليي التي كانت تقوم بتطريز الملاءات لأمي، وأتذكر أنها كانت نحيفة للغاية، منكبة تماماً على كومة من قماش الكتان المغضن، وكذا البائع الذى كان يعمل عند چينورى أو كان يأتى كل يوم خميس ليغسل ذوائب الثُّرَيا. لا، لست أنوه عن الصراع الصامت مع إيقاع الوقت، ولا إلى ذلك الإحساس المقيت بالاغتراب الناتج عن مولدى فى مطلع القرن. ربما أكون قد نجوت من طبعى، من اضطراب بداخلى جعلنى أهيم من حديقة أمى الشتوية، حيث كنت أختبئ خلف الأريكة وقد سحرنى السكون ورائحة أشجار الليمون التى كانت تنتشر فى تلك الغرفة التى لم يكن يدخلها أحد، حتى وصلت إلى غرفة بأحد فنادق الأربعة نجوم، ستائرها منسدلة، ويضمنى بين ذراعيه وأنا عارية، رجل بالكاد أعرفه.

كم عدد الذين بقوا على قيد الحياة من حولى؟ لا أحد هنا بالطبع، على تلال سيينا، على بعد مسافة معقولة من بيتى؛ ولكن من بين كل أولئك الذين التقيت بهم، هناك آخرون أود أن أراهم من جديد. يعود دائمًا إلى ذهنى، ذلك العام فى باريس فى ٣٧ شارع كامبون، حيث فقدت شيئًا ما بدا لى آنذاك أنه غير ذات قيمة. وإن تحدثت عن تروت وعن عينيه، وكيف لا أتحدث عن تلك العيون، القادرة على كشف كل ما فى قلبى وعلى طرد الخوف منه، هل يمكننى أن أغفل أودُونى وكارلينو

والميـريجى، الذى تُوفى وهو فى الثـلاثين من عـمـره بسـبب ضـحكة، بالضبط هكذا، ضـحكة بهيـجـة متـواصلة وهو بين ذراعَى إيريس، التى كانت بحق امرأة مرحة وخفيفة الظل. قد يقول سكورى الشنيع:

- إنه انسداد بأحد الصمامات، يا عزيزتى، جلطة قلبية، انقباض فى عضلة قلب ضعيف مثل الكريستال. الأمر هكذا بطبيعة الحال، ولكن من يهمه، فى نهاية الأمر، كيف تحدث الوفاة؟ أليس ما يهمنا هو فقط متى تحدث؟

كانت أمى تكرر على مسامعى دائمًا هذه الكلمات:

- تذكـرى أنهم ينظرون إلينا. الله هـناك فى الأعـالى، والموتـى فى الجنة والملائكة التى تلازمنا وترافـقنا، ترى كل شـىء تفعلينه أو تقولينه. وحينما أكون شاردة البال، يتكفل الملاك بالأمر. فهو أبدًا لا ينام ويعلم كل ماتفعلينه.

ذات يوم، وكان الوقت عصرًا، علّق أنريكو على كلمات أمى قائلاً:- إنه إذن لجاسوس وضيع.

كان صوته عاليًا جدًا حتى أن أمى قد سمعته. رفعت السيدة وودروف حاجبها استنكارًا وأرسلتها أمى كى تنادى والدى الذى كان عليه أن يقرر طريقة العقاب.

كررت أمى قولها وهى تدير مفتاح الغرفة الصغيرة التى احتجزت بها أخى:- أعلم أن الملاك الحارس هو الظل الذى يعكسه نور الله، وأنه بدون هذا الظل، أنت لا تساوى شيئًا.

أضاف والدى فى غضب لأنه كان يكره أن يقاطعه أحد أثناء انشغاله بأعماله:

- سوف تخرج من هنا حينما تدرك أنه لا يصح أن تتحدث بما لا يليق، كما أنك لن تتناول عشاءك هذا المساء.

بقى مفهوم ظل الملاك مفهومًا مبهمًا لا يمكن إدراكه، مثل الذبابة التى تركز باستمرار على مفرش المائدة. ومع ذلك كانت فكرة الظل الخفى الذى يصاحبنا أينما ذهبنا لا تخلو من سحر خاص. وهكذا الحال الآن أيضًا بعد أن توقفت عن الاعتقاد فى الملائكة؛ ففى معظم الأحيان يبدو لى أن هناك مجموعة من الأشخاص تقف خلفى، ربما على شكل نصف دائرة، تمامًا مثل صور الأفراح.

بالطبع هناك أمى، وأبى وأخى وذلك البريق الساخر فى عينيه، تمامًا مثل آخر مرة رأيته فيها وهو مرتدٍ ملابس السفر.

وقد قال لى:- لا تتأثرى يا جميلتى الصغيرة، فإن لم أرجع من أفريقيا ستصبحين أكثر ثراءً.

أعلم أنه يقول هذا الكلام حتى لا يتأثر هو أيضًا؛ إذ قد أمعنوا فى تعذيبنا ونحن أطفال بقولهم لنا:– ممنوع البكاء أمام الناس، تذكرا ذلك.

ومن كثرة ما كرروا على مسامعنا هذه الكلمات، فقد أصبح الإفصاح عن المشاعر والانفعالات شيئًا غير طبيعى تمامًا بالنسبة لنا. يؤسفنى أننى لم أبك وقتها، حينما عانقنى أنريكو. كان يضغط علىّ بشدة بعد أن جذبنى نحوه، ولما كان قماش المعطف الخشن يوخزنى فى وجهى، فقد أفلت منه على الفور.

يؤسفنى أننى لم أبق فى أحضانه مدة أطول، تلفنى أكتافه فى ذلك العناق غير المريح. لم أره أبدًا بعد ذلك. وقبل مرور شهر كان قد توفى. لم أر دموعًا فى بيتنا، ولا حتى وقت وفاته. لقد أدركت ذلك بالحدس. وأنا على يقين تام من أن أمى كانت تغمر وسادتها بدموعها كل ليلة. كما أننى على يقين تام من أن أبى كان يبكى بمفرده فى حجرة مكتبه، وقتما كان يتظاهر بالبقاء فى الحجرة لترتيب أوراقه.

فى تلك الأيام الرهيبة من شهر يناير، لم تحن حتى ولا فرصة واحدة نجتمع فيها سويًا، نحن الثلاثة، ننظر فيها لبعضنا ونقول كم كنا نفتقد أنريكو!. لقد استأصلوا منا طبيعتنا وتلقائيتنا، كما كانوا يستأصلون اللوزتين للجميع فى الستينيات.

وبطبيعة الحال، يوجد هو أيضًا خلفى. أعود لأفكر فى تروت مرة ثانية. وفى الوقت الذى لم ير فيه كل معارفنا سوى سيد أنيق جذاب يمتاز بصوت به نبرة ضجر خفيف، رأيت أنا فيه شيئًا آخر مختلفًا.

لن أقول أكثر من ذلك؛ فأية كلمة لن تفى بالغرض؛ لأننى رأيت فى تروت كل شىء، على الرغم من أن ذلك قد يبدو تفكيرًا أحمق.

٤

كان "ڤيبورنو" هى هدية زواجى وقد قدمها لى إشبيينى، وهو أيضًا واحد من أولاد خالتى. إنه شخصية أسطورية؛ إذ كانت الصدريات تُطرز له خصيصًا فى المجر ويقال إنه كان يحب كونتيسة بولندية وأمًا لكثير من البنات، رائعة الجمال وتتمتع بإغراء خاص، على الرغم من أنه لم يرها أحد قط. كان أنريكو يرتاب فى وجودها أصلاً مفسرًا للسيدة وودروف:

– أعتقد أنه اخترع وجودها، حتى يَدَعُوه وشأنه فلا يحاولون بعد ذلك أن يزوجوه من كل فتيات مدينة فلورنسا.

كانت إقامتنا لدى أفراد عائلتنا فى فلورنسا مصدرًا لمفاجآت لا تنتهى. كنا نصل أنا وأنريكو متعبين من السفر ومع ذلك كان لزامًا علينا أن نتبع والدينا فى الحال للقيام بجولة من منزل إلى منزل؛ لزيارة بعض

أفراد العائلة الذين كنا بالكاد نتذكرهم، وبعض الخالات اللاتى وجب عليَّ أن أقدم لهن كل فروض الاحترام والتوقير دون أن تعثر رجلى بالسجادة.

لم يكن أجدادى من ناحية الأم لديهما "يوم محدد"؛ فقد كانا يستقبلان الضيوف باستمرار. كانت جدتى فى غاية الأناقة، فى كامل زينتها، وكانت حجرة الاستقبال فى بيتها لا تخلو من الزهور ومن الغرباء العابرين الذين لا نعرف من أى بلد أتوا. كان الخادم يظل ثابتًا بلا حراك عند باب غرفة الانتظار بأمر من جدتى، ولساعات طوال فى اليوم الواحد، كما هى العادة فى القرن التاسع عشر، وكانت مهمته هى إعلان قدوم الضيوف. كان يقوم بالشىء نفسه معنا أيضًا. ما كان أحد من الأطفال الآخرين الذين كنا نعرفهم يحظى بمثل هذه المعاملة. ولم يكن أحد منهم لديه جدة مثل جدتنا.

لقد كانت تثير إعجابنا بشدة، فبعد اجتياز غرفة الانتظار، كنا نجدها جالسة هناك، فى غرفة الاستقبال، تلمع وتبرق جواهرها وحليها، لا ينقصها شىء، أما نحن فكنا نرفع أكتافنا حتى تتأملنا ونحن فى ثيابنا الأنيقة التى جعلتنا أمنا نرتديها بهذه المناسبة.

كانت للحفلات التى تقيمها جدتى وتدعو فيها صفوة المجتمع مميزات أخرى ألا وهى الآنية المليئة بقطع الشوكولاتة الصغيرة وقطع البسكويت والحلوى المسكرة المجففة وكان هناك خادم يقدم لنا نحن

أيضًا الشاى والعصائر المحلاة وفقًا للموسم. لم تكن جدتنا تأمرنا بمغادرة حجرة الاستقبال، كما كانت لتفعل والدتى، وإنما كانت تستمتع باستعراض حفيديها اللذين ينتميان لعائلة ساقوى - كما كانت تنادينا - واللذين كانا يقيمان بعيداً جداً. وأحيانًا أخرى كانت تدعونا أيضًا "الحفيدين المصيبتين" bristù وهى كلمة أجنبية غريبة، واحدة من تلك الكلمات، الكثيرة، التى ما كنا نفهم معناها؛ لأن الجدة كانت تستعمل لغة خاصة بها، وهى مزيج من الفرنسية والإنجليزية بالإضافة إلى لغة مدينة فلورنسا، وعلى السطح تطفو بقايا من كلمات إيطالية وكأنها حطام سفينة غارقة، نجت ولا أحد يدرى كيف وسط هذا الزخم. كان يروق لنا كثيراً، أنا وأنريكو، أن نوصف بالساقوى وبالمصيبتين وما كان يخطر حتى على بالنا من قريب أو من بعيد بأن الجدة كانت تقصد أن تقول إننا مؤذيان أو مزعجان.

على أية حال، كانت هى وضيوفها سرعان ما ينسوننا ويتركوننا وشأننا. كان الانشغال بالأطفال، فى ذلك العصر، يعد أمراً لا يليق بالوجاهة، وبالتالى لم تكن مسائل الأطفال تُناقش فى الصالونات، فالاهتمام بالأطفال كانت مهمة مديرات المنزل. وكنا أنا وأنريكو وقتئذ نظل طوال فترة العصر نراقب السيدات الأنيقات وهن يرحن ويغدون، وملابسهن تمتاز بموديلات أكثر تحرراً من تلك التى كانت ترتديها صديقات أمى، وكن يملن إلى الضحك أكثر والتحلى بألوان أكثر تنوعًا.

أدركنا مع شيء من الغموض والالتباس أن الحياة فى مدينة فلورنسا كانت مختلفة وأنه بمجرد خروج أمى من مدينة تورينو، كانت هى أيضاً تبدو امرأة مختلفة.

من يدرى؟ ربما هذا هو ما كان يدعو أبى إلى عدم الذهاب إلى فلورنسا إلا نادراً.

وبفضل هذا الوعى المرتبك المتحير بغرابة عادات أفراد العائلة المقيمين فى فلورنسا وخروجهم عن المألوف، لم أندهش كثيراً حينما أهدانى إشبينى فرساً من نوع كمرجوى مزداناً بشريط أحمر كهدية عرسى، بدلاً من قطعة مجوهرات كما كانت العادة آنذاك. كانت الفرحة التى غمرتنى دليلاً على أن المفاجآت الطيبة الجميلة من جانب عائلة أمى ستفوق بكثير المفاجآت غير السعيدة.

كان الحصان ڤيبورنو أسطورة تماماً مثل ابن خالتى وعشيقته البولندية. فقد كانت حركته قوية ثابتة وانسيابية، وخصوصاً فى المنحنيات الضيقة. كان يرفع قدمه عالياً جداً، أكثر مما تفعل خيول الـ كمرجوى عادة وكان ينطلق كالصاعقة إن تُرك له العنان كى يعدو ويركض. نعم كانت رأسه تميل إلى الضخامة، ولكن كان ظهره قصيراً وصدره واسع متماسك مما كان يمنحه جمالاً خاصاً.

كان زوجى ڤيللافورستا يعتبره جواداً فظاً، غير لائق بسيدة؛ لأنه مندفع بشكل زائد عن الحد.

– فرس هدية زواج، يا له من سُخْف! ذوق أولاد خالتك فى فلورنسا لا يتناسب مع قواعد الإتيكيت واللياقة.

كأن يقصد أن يقول:

– لماذا لم يهديكِ سواراً أو حجراً من الأحجار التي تتوارثها العائلة؟

وكنت أفكر كيف أنه من الواضح جداً أن ڤيللافورستا لا يفوت فرصة يؤكد فيها على أننى لم أحصل إلا على مصوغات قليلة جداً من أسرتى؛ فأمى لا تقبل الانفصال عن مجوهراتها، وأبى وهب كل شىء لأخى أنريكو وكان الازدراء الذى يحسه فرنشيسكو تجاه أفراد عائلتى المختلفين الموجودين فى فلورنسا يمتد تجاه الجياد الخاصة بى، فعندما كان الحديث يتطرق إلى ڤيبورنو، كنت أسمعه يؤكد، باقتناع وتصميم عنيد، أن الحشائش والعشب النحيل والأبخرة الفاسدة التى تنبعث من دلتا نهر الراين قد أفسدته بشكل لا يمكن تداركه. على الرغم من أنه كان لا يحبه، إلا أنه لم يجرؤ أن يفعل به ما فعله، فيما بعد، بـ بيك.

كان بيك جواداً هجيناً من أصل أيرلندى. كانت طريقة حركته غير مستقيمة ولكنه كان يعرف الاتجاه وحده كما يحدث فى العادة مع أى جواد على درجة عالية من التدريب. كنا نفهم بعضنا فى الحال.

كان جواداً عصبياً، يفزع لأقل سبب، ولكنه حينما كان يشعر بأننى أرغب فى الركض، كان ينطلق بكل سرعة وينهك نفسه حباً فىَّ.

كان ڤيللافورستا يمقته ويقول إنه خطر وكثيراً جداً ما كان يردد قوله:

– سوف تنكسر عظمة رقبتك وأنت تمتطين هذا الحيوان؛ فأنت لا تتحكمين فيه، ولقد فهم ذلك الشيطان حقيقة هذا الأمر. واحد فقط من بين الاثنين، الجواد والفارس، هو الذى يأمر، وحصانك يعلم هذا، فلست أنتِ من تقودين.

وكنت أجيبه فى ضيق وضجر:

– هذا هراء. ليتك تتركنى أنا أهتم بجيادى، واهتم أنت بجيادك.

وعندما كان بيك، الذى كان يرتاع من صوت الرعد، يصهل خوفاً، كان ڤيللافورستا يثور غاضباً لأنه هكذا كان يثير عصبية الجياد الأخرى، على حد قوله.

كان دائماً ما يؤكد أن الذنب ذنبى؛ لأننى جعلت منه جواداً جباناً من كثرة بقائى معه فى المكان المخصص له أثناء العواصف؛ وقد أفسدت كلماتى التى أهمس بها فى حنان وعطف فى أذن بيك وملاطفتى له من طبع الجواد.

ذات يوم، ودون سابق إنذار، عاد زوجى إلى البيت وقت الغذاء وبصحبته شخص ما هزيل نحيل ومبتسم. عرّف الشاب نفسه قائلاً:

- أنا طبيب من مدينة كونيو، شغوف ومولع بالجياد.

مكثت بلا حراك وبلا كلام؛ فقد فهمت فى التو. أعربت عن احتجاجى بالنظرات فقط وكان احتجاجًا ضعيفًا تلك المرة أيضًا؛ فلم أناضل للدفاع عن بيك، ولم أقل شيئًا وتركت ڤيللافورستا يدهس بقدميه حبى لذلك الجواد ويتخلص منه ويبعده عنى للأبد.

فإن كنت قد شرعت فى البكاء والتوسل، وإن كنت قد ألقيت أرضًا زهرية من الخزف أو أطحت ببراويز الصور من فوق المنضدة الصغيرة، فبالتأكيد ما كان ليصر على فعلته؛ لأنه كان يأنف من أصوات الجلبة واللغط. غير أننى بقيت صامتة؛ لقد استسلمت، فى الظاهر فقط. وليفعل زوجى ما يحلو له بشأنى وبعواطفى وبجوادى. أبيت أن أجد تعليلاً وتفسيراً، ما كان لينفع في شىء، أحقًا لم يكن زوجى قد أدرك بعد كم كنت مرتبطة بـ بيك؟ أو لعل الأمر لم يكن يعنيه فى شىء؟ ومع ذلك ابتسمت، ولكن كان يثور بداخلى غضب أعمى وعارم.

فى الثلاثين دقيقة تلك، تم شىء آخر، بخلاف عملية بيع الحصان بيك. لقد تبلور بداخلى ثمة قرار وانجلت صورة ڤيللافورستا أمامى كما لم أرها أبدًا من قبل.

صوت ابن خالى أودونى منخفض النبرة وعذب جدا. يسقط الجليد فى الخارج، كما هو الحال دائمًا فى شهر فبراير. يسقط الجليد ببطء، على شكل نديفات كبيرة، تتمايل قليلاً نظراً لعدم هبوب الرياح.

– عليك أن ترحلى، يا عزيزتى. اتركى المدينة. لا تستسلمى للإحباط بهذه الصورة. لقد أصبحت فى موقف مهين بشكل لا يمكن السكوت عليه.

أصبح لزوجى صديقة منذ شهرين. وكل مدينة تورينو تعرف ذلك. امرأة ذات ماض، كما يقول والدى، والذى لا يقدر أن يتفوه أمامى بكلمة "عاهرة".

تحاول أمى أن تنتقص من أهمية الأمر فتقول وهى تغض الطرف قليلاً:– لابد إنها واحدة من تلك النساء المهذارات الملطخات بالألوان اللاتى يحمن دائمًا حول الرجال. ومع ذلك، فالأمر بطبيعة الحال بغيض بالنسبة لنا جميعًا.

لقد تجاوز فرنشيسكو كل الحدود التى تخيلها والداى؛ إذ لم يكتف باستئجار شقة صغيرة، وإنما قام بشراء واحدة خلف كنيسة أمنا العذراء. ولقد استغل الموجود فى بيتنا لتأثيث هذه الشقة؛ لم أحك لأحد مقدار المهانة التى شعرت بها ذات صباح وأنا أرى اثنين من الشيالين

يدخلان بيتى وبدون مقدمات كثيرة أخذا الأريكة المصنوعة من قماش المُخْمل ذى اللون الفيروزى، ومصباحين كبيرين من النحاس، والمقعد الوثير من الجلد الأحمر الموضوع فى حجرة المكتب وصندوق كبير به ملابس فرنشيسكو.

ويقول أودونى:- لقد كساها بمجوهراتك. كما وضع فى يدها كأس شمبانيا وأوصاها أن تمسك بالكأس هكذا، ملىء حتى منتصفه، دائمًا صباحًا ومساءً.

أجيبه بصوت خافت جداً:- المجوهرات ملكه.

لا يمنحنى أودونى هدنة بل يحكى لى كيف أن هذه العاهرة ترتدى ملابس مثل ملابسى لأن فرنشيسكو أراد أن تتعامل مع نفس الخياطة الخاصة بى.

يستطرد أودونى قائلاً:- حقًا، يا عزيزتى، لا يمكن أن تصدقى كيف تبدو هذه الملابس مختلفة. فما ترتدينه أنتِ ويبدو عليكِ رقيقًا، عليها هى يبدو مثيراً.

أنهض من مقعدى وأقترب من النافذة. يخيل إلىَّ أن الجليد الذى يتساقط هو ورقة نقوم بتقطيعها إلى فتات صغيرة جداً، أو مجرد خطاب نرغب فى تمزيقه ونسيانه. أنا أيضًا أود أن أنسى. إن أودونى لا يفهم

هذا. وحماسه هذا واندفاعه يثير غضبى. ينهض واقفًا هو أيضًا ويقترب منى. لا ألتفت نحوه، غير أننى أشتم رائحة عطره وهذا يضايقنى.

أستعد، بعد كل هذه السنين، لمواجهة فضيحة. إن سلوك ڤيللافورستا المعيب قد زودنى بالقوة اللازمة التى كنت فى حاجة إليها.

أعتقد أننى سأترك مدينة تورينو لبضعة شهور، وربما لبضعة أعوام. لم أقرر بعد ما إذا كنت سوف أبتعد وأذهب إلى إقليم توسكانا، أم لا. خُيِّل لفرنشيسكو أنه يمكنه أن يبقينى متعلقة به بالقوة والشدة، كما وإن كان إيذائى يعادل، بطريقة ما ملتوية، الاستحواذ علىَّ. ليس كذلك. تنزلق تصرفاته الشريرة من علىَّ، دون حتى ملامستى. بالفعل أنا بعيدة عنه وبالجسد أيضًا.

سأقيم بمفردى فى شقة صغيرة بالإيجار. أو سأنتقل إلى سان بياچو. إنه منزلى. منزلى أنا وحدى. لا يخص فرنشيسكو ولا يخص والدى.

سوف يُصدم الأصدقاء المشتركون بيننا. وأنا على يقين من أن والدىّ سوف يقومان برحلة لزيارتى يتوسلان إلىَّ أن أضع نهاية لهذه المهزلة، وأن أغفر ما يسميانه بـ "ضعفات" فرنشيسكو، وألا أبرح مكانى وأتجنب إحداث جلبة أو لغط.

وتتكرر هذه الكلمات على لسان أمى دائمًا:

نحن، لسنا من أولئك الذين نستهدف جذب نظر الناس.

أصطحب أودونى حتى الباب. يبتسم لى وهو يرتدى قبعته ويقول معلنًا:

– أقام فرنشيسكو دعوة غذاء الأسبوع الماضى فى دار ضيافة النادى. ذهبت إلى هناك وكانت يولى تقوم باستقبال المدعوين، كما لو كنتِ أنتِ، أتدركين معنى ذلك؟ إلى متى تعتزمين احتمال هذا الوضع؟

نعم أنا ألاحظ هذا . فرنشيسكو ينتهز كل فرصة لإذلالى. من المؤكد أنه ارتآها فكرة مسلية أن يأخذ عاهرة من بيت بغاء ويجلسها فى حجرة الاستقبال بدلاً منى.

وقد تعقب أمى بقولها إنه مجرد استعراض وإنه لأمر بشع أن يستعرض.

٦

اكتسبت عادة جديدة، وهى أننى أستيقظ كل صباح وقت الفجر وأمتطى الجواد بيتشيتو، فى منزل أودونى.

عائلة كالاندرا هم أصحاب حقل الفالكونايا.

كان أحد جدودى، وهو عالم نباتات هاو، قد قرر مثلما هو حال أبناء كثيرين ممن هم أصغر الإخوة، فى نهاية القرن الثامن عشر وفى عصر تميز بالعداء لرجال الأكليروس ومن ثم عدم الرغبة فى ارتداء ثوب الكهنوت، قرر هذا الجد إقامة مشتل نموذجى لنباتات الزان وهم الآن يمتلكون حقلاً كاملاً من أشجار الزان الأكثر جمالاً فى كل إقليم بيمونتى. لم يكن أحد يعلم ما إذا كان الجد قد أحرز نجاحًا كصاحب مشتل؛ وإنما كان الكل يعرف أنه أبدًا لم ير عينات النباتات التى غرسها بعد أن نمت وكبرت لأنه مات بعد بضع سنوات قليلة بمرض الإنفلونزا وبسبب نقص المضادات الحيوية؛ غير أن تلك المبادرة المفاجئة الخارجة عن المألوف أثمرت للورثة عن متنزه يدعو اليوم للعجب والدهشة.

وقد انتقل القليل من هذا الميل لحب النباتات حتى وصل إلى أودونى، آخر ذرية الـــ كالاندرا، صانعًا منه خبيرًا ماهرًا فى أعمال الحدائق، إذ يمضى ساعات فى الحديقة حاملاً المقصات ومرتديًا الحذاء الطويل الرقبة الذى يصل حتى ركبته، يشذب ويربط ويبذر ويغرس العُقَل. الورود هى عشقه الكبير. ويمتلك خلف البستان مجموعة صغيرة من الورود الفرنسية التى تنبعث منها أجمل الروائح وتزدان بأروع الألوان فى فصل الربيع.

وكلما استطعت جئت إلى هنا عند أودونى صيفًا وشتاءً.

إن أودونى ليس فقط بصديق طفولة وابن خال من درجة بعيدة، وإنما هو شخص سوف يعتنى بى دائماً.

وأنا أعرف هذا منذ أن كنت صغيرة؛ فقد كان يعتبرنا أنا وأنريكو معبودين ونحن فى سن الصبا. لقد كان طفلاً نحيفًا وكانت مربيته تعامله كما لو كان مصنوعًا من الزجاج.

لم يكن مسموحًا له أن يجرى، و لا أن يتسلق الأشجار، لم يكن يُسمح له بأن يقرأ مساءً حتى لا ينهك بصره الضعيف إذ كان قصير النظر، كان مجبراً على أن يلزم بيته إن سقط المطر أو الجليد أو كان الهواء شديداً، أو انخفضت درجة الحرارة بشكل ملحوظ. لقد كنت أنا وأنريكو نتمتع بحرية أكبر بكثير. وكان نصيب كبير من حريتنا يرجع بصورة مباشرة للأسلوب الذى اتبعته مربيتنا الإنجليزية. فبالنسبة للسيدة وودروف، ليس هناك طريقة نبدأ بها يومنا فى الصباح أفضل من حمام بارد، فى الشتاء كما فى الصيف أيضاً، وكانت ترغمنا على النوم والنافذة مفتوحة. كان لزاماً علينا أن نمارس الرياضة، أيما كانت حالة الطقس؛ وكانت إجادة ممارسة أنواع الرياضات كافةً شيئًا أساسيًا لا غنى عنه، بدءًا من ركوب الخيل والتزحلق على الجليد، ومروراً بالسباحة والتنس وانتهاءً بالصيد.

وبناءً على تعليمات أصدرتها السيدة وودروف للحارس الذى كان يرافقنا أثناء الصيد، فقد علمنا استخدام بندقية الصيد ونحن فى

الحادية عشرة من عمرنا، وفى الثانية عشرة اصطاد أخى أول ديك برى فى حياته. أخذه والدى وصبّره وهو لا يزال حتى اليوم فى حجرة مكتبه.

كان محظورًا تمامًا على أودونى أن يقضى أوقات فراغه على هذا النحو. كانت أمه، الخالة كاميللا، امرأة جميلة وغبية لا تريد مضايقات من أى نوع؛ لا داعى للمشاكل، كان هذا هو المغزى الذى انطوت عليه طريقة تربيتها لابنها الوحيد، الذى وُلد بعد ثمانية أشهر وكان يزن أقل من الوزن الطبيعى. وفى قساوة غير مقصودة تختص بها الأمهات القلقات بطبعهن، كانت والدة أودونى تبلغه بتفاصيل اكتشافاتنا ومغامراتنا الجريئة، ربما فى محاولة منها للتشكيك فى طريقة تربيتنا المحفوفة بالمخاطر؛ غير أن النتيجة جاءت عكسية تمامًا، ما دفع أودونى إلى مزيد من الكآبة والحزن كل يوم إلى أن أصبح صبيًا حزينًا منطويًا وهو بعد فى الثالثة عشرة من عمره.

كان يعيش على الأحلام ويمارس أنشطة قليلة مسموحة لا تثير ضجره بشكل يدعو للدهشة. وعند بلوغه الثانية عشرة، كان أول نجاح حققه هو أنه جعل الورود المتسلقة تتكاثر على عقلة كان قد غرسها، ثم أحرز بعد ذلك نجاحات أخرى كثيرة على مدار السنين. كما حوّل الحديقة الجافة التى توارثها عن أبيه إلى حديقة غناء مليئة بالجمال الساحر. كان يقوم بتجميع النباتات بحماس عالِم النبات، ولكنه كان يمزجها مع بعضها فى أشكال متوافقة بديعة بحب وإبداع الفنان.

أنتقل إلى بيت أودونى بمجرد أن أستطيع. وقد تعاهدنا سراً أنا وأودونى على ألا يطرح أى منا أسئلة لا يرغب الآخر فى الإجابة عليها. أنا لا أسأله أين يذهب فى بعض أمسيات الشتاء، وقد تدثر بمعطفه الداكن، ولماذا يغشى عينيه أحياناً شجن ومرارة؛ وهو بدوره لا يسألنى ما الذى يدفعنى إلى المجىء هنا، كى أهرب إلى الإصطبل وأمتطى جواداً، متخذة الطريق الصاعد نحو التلال التى تمتد إلى الأفق البعيد وحتى مرمى البصر؛ وأتسلل عبر الطرقات الواسعة، ممتطية ظهر جواد عصبى ولكنه ذكى فأنسى فرنشيسكو وكل هذه الصغائر، ولا أفكر فى شىء البتة وتصبح تورينو مجرد بقعة بعيدة، ضباب على ضفاف نهر الـ بو يشبه نفخة النفس فى الهواء البارد.

لقد اضطررت لأن أبيع جيادى؛ لأنه بدون مساعدة ڤيللافورستا لا يمكننى الإنفاق على تربيتها، حيث إننى قمت باستثمار كل عوائدى وإيراداتى المالية حتى آخر فلس منها فى العزبة الموجودة بـ توسكانا والتى ورثتها حال وفاة أخى. قبل رحيلى عن المنزل، ومع بداية فصل الشتاء الذى يدوم طويلاً فى إقليم بيمونتى، ببرودته القارسة وضبابه الكثيف، فضلاً عن فرنشيسكو الذى يزداد قسوة مع الأيام، كان لا يفارقنى أبداً التفكير فى "المحمية"، وفى التلال الثرية بالغابات، والمزرعة ذات الفناء المغلق وتلك الألوان الوردى والأصفر والأزرق الزهرى التى تمتد بعيداً فى الأفق.

ما كنت لأعتقد أننى سوف أكن كل هذا الحب لذلك الحقل التوسكانى الذى آل إلى والدى بعد فوزه فى اللعب ذات مساء فى النادى. كان فرنشيسكو يريدنى أن أبيعه. كذا والدتى أعربت، بعد مضى بضع سنوات، عن رغبتها فى أن يتخلص منه والدى ويعرضه للبيع.

أما هو، ولأنه كان يشعر بالخزى من فوزه بأرض زراعية واسعة كانت تخص صديقًا له، فقد كتبها على الفور باسم أنريكو. وقال لأمى:- لم تعد ملكى يا إلينا، لا أستطيع أن أبيعها. إنها ملك الفتى، وسيقوم ببيعها هو إن أصر على ذلك.

كانت أمى تضغط على شفتيها حتى تجعلهما شاحبتين من شدة غيظها، ولكنها كانت تلتزم الصمت. ثم تعود فتهمس بصوت خافت:- لا يروق لى هذا الأمر؛ فالمسكين روبورونت استودعنا أرضًا زراعية وهو حتى ليس بكافور. فلن يذكره التاريخ كرجل دولة ورجل سياسة عظيم له نقطة ضعف وهى المقامرة، وإنما كشيطان أخرق دمر حياة أبنائه. وأنت السبب فى هذا الدمار.

كان أبى لا يجيب.

كانت كلمات أمى تحمل فى طياتها تهديدًا ضمنيا مستترًا. ذلك التلميح الذى يبدو فى الظاهر أنه بلا قصد ويشير إلى التاريخ الذى يدين وإلى الذرية التى تعانى البؤس والفقر، كل ذلك يعيد إلى ذهن

والدى قصصًا ومشاهد من الكتاب المقدس تتحدث عن تأديب وويلات وبلايا. كان يتوه ببصره فى الفراغ. فماذا كان بوسعه أن يفعل غير هذا؟ يعيدها إلى صديقه؟ لا يجوز حتى مجرد التفكير فى ذلك، سيكون ذلك التصرف بمثابة إهانة شديدة لـ روبورونت؛ إذ ينبغى تسديد ديون المقامرة بأى ثمن، وإلا سينتقص هذا من شرف السيد النبيل. أيقامر عليها مرة ثانية؟ ولكن هذا سيجعلها تقع فى يد أشخاص آخرين، الأمر يستحق إذن الاحتفاظ بها.

أما بالنسبة لرهنها فى المقامرة لتمكين روبورونت من استعادتها، فهذا يستلزم إقناع ذلك المسكين بالجلوس مرة أخرى على مائدة القمار، وهو الشىء الذى ما كان ليفعله أبدًا مجدداً بعد أن خسر أرضه.

فى النهاية، قرر والدى أن أنسب الحلول للخروج من المأزق هو إهداء قطعة الأرض لـ أنريكو؛ الذى كان يبلغ حينئذ ستة عشر عامًا أو أقل. وما كان يعنيه فى شىء امتلاك أو عدم امتلاك قطعة أرض فى مدينة سيينا؛ فقد كانت تبدو له أرضًا بعيدة، غريبة، تمامًا مثلما كان يحسب أية جهة أخرى تبعد ساعات طويلة عن مدينة تورينو وعن وسائل وأماكن الترفيه المفضلة لديه.

ورثت "المحمية" حال وفاة أنريكو، وغدوت أكثر ثراءً من أى وقت مضى. لم أحصل على شىء البتة من زوجى، إذ قد مُنحت فقط حق استخدام البيوت والمصوغات؛ أما بالنسبة لمهرى، وهو مبلغ مالى كبير

فى شكل أسهم، فقد سلمه والدى لفرنشيسكو، ومن ثم ضاع وفُقد. من يدرى كيف؟ تجنب الجميع الحديث عن هذا المهر، كما لو كانت عائلة ڤيللافورستا قد عثرت علىّ عند قارعة الطريق، أحمل بيدى سلة زهور القرنفل وأبيعها للسادة النبلاء حتى يضعوها فى عروة رداء الفراك، تمامًا مثلما يحدث لبائعة الزهور فى مسرحية كوڤنت جردن.

وإذ بأرض زراعية مساحتها ثلاثمائة هكتار يتركها شقيقى لى ولى أنا وحدى.

بحلول نكبة وفاة أنريكو، بدا لى أن بلية الغم والكرب الشديد كما جاءت فى الكتاب المقدس قد أصابتنا فى النهاية. كان يملؤنى سخط أصم لفترة طويلة من الزمن، كما يحدث للأطفال. ويغمرنى إحساس تشوبه بعض الحيرة من وجود علاقة بغيضة بين موت أخى وهذه الأرض التى نملكها فى إقليم توسكانا والتى كانت أمى دائمًا ما تتحدث عنها بحسرة وألم. كما لو كان أنريكو قد أراد الموت ليترك لى "المحمية"؛ شىء مناف للعقل، بالطبع. ولكن ما لا يقل غرابة أنه، برجوعى للخلف فى الزمن، أدرك كيف كانت الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين ينتشر فيها مرض الأنفلونزا الإسبانية التى حصدت وأبادت الكثيرين، وقد كبر أخى فى هذه الحقبة ومع ذلك ذهب يبحث عن وفاته فى أرض بعيدة، فى قلب قارة أفريقيا، وكان هذا بفضل عيب تصنيع فى خرطوشة بندقية صيد.

على أية حال، فعندما هدأت واستسلمت لفكرة موته، عقدت العزم على التخلص من هذه الأرض وإعادتها لملاكها الشرعيين، بموافقة أو بدون موافقة أبى. ثم ذهبت إلى هناك كى أرى بنفسى ماذا ورثت عن أخى وعلى العكس قــررت أنه بالرغم من شـــدة الأسى والقنوط الذى يمتزج بهذا الميراث الآتى من مصدر غير عادل ولكنه مشروع، وبالرغم من الخلاف الكبير الذى نشأ بين أبى وأمى بسببه؛ فأنا لم أكن أود أن أستغنى عنه؛ فقد كان البيت الكائن فى سان بياچو آيل للسقوط.

وأبداً لم ينشغل أفراد عائلة روبورونت بهذه الأرض، بل كانت لهم أملاك أخرى فى تلك الأرض الخصبة السهلية التى تدعى رونيونى فى إقليم بيمونتى؛ حيث كانت المزروعات تنمو تقريباً دون تدخل بشرى، كما يقولون. لم يكن لديهم لا الوقت ولا المال لينفقوه على أرض وعرة مأخوذة من الغابة؛ حيث تندر مياه الرى صيفاً فى حالة ما إذا تهدم أو انهار بئر المياه وحيث تتهشم الأدوات على الصخور. كانت هذه الأرض تكلفهم مالاً كثيراً جداً.

كان إدو، الفلاح العجوز، يضع دلاء وأحواضاً فى كل أرجاء المنزل حيث كان القرميد الذى حركته الرياح من مكانه يسمح بسقوط مياه الأمطار شتاءً، وكان يعتنى أيضاً ببستان صغير وبعض أشجار الكروم. كان يقوم بقطع أشجار الغابة، غير أنه كان يضنيه رعاية أشجار الزيتون. كان الأمر يستلزم مالاً وسواعد قوية وتصميماً، وأيضاً الكثير

من الوقت. وصلت هناك وأدركت أنه لدىّ التصميم وكل الوقت المطلوب وأنه بقليل من الحظ سوف يكون باستطاعتى تدبير مبلغ من المال مما يمكّننى من استئجار بعض العمال القادرين على ضبط الأمور وإعادتها إلى طبيعتها. أولاً البيت، ثم بعد ذلك الأرض وفيما بعد، من يدرى، ربما كان بالإمكان تخصيص مكان لإقامة حديقة.

بمجرد عودتى إلى تورينو، طلبت مقابلة والدى والحديث معه. نظر إلىَّ فى دهشة واستغراب، وعيناه تظللهما خيبة أمل، ثم دعانى للدخول إلى حجرة مكتبه. وبإشارة من يده جلست أمام مكتبه، كما كان يفعل مع مدير أعماله. لم أقل شيئًا عن ڤيللافورستا، وكذلك أبى لم يتحدث عنه. طلبت منه نصيبى فقط.

– لقد حصلت بالفعل على نصيبك، يا صغيرتى العزيزة. أعطيناه لفرنشيسكو عندما تزوجتِ.

– لا أتحدث عن هذا النصيب. وإنما عن نصيب أنريكو. لقد ترك كل شىء لى. هذا هو النصيب الذى أريده.

رأيته يحنى رأسه، فى حركة لا أعرف بالتحديد هل هى حركة تنم عن هزيمة، أو عن ألم أو عن تأثر. ظل صامتًا، مرتكزًا بذقنه على يديه، ونظرته باهتة كعهده منذ أمد بعيد.

بعد ذلك بأيام قلائل، قمت بتوقيع بعض الأوراق والمستندات أبيع بمقتضاها لحساب أبى وأمى ما كانا قد خصصاه لأنريكو فى حياتهما وما كان أنريكو قد نوى أن يتركه لى، بالنظر إلى شخصيته. وهذه هى كلماته:- لا تتأثرى، فإذا لم أعد فسوف تصبحين أكثر ثراءً.

فى تلك الليلة، ذهبت إلى فراشى ويقين ما يملأ قلبى؛ ألا وهو معرفتى بوجود مكان خاص بى. كنت أعرف أننى فى كل مرة أريد أو حينما تصبح الحياة الزوجية والتزاماتها الاجتماعية غير محتملة وثقيلة علىَّ، فسوف يكون متاحًا لى مكان أذهب إليه وأحتمى فيه.

-٣-

الخصر النحيل

١

قمت بتجميع كل أوراقى. راجعت التقويم وفكرت فى تاريخ محتمل. قبل أن أقرر الاتصال، سألت نفسى مائة مرة إن كنت أرغب بالفعل فى أن أدعو كل هؤلاء إلى هنا فى "المحمية". ثم، لماذا أولئك الأصدقاء فقط، من بين الاشخاص الكثيرين الذين عرفتهم طوال حياتى؟ لماذا تلك المجموعة الصغيرة التى أتت هنا ذلك الصيف قبل عدة سنوات مضت؟

من حين لآخر، ينبغى أن نأخذ قراراتنا ثم نترك الأمور وليحدث ما يحدث.

اتصلت هاتفيًا بـ نينا. جعلت الهاتف يرن طويلاً، وفى تلك الأثناء كنت أتساءل هل أخشى وجودها أم أخشى أكثر من عدم وجودها. فى النهاية، وعندما كنت تقريباً على وشك أن أتخلى عن الفكرة، أجابت نينا.

لا تزال نينا تحتفظ بنفس نبرة صوتها، كان هذا هو أول ما فكرت فيه وقد قلت لها هذا. أما هى فقد أجابتنى على الفور وبلا تردد:– شىء طبيعى؛ فالصوت لا يتلف بنفس سرعة الباقى.

من كان يقترب من نينا، يدرك على الفور أن تلك الفتاة العبوس تجمع بين مواهب عديدة. كانت متألقة، حاذقة ومسلية وظريفة جداً، وأيضًا جميلة حتى فى أدق التفاصيل، مثل الأصابع الطويلة ولون البشرة المضىء وكذا العينان اللامعتان وأيضًا نبرة الصوت.

عرفتها فى مدينة فلورنسا، فى منزل إيريس وكارلينو، فى المساء الذى توفى فيه ذلك المسكين الميريجى، على ذلك النحو الغريب والمضحك فى الوقت ذاته، وهو بين أحضان إيريس.

كنا جالسين فى حجرة الصالون، بعد رجوعنا من المسرح. كانت نينا قد وصلت عصر ذلك اليوم من روما إن لم تخنى الذاكرة، وكانت متجهة إلى ميلانو. كانت تتوقف هنا وهناك، فى أى مكان لا يهم، حيث كان لديها أصدقاء أو حيث كانت تُقدم لها وجبة عشاء أو غذاء، كانت تقول إن السفر والترحال متعة لا ينبغى إفسادها بوجود هدف، فكانت لذلك تسافر طوال الوقت، فى إيطاليا وخارجها، حيثما كان من الممكن السفر.

كانت إيريس رائعة ذلك المساء، رابطة الجأش تماماً، وكانت تجعلنا نضحك حتى البكاء من خلال روايتها لقصص قصيرة غاية فى الغرابة والاختصار، كانت فى اعتقادى قد ابتدعتها وأثرتها بالتفاصيل فى لحظتها.

كان الميريجى، وهو رجل جميل الطلعة، يجلس بجوارها ويوجه لها القفشات، كانا يقومان بما يشبه العرض الفنى. بعد آخر قهقهة وأكثرها صخبًا، وعندما انحنى الميريجى على كتف إيريس، التى كانت لا تزال تضحك، لم يفهم أحد منا ما يجرى، حتى أن المريجى كان يصدر أصواتًا غريبة ومخنوقة لم نسمعها أبدًا من قبل؛ من يدرى، لعله نوع آخر من عروض التقليد التى كان يقوم بها. أتذكر تمامًا صف أزراره المصنوعة من حجر الأكوامارين وإطاراتها من الذهب؛ ربما لأن لون تلك الأزرار وشكلها يذكراننى بعيون السمك الكابية التى لا تلمع.

رفعت إيريس كتفها لتبعده عنها؛ وقع الميريجى عليها غير أنه لا أحد منا أدرك ما يحدث.

ثم صرخت إيريس وأخيرًا سكتنا كلنا إذ وقع الميريجى على الأرض نحو الأمام، فى وضع بشع و غريب. كان السبب فى ذلك هو النشا؛ حيث تم كى قميصه بإتقان تام، وكانت واقية الصدر صلبة جدًا لدرجة أنها لم تنثن ولا حتى تحت ثقل صدر رجل ضخم مثله.

كان منظر ذلك المسكين غريبًا جدًا بل مضحكًا بصورة مؤلمة فجة وهو راقد بهذا الشكل.

لم تكف إيريس عن الصراخ وجحظت عيناها من بشاعة المشهد. حاول كارلينو أن يرخى عقدة ربطة عنق الميريجى وصرخ آمرًا الخادم

بأن يركض ويحضر طبيباً؛ أما أنا فقد بقيت بلا حراك من هول المفاجأة ولأننى لم أدر ماذا أفعل.

بينما علقت نينا قائلة: - ربما كانت سكتة قلبية، إنه أمر يحدث أحيانًا.

بينما كان الجميع يحاول أن يقوم بأى شىء لإنقاذه، حتى وإن كان بلا جدوى لأنه كان من الواضح أنه توفى، انسحبت نينا من حجرة الصالون دون أن تلتفت وراءها، وصعدت إلى حجرتها وأعدت حقيبتها ورحلت.

من أجل هذا كرهتها. لكن كان ذلك قبل الحرب، حينما كنت أتكدر من الخسة والنذالة. ومنذ ذلك المساء أصبحت أتضايق من وجود نينا واستمر ذلك الإحساس لفترة طويلة من الزمن. كنت أتحاشى أى لقاء ممكن معها، ومع ذلك كان دائمًا ما يصل إلى مسامعى بعض الأحاديث الهامسة عنها؛ ومنها أنها غنية جداً، وأنهم قاموا بالحجز على جميع أملاكها غير أنها نجحت ثانية فى جمع ثروة كبيرة بمجهودها وحدها، ولا أحد يعلم كيف نجحت فى ذلك...

ويقول آخرون:- نينا؟ ينطبق عليها المثل الفرنسى: "هى كبيرة فى نوعها، ولكن نوعها ضئيل".

أما نينا فقد قررت أن نصبح أنا وهى صديقتين، فكانت تأتى إلى منزلى، دون سابق إنذار، ودون حتى أن تعتذر؛ بل تتصرف كما لو كان من واجبى أنا أن أعبر لها عن امتنانى لأنها اختارتنى كى تقضي معى بضع ساعات فى بيتى بسان بياچو، تحكى لى عن حياتها الجائشة. ولأكثر من مرة، سألتنى وهى تتنهد فى شفقة:- لكن، كيف تقدرين على الحياة هنا؟ إنه منفى، عقوبة، سجن تحكمين به على نفسك بنفسك. انتقلى إلى العيش فى المدينة. ليس بالضرورة أن تعودى إلى تورينو، يمكنك الذهاب إلى فلورنسا، ميلانو أو روما . يمكننى أن أقدمكِ إلى أى صالون من صالونات إيطاليا؛ فأنت جميلة، وتجيدين أكثر من لغة وعلى دراية بأصول الاجتماعيات... أما فى الريف، فكل إمكانياتك ضائعة غير مستغلة.

فى البداية، كان عدم تحفظها غير الرصين يغيظنى ويثير غضبى الشديد. ثم، بدأت شيئًا فشيئًا أجد أن صحبة نينا تضفى على حياتى النشاط والانتعاش؛ كان مجرد قضاء ساعتين معها معناه أن تمنح لنفسك فرصة قضاء نهاية الأسبوع فى مكان أو منتجع فى الخارج، تتأمل كل ما هو جميل أو كل ما يُعمل بصورة جيدة ولا تغضب أو تحتد لأى فعل غير لائق يصدر عن بعض المارة، أو لتأخر القطارات أو للإهمال الواضح فى الشوارع، فكل هذا لا يخصننا.

انتهى بنا الحال إلى أننا قد أصبحنا صديقتين؛ ونسيت أو ربما أردت أن أنسى كيف انسحبت ورحلت ذلك المساء، مثلها مثل لص الشوارع. كانت قصصها تغذى وتنمى رغباتى الكامنة فى الهروب، وكنت أستمتع وأنا أراها تأتى عندى ثم ترحل ثم تعود ثانية. كانت تقود سيارة زرقاء صغيرة، إسطوانات إطاراتها من المعدن اللامع ومقاعدها داكنة اللون. طَلَبَت أن توضع أعلى لوحة السيارة مباشرة صفيحة من الفضة فى حجم علبة السجائر وتُثَبَت على هيكل السيارة المعدنى البراق، ويُنقش على الصفيحة هذه العبارة: "تذوق سحابة الغبار".

ما كنت أعتقد أنه سيكون من السهل جداً العثور عليها والاتصال بها بعد مرور سنوات عديدة. وعلى العكس، كانت تكفى مكالمة هاتفية للاستعلامات التليفونية حتى أحصل على رقم هاتفها وبعدها سمعت صوتها الحاد الذى تميزه بحة بسيطة.

قلت لها:- أتقبلين دعوتى؛ أقصد أن أقول رغبتى فى تجميع عدد من الأصدقاء لا أراهم من سنين طوال... أعز الأصدقاء وأقربهم.. ربما تكون دعوة لتناول الشاى.. أو دعوة على الغذاء.. يمكننى أن أجهز لكم مكاناً للمبيت هنا عندى.. فى "المحمية".. مثل الأيام الخوالى...

- لكن سنين كثيرة قد انقضت، أجابتنى نينا وهى تتحقق من كلامى، - هل أنتِ واثقة من رغبتك هذه؟ فكلنا عجائز، وقد

تجدين أن أحدنا أصبح أكثر حماقة من ذى قبل... يا لها من فكرة... خلاصة القول، ماذا تريدين أن تسترجعى؟ لن تعود الأيام الماضية وإن عادت فستكون حزينة مُرَة. أتعلمين مقدار خيبة الأمل...

– خيبة الأمل؟ لماذا؟ أرغب فى أن أراكم كلكم مرة ثانية. ألديك فكرة عن أخبار إيريس؟ وكارلينو؟ و...

أترك حتى النهاية السؤال الذى يحرق شفاهى ثم أطرحه دفعة واحدة دون تردد:

– وماذا عن تروت... ألديك أخبار عن تروت؟

لا سبيل للرجوع إلى الخلف.

والآن، أشعر بقلبى يتجمد إذ تخطر على ذهنى فى تلاحق سريع مجموعة من الإجابات المحتملة. لقد توفى. إنه مريض. لم يعد يتذكر أى شىء. لقد تدهور به الحال تمامًا، حتى خطوته وإيقاع صوته كما خبا نور عينيه، لقد تحول إلى شخص آخر، ومع ذلك طلبت منها فى تهور الطفلة:– أيمكنك الاتصال به نيابة عنى؟ فأنتِ الوحيدة القادرة على هذا لأنك تجدين أى شخص بسهولة. أخبريه أننى أنتظره، وأنتم أيضًا. تمامًا مثل عطلة نهاية الأسبوع تلك التى قضيناها معًا فى "المحمية". كان ذلك فى شهر يونيو من عام ١٩٤٦ ... كان عام ١٩٤٦، أليس كذلك؟

أصدرت نينا صوتًا ما يشبه تنهدًا ينم عن دهشة أو استسلام.

– نعم، بالتأكيد، يمكننى العثور على بعضهم. وعليه هو أيضًا، إن أحببتِ. أحسب أنه بمقدورى أن أجعله يحضر إلى هنا. إن أردتِ ذلك بحق.

ها قد لاحت لى هذه الفكرة لتوها وإذ بها تؤلمنى بالفعل. أشعر بنبضات قلبى سريعة تتعبنى. ليست كل الذكريات بهذه القسوة. كل ما أراه، فناء خاوٍ، بوابة حديدية شبه مغلقة، وظلال أمسية فى بدايتها، أمسية خاصة بى أنا وحدى.

كل منا له أمسية يخبئها مثلى فى ذاكرته. فلا نافذة تتخبط، ولا عش يُطرَح أرضًا، ولا ثمرة فاكهة، ولا أحد ينادينى. انظر ببساطة إلى الأشياء من حولى وأرى أنها تخصنى أنا وحدى. منذ ذلك الحين، حدث كل ما يخطر على بال، فى العالم، فى أسرتى، فى منزلى وأينما أجول ببصرى. يكفينى أن أسمع أى نشرة أخبار مسائية حتى أتأكد من هذا. غير أن تلك الانفعالات التى تتدفق منضبطة منتظمة كالتنفس لم تتوقف بعد.

هذا هو السبب الذى من أجله أسعى لرؤيته مجدداً، بعد مرور كل هذه السنين. ليس هو مجرد الرغبة الجامحة للقائه والتحدث إليه، ولطالما تمكنت من مقاومة شعور مثل هذا، وإنما هى بالأحرى الحاجة الملحة لأن

أفعل ولو لمرة واحدة شيئًا لم أفعله من قبل طوال حياتى؛ ألا وهو الإفصاح وبشجاعة عما بداخلى. ممَ أقلق؟

لقد قبلت نينا دعوتى فى نهاية الأمر. إذن ممَ أقلق؟

لقد مر كل شىء ببساطة. لم يتبق الآن سوى تحديد يوم والاتفاق مع لاسانتا على قائمة طعام بسيطة لا تصيبنا بالأرق...

أعطتنى نينا عنوان بيتها. ولكنها نبهتنى إلى أنها سوف تُحضر معها ابن أخيها فابريتسيو، الذى يقوم بدور المرافق والسائق والمَعْنىّ بتلبية رغباتها.

– وأهم شىء أنه متخرج فى كلية الطب ويمارس مهنته كطبيب فى مدينة فراسكاتى. إنه شاب وسيم جداً، يشبه جارى كوبر فى عز جماله وتألقه، الكل يقول هذا، الكل بحق، حتى أننى أفكر جدية فى أن أتبناه؛ فأنا لم أنجب أبناءً وإلا فلمن ستؤول الـ "الجويدو رينى"؟

أنهى الاتصال الهاتفى.

أبتسم.

لن أندهش أبداً إذا ما جاءت نينا لمقابلتنا وشعرها لا يزال أشقر رمادياً. إنها تحكى قصة "الجويدو رينى" هذه منذ خمسين عامًا على الرغم من أنه لم ير أحد هذه اللوحة أبداً.

أعرفها جيداً أساطير العائلة هذه.

كانت أمى تدعو هذا "طريقة التفكير برجاء".

هل المتسبب فى هذا هو ما كان يميز القرن التاسع عشر من أوصاف تُسند إلى أشخاص بغير تروٍ؟

أهى حالات من التفاؤل أثارتها تلك الأمسيات التى كانت تتشابه كلها، قبل اختراع التليفزيون، مثلما كانت تتشابه ثرثرة أفراد الأسرة، والنساء يقمن بالرتق بمهارة والتطريز الدقيق، وفى تلك الأثناء كان تاريخ الأسرة يُثرى بشخصيات أسطورية مثل الجد الأكبر، عالم الفلك الهاوى الذى توصل إلى اكتشاف نجم وأسماه "إسباسيا"، دون أن يدرى أنه اسم إحدى المحظيات الجوڤانيات؟

ألم تكن جداتنا وأمهاتهن على قدر كبير من الجمال؟ إلا أنهن كن عفيفات، والحق يُقال، مثل شهيدات الكنيسة اللاتينية، أو تقريباً مثلهن إذ كان يجوز أحياناً مخالفة الفضيلة وخرقها للضرورة القصوى...

لقد سمعت أنا أيضاً الكثير من هذه الحكايات.

يبدو أن جدتى كانت تمتلك لوحة أصلية لـ ستراديڤارى، كما كانت خالتى تضع فوق مقدمة الفراش لوحة لعذراء ساسوفيراَّتو، وفى بيت ڤيللافورستا كانت قائمة الأبواب العليا عبارة عن سلات ضخمة بها فواكة بالتأكيد من تصميم الشاب بروبجل. جيل كامل تربى بين كنوز

فنية لا تُقدر بثمن وحينما كان يريد مضطراً أن يبيع شيئًا من هذه الكنوز لمواجهة ضروريات ومتطلبات الحياة اليومية الملحة والتى تثير الضجر بشكل لا يطاق، كان يدعو تاجر عاديات وصديقًا للعائلة، والغريب أن ذلك التاجر كان يحاول الانسحاب، ويسعل، ويراوغ قليلاً ثم يطلب قدراً آخر من الشاى بالليمون، وأخيراً، ينفجر مثل صواريخ رأس السنة ويقول:

– إن القيمة الوجدانية كبيرة، قد يكون من الأفضل عدم البيع؛ لأن القيمة التجارية، فى واقع الأمر، لا شىء، صفر.

– ولكن كيف؟ لوحة عذراء ساسوفيراًتو...

قد تكون مملة بعض الشىء، لا اعتراض، ولكنها أيضاً...

– لوحة ساسوفيراًتو، سواء كانت مملة أم لا، تساوى الكثير، ولكن قماشة الرسم أو اللوحة، أرجو ألا تعتبريها إهانة، هى مجرد تقليد، وتقليد سيئ... يعود إلى القرن التاسع عشر، على أفضل تقدير... ولكن، معذرة... ألم تكن تلك الرسامة الهاوية هى أخت جدتك؟

لا تغضبى... لا تسيئى فهمى، بحق الله، لكن... أليس من الممكن أن تكون خالتك هى التى رسمت لوحة العذراء ووضعتها على رأس الفراش؟

وهكذا فأنا أتشوق لرؤية الطبيب الذى يشبه الممثل جارى كوبر والذى سوف يرث لوحة "جويدو رينى".

لقد تقدم بى العمر، ولكن العالم يظل مكانًا مليئًا بالعجائب.

٢

إن لاحظ كل واحد منا حياته الخاصة بأثر رجعى، فهو قادر على تقييم ثقل ووزن بعض اللحظات التى أنبأت خفية عن أيام مملة أو أمسيات كان من المقدر لها أن تكون مشابهة لأمسيات أخرى كثيرة وإذ بها على العكس، وبغتة، تصبح نقطة تحول.

انظر خارج النافذة وأرى العمال الذين أتى بهم دينو وهم يشتغلون فى أشجار الزيتون، يقطعون ويزيلون الأغصان الضخمة للتخفيف من كثافتها. لقد تنازلت عن رأيى السابق وقبلت استئصال جزء من حقل أشجار الزيتون. ثم سيصل الحفار الذى سيقتلع النباتات وينقلها إلى مكان آخر، وبهذه الطريقة سوف يغرس دينو أشجار كروم أخرى كما كانت رغبته؛ فهو يميل ويعشق النبيذ كما يمتلك أيضًا الموهبة المطلوبة لصناعته. وحينما يُنشر مقال يتحدث بشكل إيجابى عن المزرعة بصفة خاصة، وتُمتَدح فيه خصائص نبيذ "لونيدينتى" أو نبيذ "روسُوڤيرميلليو"،

تركض "لاسانتا" وتحضره له، وهى سعيدة وكأنها صبية صغيرة، وتتكلم بحماس وحمية، بينما يظل هو ساكنًا صامتًا ينظر بعيداً.

يقطب جبينه فأتكهن من عينيه أنه يفكر فى مشروعات جديدة، وأعلم أنه لا ينسى كيف نجحنا فى إقامة شركة تنتج أفضل أنواع النبيذ. عندما أتيت إلى "سان بياچو"، لم يكن هناك وجود لأى شىء، سوى مزرعة فى حالة يُرثى لها؛ ثم جاءت الحرب وأعادت تحديد ملامح آفاق حياتنا، بعد أن أزالت العالم الذى كنت أعرفه؛ وكان لابد من ابتكار عالم جديد.

لكننى أخفيت عن دينو أن نقطة التحول الحقيقية مختبئة فى مكان آخر، فى زمن بعيد بعيد، يبدو فى الظاهر أنه مجرد باب دوّار يحجز خارجًا رطوبة ليل الشتاء، وإنما هو فى الواقع آلية مركبة تربط بالصدفة وإلى الأبد عالمين مختلفين وبعيدين عن بعضهما. إنه مساء يوم من أيام شهر فبراير عام ١٩٣٩. ذهبت إلى المسرح، بصحبة "أودونى" الذى كان رفيقًا لى، بناءً على دعوة من عائلة "سانتا فيورى".

إن كونتيسة عائلة سانتا فيورى، التى لا تكل ولا تمل من شغفها وولعها بالمسرح الجيد، تجذبنا جميعًا إلى شرفتها بالمسرح.

لم أكن أرحب دائمًا بالذهاب إلى المسرح؛ نظرًا لأن فشل زواجى قد زاد من حيائى العبوس الذى ما استطعت أبدًا أن أتخلص منه. على

أية حال، فقد نزلنا ذلك المساء أثناء الاستراحة إلى مطعم "ديل كامبيو"، كما جرت العادة.

لكن هذه المرة لم نجد القاعة مُثَمنَة الأضلاع، تلك التى كانت الكونتيسة تحجزها لنا عادة، لم نجدها متاحة. بدت على صديقتى علامات الاستياء مما أحرج مدير الخدم بالمطعم؛ وبقينا هناك لفترة وجيزة، لا نعلم ماذا نعمل، ونحن فى كامل أناقتنا، نثير الضحك بملابس الحفلات الساهرة التى نرتديها ونحن واقفات فى مدخل أحد المطاعم. ثم أخذت الكونتيسة قرارها وهو أن يجهزوا شرفتها بالأريكات ويقدموا النبيذ كفاتح شهية، أما العشاء فسنتناوله فيما بعد فى بيتها بعد انتهاء العرض.

طلبت من مدير الخدم عشاءً لأربعة أشخاص وأمرت بإرساله إلى بيتها. أخذت هذه الترتيبات وقتًا ورحت أُحكم شد معطفى الساتان الذى لم يكن يقى من البرد وأرتعش؛ بدأت أفقد صبرى أمام تصرفات صديقتى الهوائية المتقلبة وأشعر بالضيق أيضاً.

حاول أودونى جاهداً أن يخفف من حدة التوتر؛ فبدأ يلقى القفشات المرحة ويتحرك للأمام وللخلف، ويتوقع سقوط الجليد فى تلك الليلة؛ لأن الهواء كان مفعماً برائحة الجليد، على حد قوله. استدرت انظر فى اتجاه الباب الزجاجى المطل على قصر "كارينيانو" وأستطلع السماء كى أفهم إن كان "أودونى" على حق أو إنه يهذى. غير أننى لم أر حتى مجرد

بادرة سقوط جليد. دخل جماعة من الناس؛ ولمحت فى الباب الدوّار معاطف داكنة اللون وأوشحة رقبة بيضاء. لم أعر الأمر اهتماماً؛ فهى ليست وجوهاً معروفة. هكذا بدا لى الأمر على الأقل من النظرة الأولى؛ على العكس، استدرت انظر لصديقتى إن كانت قد وجدت حلاً لمشكلتها مع كبير الخدم؛ ناولنى أودونى كأساً من الشمبانيا وبمعجزة نجحت فى ألا أفقد منه ولا قطرة واحدة وأنا أسمع صوته من خلفى.

– كم أنا سعيد لرؤيتك. هذه بحق مفاجأة.

كان تروت فى تورينو لفترة وجيزة من أجل إتمام بعض الأعمال. لقد انقضت سنون كثيرة منذ آخر مرة تقابلنا فيها، منذ أن شد على خصرى فى سرعة خاطفة فى شرفة عائلة بسيرانو. قمت بتعريف كلٍ منهما على الآخر. أظهر أودونى تحمساً لهذا الوافد الجديد، وأصبح فصيحاً وبليغاً جداً لدرجة لم يستطع معها أحد أن يضيف كلمة واحدة. دعا الكونت والكونتيسة سانتافيورى تروت للجلوس معنا فى الشرفة الخاصة بنا، لا يسع المكان لنا جميعاً، ولكن المشهدين الثالث والرابع أقصر وسيتناوب الرجال على الجلوس.

قَبِل تروت وترك المجموعة التى دخل معها؛ وبينما نحن نصعد السلم للعودة إلى شرفة المسرح، شعرت بخدش صغير جداً يفسد علىَّ بهجتى الكاملة، فإن لم أكن قد قابلته صدفةً، ما كان تروت بحث عنى.

قلت لنفسى إن الأمر واضح؛ فتروت يعلم أننى متزوجة، وهو رجل نبيل، قليل من السيدات المتزوجات يسمحن بمغازلتهن ببساطة ويسر. لا يمكن أن يعرف تروت جحيم الحياة التى أرغمنى عليها فرنشيسكو ڤيللافورستا، وهو لا يعرف كذلك كم بقيت وحيدة، ولا كم اشتهيت أن أراه ثانية، وكم أنا مفتونة به وبتلك العيون التى تتفحصنى.

فشلت فى أن أحتفظ بهدوئى وبانفعالاتى الطبيعية المعتادة. فى كثير من المرات أجد نفسى أغض الطرف باحثة عن نظرته. وقبل نهاية العرض، دس تروت فى يدى بطاقة صغيرة بها اسم الفندق الذى يبيت فيه، وعلامة استفهام قبل توقيعه.

احتفظت بالورقة كالكرة فى قبضة يدى ولم أضعها فى حقيبة يدى الصغيرة.

أخشى لدرجة الرعب أن أفقدها ويبدو لى أنها فى مأمن هكذا، سأتصل به أم لا، إنها مسألة سوف انظر فيها فيما بعد. أما الآن فأنا أستمتع بهذا الشعور غير المألوف بالحرية الذى أحسه وأنا أخالف المبادئ التى تربيت عليها.

ظننت أننا سنتقابل للقيام بنزهة على نهر البو، على الرغم من برودة الجو القارسة، أو أننا سنتناول قدحاً من الشوكولاتة الساخنة فى مقهى سان كارلو، أو أننا سنتجول عبر محلات العاديات. خلاصة القول،

حسبت أننا سنحافظ على الشكل العام متظاهرين بأننا صديقان جيدان وليس أكثر من ذلك.

على العكس قال لى تروت وهو يتحدث معى تليفونيًا:

– لكننى سوف أرحل غداً، فليس لدينا متسع من الوقت.

شعرت بأن وجهى يحمر خجلاً، وأعلم أنه كان يجب علىّ الإلقاء بسماعة التليفون، أحسست فى نبرة صوت تروت بدَالة وأُلفة جرحتنى. وكنت أتساءل:

– كيف يمكن للمرء أن يكون بهذا السفور؛ هذا السفور المبتذل؟

وفى ذات الوقت أدركت كم كنت كاذبة ومرائية فى اضطرابى هذا. كان تروت يعرف أنه ليس لديه وقت يخصصه لى عدا تلك الساعات القليلة التى كان من المفترض أن يمضيها فى مدينة تورينو. كان متعجلاً، متعجلاً فقط فى اتخاذ قرار، أيجعل منى عشيقته، أم لا؟ أكان من الضرورى أن تنشأ بيننا علاقة أم أن هذا اللقاء كان مقدراً له أن يلفه التردد والإثارة؟ كم حدث بالفعل فى الماضى!

وأثناء هذه المحادثة الخفيفة اللطيفة، هبط علىّ الاقتراح بأن نلتقى فى الفندق عنيفًا فى عنف سقوط نيزك من الفضاء الشاسع. وبينما أنا أسمعه يشدّد على الكلمات؛ نظراً لأنه أجنبى، أدرك أن الواقع ما هو إلا حجر رَحَى شديد الثقلِ يسحقنى على الأرض. بمقدورى أن أُلقى سماعة

الهاتف ولا أراه أبدًا بعد الآن، بمقدورى أن أشعر بأننى قد أُهنت وأستخدم هذه الإهانة كدرع واق يساعدنى فى الدفاع عن نفسى، أو بمقدورى أن أستسلم وأرى نفسى على حقيقتها، امرأة من لحم ودم لها رغبات بسيطة وحيوية ومشروعة لا تدعو لأى نوع من الخجل. فى النهاية، سمعت صوتى واضحًا وطبيعيًا تمامًا وأنا أجيبه:

– اتفقنا، فى الرابعة عصرًا.

٣

كلانا يصمت بغتة.

نحن الآن نتواجد فى فندق صغير جدًا، تُحجز غرفته بالساعة، فى وسط مدينة تورينو؛ وهو عبارة عن كوخ متداع ظل محتفظًا ببنائه، ولا أحد يدرى كيف، وسط البيوت المزخرفة الجميلة التى تحيط به.

الذنب ذنبى. فكان تروت يود أن يصحبنى إلى الجراند أوتيل الخاص بالأمراء أو إلى ذلك الفندق الصغير الذى نزل به، أوتيل دى ساڤوا، لكننى رفضت.

وقد أرغمته على أن يأخذ غرفة متواضعة فى فندق متواضع من تلك الفنادق التى بالكاد تضع لافتة فى الخارج ولديها حارس أو بواب لا

يرتدى حتى حلة الخدم الرسمية الموحدة. ليس، أو ربما لزامًا علىّ أن أقول "ليس فقط"، خوفًا من أن يتعرف علىّ أحدهم، أو أن أقابل شخصًا من "المعارف" فى بهو الفندق، وإنما لأننى لا أريد أن تذكرنى الأشياء المصنوعة من النحاس اللامع وبريق كريستال الثُّرَيا بالعالم الذى أنتمى إليه.

يقول تروت مبتسمًا:

– إن التخفى ليس بالرومانسية التى أتخيلها، وهو بالأخص متعب ومرهق.

ها هنا ينتهى بنا الأمر، على أية حال. الفراش صغير والملاءات قديمة مستهلكة. يتسرب من الستائر شعاع ضوء حاد وبارد.

تظهر الجدية والتركيز على وجه تروت. وينظر إلىّ كما لو كان يرانى لأول مرة. أشعر بالإحراج من نظرته.

يقول لى:

– اخلعى ملابسك، أريد أن أراكِ وأنتِ تخلعين ملابسك. ابقِ واقفة. أرجوكِ. أريد أن أشاهدك. لم أقم أبدًا بخلع ملابسى أمام رجل وهو يلاحظنى. لكننى لا أريد أن أبدو خجولة أو محتشمة. أريد أن أكون امرأة مختلفة، دونما حياء أو تردد. أخلع ملابسى ببطء

وأحاول جاهدة أن أنظر إليه، وأكتشف أننى، إن نظرت إليه، يصبح كل شىء سهلاً يسيراً. أشعر أننى جميلة. أقرأ هذا فى عينيه، وأدرك أننى أولد فى نظرة عينيه. اقترب مرتجفًا وهو يتأملها وجثا على ركبتيه بجوارها. وهنا، ولما كانت نهاية لحظة الافتتان قد حانت، استيقظت الأميرة من نومها.

يضع يديه على خصرى ويضمنى إليه ثم يطلب منى أن أخلع له ملابسه. أحس فى صوته نبرة آمرة خفيفة أستشعرها كذلك فى ليونة إشاراته. إنه إحساس لم أحسه أبداً من قبل. أبدأ فى ملاطفته. ملمس جلده ناعم وساخن. يقبل عنقى وذراعىّ ويداعب يدىّ ويدعهما تتشابكان فى يديه ثم يدعونى للفراش. يمتزج صوتى وصوته ويصبحان صوتًا واحداً.

يداهمنا تمامًا المكان المقفر المحيط بنا. أنا امرأة متزوجة، وزوجة ڤيللافورستا الخائنة. الخائنة بدءاً من اليوم، وتروت كذلك خائن؛ إذ قد ترك زوجته إيناس.

نبتعد عن بعضنا كما تقتضى الطبيعة والفطرة. ولكن الفراش صغير جداً لدرجة إنه لا مكان يسمح لنا فعليًا بأن نبقى على مسافة متباعدة ولذا نظل بلا حراك، ونحبس انفاسنا تقريبًا حتى لا نضطر أن نتلامس.

كيف حدث هذا؟ ما الذى دفعنى للمجىء إلى هذا المكان؟ أهو الملل؟ أهو شعور طفولى بالعند فى حياتى التى أود أن أقول لها:

– لكنكِ وعدتنى بشىء آخر تماماً!؟ أم هو الحزن والإحباط الذى يبتلع كل شىء، فى الوقت الذى نستنزف فيه كل حياتنا يوماً بعد يوم فى محاولات يائسة لملء اليوم، هذا وينصحنى مرشدى الروحى قائلاً:

– هل جربتِ طريق الأعمال الخيرية؟ وماذا عن الصلاة؟ فالصلاة معًا تزيد من اتحادنا، تذكرى هذا!

وهنا يراودنى سؤال:

– ولكن مع من أصلى؟ مع السيدات المثقلات بجواهرهن واللاتى كن صديقاتى ونحن فى عمر الطفولة واليوم أصبحن هن أيضًا غريبات مجهولات وكأنهن من سكان المريخ؟ أم أصلى مع فرنشيسكو، الذى يتردد على امرأة عاهرة يقضى معها أوقاته دون علمى؟ أهذا هو الرجل الذى يستحق أن أظل مرتبطة به؟

لا، إنه شىء آخر هو الذى جعلنى أجىء إلى هذا المكان. لا أدرى اسمًا له؛ لأننى أشعر بالفطرة أنه هناك أشياء لا تحتمل أن نعطى لها اسمًا. ليست مسألة قصور فى اللغة، ولا هى مسألة حياء، إن السبب فى

وجودى هنا قوى جداً لدرجة أنه أحضرنى إلى هذا المكان وأيضًا وهن جداً لدرجة يلزم معها السكوت وعدم الإفصاح عنه وإلا سيكون القصاص هو الضياع والتشتت أو ربما هو أسوأ من ذلك، إثارة السخرية والتهكم. كنت سأشعر دائمًا بالغثيان والقرف من نفسى يعتصران معدتى حتى وإن كنا جالسين فى شرفة أوتيل دى فرانس وأمامنا المحار والشمبانيا، بدلاً من وضعنا الحالى كعاشقين تقابلا خفية فى مخبأ فئران فى شارع سان ماوريتسيو.

أقبع بلا حراك وسط الملاءات المكرمشة، وأفطن إلى أننى أهرب، ليس فقط من ڤيللافورستا وإنما أهرب أيضًا من حياة مزيفة، حياة كلها ملل أبدى، أهرب من صورة لشخصى ألصقوها بى، والتى كنت أعتقد أنها انصهرت وذابت بداخلى كزي الجندى الصغير المصنوع من الرصاص وها أنا أكتشف على العكس، وعلى حين غرة، أنها لم تعد تناسبنى، بل ضاقت علىَّ وتؤلمنى. نعم أهرب، وأترك كل هذا من خلفى، غير أن أول بادرة حرة لهروبى وإدراكى لذاتى تتمثل فى اختبائى فى غرفة بفندق، ودفن رأسى فى الخيانة والخدعة والحيلة. أنا عشيقة. يتلاشى المعنى الأساسى للكلمة؛ وهو المرأة التى تحب وتعشق، ويظهر فقط معنى ثان، وهو المرأة المستترة. تلك المرأة التى لا يمكنها الخروج فى وضح الشمس وإنما تعيش فى الليل أو فى ظلام الستائر المغلقة بأحد الفنادق، تلك المرأة التى تتسلل عند البوابة لا يسمع أحد صوت

خطواتها كاللص. وهى لصة؛ لأنها تسلب شيئًا ليس من حقها حتى وإن كان عن غير قصد.

لا أدرى إن كانت تلك هى الأحاسيس نفسها التى تبعد تروت عنى.

يشعل تروت سيجارة.

ثم يسند يده على بطنى.

– كم هو ناعم ملمس جلدك.

أشعر بالبرد وأحس بأصابع يدىّ وقدمَىّ تتجمد. أود أن أتحدث، ولكن أخشى أن ينزل علىَّ وقع صوتى كصفعة على وجهى.

يمتص تروت دخان السيجارة بنهم، كما وإن كان لا يزال لديه احتياج يبغى إشباعه. أسأل نفسى:

تُرى هل صمتى يضايقه. ربما يجدنى مثيرة، أو ربما فزعة وضعيفة مثل حشرة. من يدرى. لعل إيناس أكثر...

إن التفكير فى زوجته بمثابة السوط على جلدى، فأنقبض فى حركة تلقائية، ينتبه تروت على إثرها.

– ما الخطب؟ ماذا بك؟

– لا شىء البتة. ليس بى شىء البتة.

– هل أنتِ مرتعبة؟

– لا. ليس هناك ما يدعو لأن أرتعب.

– ماذا إذن؟

ينهض تروت ويستند على الوسادة. نكاد نكون متلاصقين.

– ما يرعبنى هو ما سوف يأتى.

حال خروجنا من هنا؟

– نعم.

– بعد خروجنا من هنا، سنظل نتقابل. سوف نتراسل. لن نفترق.

– أنت مرتبط بـ...

– بزوجة.

– نعم.

– و...

– و... ماذا؟

وسـوف تتركـها؟ ألم تجـعل منى عـاهرتك، تمامًـا مثلمـا يفـعل ذلك الآخر؟

ليتنى أمتلك الشجاعة لأسأله.

أبقى صامتة. ويستطرد تروت قائلاً:

– وأنتِ... ماذا عنكِ أنتِ؟... أهذا هو ما تفكرين فيه؟

لا أجيب، وإنما أومئ برأسى. ينظر إلىَّ تروت. يعلو وجهه تعبير ينم عن الجـدية والتـفكيـر العـميق وإن كـان لا يخلو من العـذوبة والرقـة. تمر بضع دقائق قبل أن يقول ببساطة:

– لا أعرف.

أتخـيل أننـى عندمـا أخـرج من هذا الفندق، سـيكون الجـو بارداً وسوف أحكم ياقة معطف الفراء حول عنقى. أتخيل أن يكون الضباب قد بدأ يرتفع من نهر البو، أما أنا فسوف أسلك طريقى فى اتجاه بياتسا ڤيتوريو وأنا أتجنب أنوار المصـابيح، وأتلهف للعثور على سيارة أجرة تقلنى إلى البيت.

أتخيل أننى، بمجرد وصولى للبيت، سوف انظر لنفسى بعناية فى المرآة؛ كى أتفحص ماذا تغير فى وجهى وفى جسدى، الآن وقد صار لى عشيقًا.

أتخيل أننى سوف أتقلب هذه الليلة فى فراشى مراراً وتكراراً حتى تنتهى ذاكرتى من استرجاع كل لحظة فى لقائنا، كيف تعانقنا؟ كيف نظر كل منا للآخر؟ وماذا قال كل منا للآخر؟

أتخيل أصغر التفاصيل؛ لأن هذا يساعدنى على الاختيار، ولأننى لا أدرى ماذا أقول.

يقول لى:

– انظرى إلىَّ، انظرى فى عينىَّ.

انظر إليه، انظر إليه باهتمام، وأتمنى أن أرى فى عينيه هو أيضًا ملامح اضطرابى وارتباكى، ولكننى لا أرى سوى نظرة متأملة مليئة بالحنان. كيف يمكننى أن أقاوم والأمور تسير على هذا النحو؟

أسأله وبصوتى نغمة تهكم:

– هل أنت سعيد؟

لكن تروت لا ينتبه ويقول ببساطة طبيعية جدا تسلبنى كل أسلحتى:

– نعم، نعم، أنا سعيد.

هى لحظة. تكفينى لحظة للاختيار؛ فأنا الآن أعلم ماذا يحدث، والصورة تبدو أمامى واضحة جلية. لقد اخترت.

تداعبنى يدا تروت وأنا لا أحاول التنصل منها. بل على العكس. أركز كى أستمع لرد فعل جلدى، كل سنتيمتر من جلدى، لملامسة، ولمجرد تلامس أصابعه. لم أكن أعرف أن الرغبة هى هذا، التسليم والتركيز والسكوت والاشمئزاز والحنو.

حتى هذا الموقف العادى جداً؛ وهو وجود رجل يلاطفنى، يصبح مع الوقت نوعاً من التدريب والتعود.

كل ما أحمله على أكتافى من صبا وخيول وقماش الدنتيللا وظلم ومديرات منزل وريش وإحباطات حتى جدتى وأنريكو، كل شيء، خلاصة القول كل شيء، ساهم فى إحضارى إلى هذا المكان.

لماذا يبدو لى هذا التسليم وهذه الفرحة المؤلمة التى أحسها وأنا بجانب تروت، على الرغم من الكذب والخداع، وعلى الرغم من اللوم الذى أوجهه لنفسى، لماذا يبدوان لى الوضع الطبيعى، ويعبران عن طبيعتى الحقيقية وعما ادخرته لى منذ البداية الساحرات الطيبات.

تذكر الملك، الذى صعد هو أيضاً، عند سماعه تلك الضوضاء، تذكر نبؤة الساحرة وأدرك حتميتها منذ اللحظة التى تنبأت بها.

بعد خروجنا من الفندق، نسير بمحاذاة نهر الـ بو وننزل إلى أسفل عند مكان وقوف المراكب تاركين خلفنا كنيسة السيدة العذراء مريم.

يتجول القليل من الناس شتاءً بسبب الضباب.

أقول لنفسى، إنها نزهة العشاق فى السر، وأبتسم. لم ينتبه تروت.

كنت أظن أن ارتداء ملابسى أمامه سوف يشعرنى بالحرج والحياء، ولكن على العكس كان الأمر طبيعيًا جدًا لدرجة أنه ساعدنى فى تثبيت جواربى، دون أن يحمر وجهى خجلاً.

ماذا يحدث لى؟

نبقى صامتين لبرهة ونحن نسير جنبًا إلى جنب. نبدأ فى التحدث فى أمور كثيرة تافهة؛ فنحن الاثنان نحب الشوكولاتة والنبيذ الأحمر وأمسيات الشتاء القصيرة.

أقول له مازحة:

– إذن تورينو هى مدينتك ومكانك المفضل، هنا الشتاء يستغرق شهوراً، وهنا يوجد أمهر صناع الشوكولاتة فى أوروبا. أما بالنسبة للنبيذ، فالذهاب إلى حقول كروم "لى لانجى" وإلى "مونفيراتو" فى وقت حصاد العنب يعتبر عيداً.

يبتسم تروت ضاماً شفتيه ومقطباً:

– ماذا تعرفين أنتِ عن النبيذ؟ أخبرينى. هل سبق لك أن شربتِ نبيذاً فرنسيًا حقيقيًا رائعًا من تلك الأنواع التى لا تُنسى؟

يسحب الحقيبة من يدى، إنها حقيبة صغيرة وخفيفة من الخرز الأسود وليس بها إلا علبة بودرة وأحمر شفاة، وربما بعض العملات النقدية.

إنها بادرة مهذبة وغير مألوفة، ومع ذلك يمسك تروت بالحقيبة وكأن تخليصى من هذا الثقل بدا له ضرورة لا يمكن تجاهلها.

أحسب أنه عادة ما يُظهر اهتمامه ولكن ليس لشخصى، ربما تكررت المرات التى يمسك فيها بحقيبة اليد ويفتح الباب ويصب النبيذ أو يشعل سيجارة بعد أن يسحب الولاعة من بين أصابع زوجته. وأترك كلمة "زوجته" التى تتكرر وتدوى فى عقلى فتؤلمنى، وكلما ازداد ألمى، داعبت هذه الكلمات فكرى لأنها تمثل الحقيقة والآن أيضًا وأنا أرى عينَى تروت تنظر بثبات فى عينىَّ، وأشعر بأنفاسه وأحس برائحته التى لا تزال تلازمنى، الآن أيضًا أعلم أننا لا ننتمى لبعضنا. ولا أسأل نفسى لماذا أنا على يقين من ذلك، الأمر هكذا وحسب.

ليته يحدث انفجار كبير فى المدينة وليت الألواح الحجرية التى تغطى مكان وقوف المراكب عند حافة نهر الـ بو تنزلق فى المياه كما لو كانت قطع ثلج تذوب.

انظر إلى أعلى، فى اتجاه جبل مونتى دى كابوتشينو.

تبدأ السماء تأخذ لونًا داكنًا، ينم عن قرب حدوث عاصفة، سوف تمطر السماء.

لكننى لا أقول شيئًا، أريد أن أرى إن كان تروت سينتبه إلى هذا، وإن كان حضورى سيكون له تأثير السحر عليه بحيث يختفى العالم ويضمحل من حوله، فإن كان يحبنى، فلن يهمه شىء لا هبوب عاصفة ولا صفير الرياح الباردة؛ فكل دقيقة يمكنه أن يقضيها معى سوف تبدو له عطية وهبة، غدًا يرحل، ويعود إلى باريس ولن أراه بعد ذلك ولا أحد يدرى حتى متى؛ لذا فأنا لا أريد أن أسأله أى شىء.

لا أريد أن أتحول إلى صوت رفيع حاد الطبع يسأل ويطالب ويَدَّعى، ألا يوجد هذا الإحساس الخفى بيننا والذى يسمح لنا أن يقرأ كل منا ما فى نفس الآخر، تمامًا مثل شخصيات الحكايات الخرافية؟

هذه هى الدقائق الأخيرة التى نقضيها سويًا، علينا أن نودع بعضنا بعضًا إن عاجلاً أو آجلاً.

لم يقل تروت بعد أى شىء عملى، هل سنلتقى ثانية؟ وكيف ومتى؟ أما أنا، فأشعر بحرج كبير وتردد.

تروت لديه زوجه وابنة فى باريس، وهو لم يخف عنى هذا الأمر أبدًا. ومع ذلك، فنحن لم نتحدث عنه مطلقًا؛ لأننا نشعر بالفطرة أن هناك

موضوعات لا يمكننا التطرق أو مجرد الإشارة إليها. ليس الآن على الأقل. أُمسك بيده وأقربها من شفتى، ينظر إلىَّ مبتسماً.

نستأنف سيرنا.

أنا الآن أكثر هدوءاً. أتخيل أن زوجة تروت امرأة قليلة الشأن، غلطة شباب يتحملها هو لأن الأمانة تقتضى هذا. أنا رفيقته، هذا ما أقوله لنفسى، فنحن جميعنا عبارة عن قطع موجودة فى الخانات الخاطئة، تروت وزوجته وأنا وزوجى ڤيللافورستا. تم وضعنا فى غير مكاننا السليم على قاعدة الشطرنج و بمجرد أن يخطر ببالى مجرد التفكير فى أنه ربما نكون نحن الذين وضعنا أنفسنا فى هذا الموقف، أمحو هذا الفكر فى الحال.

كان لقاؤنا غير متوقع، وقوياً جداً. ثم هكذا يحدث عادة للعشاق، أليس كذلك؟ أليس هو مكتوباً هكذا، فى الكتب أيضاً؟

– السماء على وشك أن تمطر. فلنعد. سأصحبك إلى المنزل.

يتمتع تروت عادة بصوت موسيقى ويقول أشياء تنم عن عقل راجح، غير أن كلماته، هذا المساء، تبدو لى قاسية. عندما يُقبِّل جبينى، مستغلاً عتمة أحد المداخل، حينها فقط يطمئن قلبى، فرغبتى الشديدة فى أن أصدقه وأن يكون لى لم تدعنى أنتبه، إلا بدرجة ضئيلة جداً، إلى أنه قد قَبلنى كما يقبل المرء أخته.

قضيت يومًا كاملاً وأنا مستلقية على الفراش، دون أن أقرأ ودون أن أنام، حتى أن عينىَّ فى النهاية كانتا تحرقاننى من شدة التعب.

ولما حيّانى تروت، استجمعت شجاعتى وقلت له:

– إن لم أرك بعد ذلك، إن لم تمر مرة أخرى على توزينو، لا يهم. يقولون إنه سيكون هناك حرب.

– يقولون أشياء كثيرة.

– هل ستكتب لى؟ هل ستخبرنى عن مكانك؟ فى الوقت الحالى، أنت المرتبط أكثر منى. لا أريد أن أتسبب فى إيذاء أحد.

– ماذا تقولين؟ أنتِ لا تتسببين فى إيذاء أحد. بالتأكيد سوف تريننى. سأكتب لكِ. ربما هذا المساء. لقد حفظت عنوانك عن ظهر قلب. لن تقوم أية حرب، سترين.

– لن أبقى هنا لفترة طويلة. أعتقد أننى سوف أنتقل إلى سان بياچو. ربما عليك أن تأتى...

– سآتى، سآتى، اطمئنى. لن تضيعى منى.

لم يكتب لى بطبيعة الحال.

ليس بعد.

أو ربما كتب لى، ولكن الرسالة لم تصل.

قد تكون خدمة البريد بطيئة، قد تضيع إحدى الرسائل، ربما كانت الكتابة على الظرف غير مقروءة...

تمنيت لأسابيع طوال أن تصلنى رسالة أو بطاقة، لكن لا شىء مطلقًا. تحولت الأسابيع إلى شهور، إلى أن تلاشت من الذاكرة، كل تفاصيل لقائنا الذى كان بالصدفة فى أحد المطاعم مساءً فى وقت متأخر.

من كان هناك ومن لم يكن حاضراً، المعاطف الداكنة وأوشحة الرقبة البيضاء، لم يتبق فى الذاكرة سوى شبه ظل مشوش باهت، صمت، وقطاع جانبى من وجه تروت فى مقابل الباب، وتلك العيون التى تصل إلى أعماق نفسى. حينما يغلب علىَّ النعاسُ ليلاً لا أزال أشتم أحيانًا رائحة الضباب على نهر الـــ بو وصوت عجيج المياه، وكأنهما يصحبان صوت وقع أقدامنا.

٥

أيقظتنى الإثارة قبل الفجر، بينما لا يزال الظلام يلف المكان فى الخارج.

سوف تجتهد نينا كعادتها دائمًا. إنها امرأة مقدامة وذات قدرة كبيرة. ولسوف تحضر هنا، كل أصدقائى، علىَّ فقط أن أقول هذا لـــ

دينو؛ حتى يرتب الحجرات ويقوم بتصليح ما يلزم تصليحه، غلاية المياه أو مغلق النافذة، وأن يطلى الجدار حيث زالت قشرة البياض، أشياء من هذا القبيل. ثم عليَّ أن أختار تاريخًا محدداً، وربما أطلب طباعة بعض البطاقات وأسأل لاسانتا إن كان لا يضايقها أن تعد الطعام لنا جميعاً وأن توفر لنا شخصًا يقوم بترتيب الأسِرَّة وينظف الأرضيات من التراب لمدة يومين، وشخصًا يلمع قطع الفضة وآخر يقوم بقطع مزيد من الخشب لاستخدامه فى المدفأة.

لم أظل أتقلب كثيراً فى الفراش أو أرتجف من البرد فى قميص النوم، بل ارتديت كنزة صوفية وجوارب سميكة من قماش التويد، وفككت الكلاب وانتظرت حتى يبزغ أول ضوء للفجر حتى لا تعثر رجلى فى صخرة.

وما أن رأيت أن الصباح يبشر بيوم جميل، خريفى بارد ولكن سماءه صافية وخالية تمامًا من السحب، ذهبت للقيام بنزهة فى الغابة بصحبة الكلاب.

نطلق عليها غابة وإنما هى قطعة أرض مليئة بأشجار السنديان التى تخلو من العليق أو العوسج.

فالنباتات الضخمة العالية لا تحتفظ بالرطوبة لمدة طويلة ثم تزهر ويكون السير فى وسطها بديعًا؛ لأن القدم تغرس فى سجادة متحركة.

ولغابة أشجار السنديان رائحة تلفك من جميع الجهات، كما قد يقول البعض عن النبيذ. كنت أذهب إلى مونفيرًاتو لأتنزه فى غابات أجار الكستناء. وتتميز غابات الكستناء بأنها قاسية، معتمة تنبعث منها رائحة ذكية. وكانت الشمس لا تتسرب إليها أبدًا، ولا حتى فى عز الصيف؛ نظرًا لتشابك أغصانها الكثيفة، وكانت الرطوبة الصاعدة ببطء من التربة تشق طريقها عبر طبقة كثيفة من الأوراق.

تسترجع ذاكرتى مشهد جدتى وقد ارتدت ثوبًا رماديًا وهى ترمقنى وتهمس لأمى:

– لا يبدو عليها أنها أكبر من اثنى أو ثلاثة عشر عامًا، وإن كنت أتخيل أنها أكبر من ذلك. لما كنت فى نفس عمرها، كنتِ أطول منها.

تتكلمان عنى ونحن نستقل السيارة فى طريق عودتنا من مونفيرًاتو. يدنو الصيف من نهايته. تعتقدان أننى نائمة لأن عينىَّ مغمضتان.

أنا دائمًا أغمض عينىّ، عندما يحين وقت رحيلنا من الريف. لا أريد أن أرى بيتنا وهو يختفى خلف المنحنى، لا أريد أن أفكر فى أننى عائدة إلى المدينة. وهما لا تتخيلان أن يغمض المرء عينيه فقط حتى لا يرى. وإنما تعتقدان أن العيون المغمضة معناها أنك تنام.

تواصل جدتى حديثها وقد كفت عن الهمس:

– إن هذه الفتاة نحيفة كالعود الجاف، حقًا إنها عود جاف. خسارة. ضاعت هباءً بمظهرها هذا غير المنسجم والمعيب.

وبالكاد تحتج أمى قائلة:

– إنها لا تزال طفلة. سوف تتغير.

– هذا هراء؛ فالجواب يظهر من عنوانه. اجعليها تأكل، ينبغى أن تمتلئ وتسمن. ثم إنها لا تتكلم أبداً. تجلس بعيداً فى صمت وعناد ويبدو من عينيها الجادتين أنها طفلة شريرة. أمس كنت أراقبها من بعيد وهى تسير فى الحقل مرتدية ذلك المعطف الأخضر، بالمناسبة من أين لها هذا المعطف البشع؟، كدت ألا أعرفها. رأسها صغيرة وساقاها طويلتان ونحيلتان، كانت تبدو كالجرادة. أحيانًا أسأل نفسى من أين ظهرت هذه الطفلة.

جرادة. هذا بالضبط ما قالته. جرادة.

-٤-

تحولات

١

أنا الــ "لونيدينتى". هكذا يسموننى فى البيت، حينما أختبئ فى حجرة السلم بإسطبل الخيول. يعتقد الكل أننى كسولة؛ لأننى لا أرغب فى حضور درس البيانو أو مذاكرة الجغرافيا. وهم مقتنعون فى البيت أن الكسل هو أفظع العيوب.

إنهم لا يعرفون أننى إذا اختبأت فى الإسطبل، فلأننى أحب رائحة الخيول، والصوت الذى تحدثه حوافرها وهى تدب على الأرضية الخشبية وأحب أيضاً رائحة جلد طقم الفرس.

لا أتضايق عندما يطلقون علىَّ اسم "لونيدينتى".

أنا أجهل بالطبع أصل الكلمة الصحيح، ولا أعرف سوى أنهم فى البيت يستخدمون هذه الكلمة فى غير محلها؛ لأن اللفظ فى الواقع يشير إلى العمال الذين لا يذهبون إلى مصانعهم صباح الاثنين.

أولئك العمال الذين يظلون نياماً للتخلص من آثار الثمالة التى يبلغونها يوم الأحد فى الحانة. ولا أحد يدرى كيف دخلت تلك الكلمة

منزلنا، ربما يرجع الفضل إلى المذياع أو ربما كانت مكتوبة فى ورقة جريدة "لا جدزيتا" استخدمها أحدهم فى لف البيض، والواقع أنها تسربت إلى المصطلحات السائدة فى بيتنا وبقيت حتى أن السيدة وودروف تستخدمها وهى تعجز عن نطقها.

لا تضايقنى أيضًا هذه الكلمة لأنها تجلب وراءها أصداء أخرى، فها هى والدتى تهز رأسها وتبتسم على الرغم من أنها كانت تعاتبنى فتقول:- يا عزيزتى، أنتِ مزاجية إلى حد كبير، والملامة التى يوجهها إلىّ الجميع لكونى مزاجية تبدو لى على العكس شيئًا خاصًا، صفة لا تطلق فى البيت على أحد سواى.

فى الواقع، لم أكن أبدًا الطفلة البليدة غير المكترثة كما كانوا يعتقدون. لم أكن أبدًا خاملة وغالبًا ما كنت أستيقظ فى الصباح الباكر جدًا، بل أحيانًا قبل الفجر، والبيت ساكن ومن المطبخ تأتى أصوات صامتة وضوء محجوب، فقد كنت أحيانًا أعد درسًا على عجالة إن لم أكن قد استذكرته فى اليوم السابق، وأحيانًا كنت أذهب عند الخيول، وأحيانًا أخرى كنت ببساطة أتلصص من بين مغالق النافذة شبه الموصدة وأترقب اللحظة التى يطفئون فيها أنوار المصابيح فى الشوارع وتصطبغ المدينة كلها باللون الأزرق. ولما كبرت ظللت أحب الاستيقاظ عند الفجر، وكان ڤيللافورستا يتضايق لأنه كان يعتبر هذا منافيًا للياقة والأناقة، وعلى حد قوله:- "السيدة الراقية لا تستيقظ أبدًا قبل العاشرة

صباحًا وتتناول دومًا وجبة إفطارها السريعة فى الفراش!" وبعد ذلك، وبمجرد أن شرعت فى العناية والاهتمام بالأرض الزراعية، أصبحت عادة الاستيقاظ مبكرًا ضرورة لا غنى عنها. إن كنت أحيانًا بليدة، فربما كان ذلك على مستوى المشاعر؛ إذ أننى كنت أبذل مجهودًا للتعبير عن انفعال، وللكشف عن ميل أو انزعاج ما. من الجائز أننى كنت خاملة وكسولة فيما يتعلق بالعواطف القلبية.

٢

تركت حجرة نوم الأطفال وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى. وهذا معناه أننى انتقلت للنوم فى حجرة نوم للكبار. أنام فى نفس الدور الذى توجد به حجرة نوم والدىّ، تفصل بيننا ثلاث حجرات. أضحت حجرة نوم الأطفال فى الدور الثانى صالونًا صغيرًا نستقبل فيه أنا وأنريكو ضيوفنا. وبدلاً من قطع الأثاث المطلية باللون الأبيض، والتى تم إصعادها إلى السطح، وصل من مونفيرًاتو منضدتان صغيرتان بقائمة واحدة ومقعدان وثيران مبطنان بقماش طرى.

أنا سعيدة بحجرتى الجديدة. وقد أرسلت أمى لشراء الستائر من قماش الباتِستة الأبيض من سويسرا، وهى مطرزة بالشرائط والزهور.

ويقول أبى:

– هذا هوس. تشترين دائمًا تلك الستائر التى تكلف مبلغًا باهظًا، إنها مصاريف لا فائدة منها فعلاً؛ فتلك الستائر البيج التى كانت معلقة قبل ذلك جيدة جداً.

وتعلق جدتى قائلة:

– كل زمن وله عقليته وعاداته. ففى أيامنا، كانت الفتيات يخرجن من حجرة نوم الأطفال فقط ليذهبن إلى الكنيسة ويتزوجن. فما الداعى لاستدعاء المنجد وتأثيث حجرة استقبال صغيرة؟

تبتسم أمى وتظل صامتة؛ إذ قد حققت بالفعل ما تصبو إليه. سيكون عندى حجرة نوم كالكبار، كما قررت هى، وبها فراش على هيئة مركب واثنان من أسماك الدولفين ورأسهما تجاه أسفل وكرة ضخمة من الخشب الغامق اللون، تتأرجح على ذيلها.

وسادتان للنوم بدلاً من واحدة.

ومكتبة أضلافها من الزجاج أستطيع أن أغلقها بالمفتاح.

المكتب كان يخص جدى. سطحه المصنوع من الجلد الأحمر يبدو باليًا بسبب بعض بقع الحبر التى لا يمكن إزالتها، غير أننى أتلهف ولا أطيق صبراً على الجلوس على مكتب حقيقى وليس على المنضدة الصغيرة بحجرة الأطفال حيث كنت أرسم وأنا طفلة.

وستائر الباتستة السويسرية خفيفة مثل الشاش.

خصصوا لى حجرة نوم جديدة. وأقول لنفسى إننى أصبحت كبيرة.

تقول جدتى بالأحرى إننى دخلت فيما يطلق عليه سن التمرد أو السن الأحمق.

ليس هناك ما يسوء فى رأيى.

فى العام التالى؛ أى عام ١٩٢٣، زار موسولينى تورينو فى شهر أكتوبر.

بالطبع أنا لا أدرى أنها زيارة رسمية يقوم بها رئيس الوزراء وأن كل المدينة قد استعدت لاستقباله. لا أدرى ماذا يكون الـ "لينجوتو"؛ وهو أكبر وأحدث مصنع سيارات فى أوروبا، وقد دُعى موسولينى لزيارته، فليس هذا موضوعًا حديثًا يهم والدىّ لا من بعيد ولا من قريب. كذلك لا يهم أنريكو ولا يهمنى. أما عن جدتى فقد قررت أن تذهب لترى "شخصيًا"، ما كل هذا الهيجان؟

كما يحلو لها أن تفصح أمام الجميع. وتلح على والدى حتى يصحبنا إلى ميدان كاستيللو وميدان سان كارلو؛ حيث يتوقع أن يمر موكب السلطات والمسئولين. أسمعهم يغمغمون ويتناقشون حول أنسب

مكان يمكن التوجه إليه: هل هو بيت عائلة بالبو دى فروا، أم مكان آخر؟. إن إمكانية الذهاب إلى النادى حيث توجد به شرفات كبيرة تطل على الميدان، لهو أمر خارج المناقشة؛ إذ إن السيدات لا يمكنهن الدخول إلى هناك، إلا فى مناسبات خاصة مثل الحفلات الراقصة.

وهنا يقترح والدى قائلاً:

– فلنذهب إلى بيت عائلة دوباد؛ لأن به أكثر من شرفة بطول الميدان، وإلا فسيكون علينا أن نتزاحم وكأننا داخل عربة سردين.

هذا بينما ترى جدتى أنه من الأفضل أن نذهب عند عائلة چانوليو وهى على بعد خطوات، "وهم من أولئك الناس الذين يمكن أن تذهب إليهم دون سابق إنذار"، على حد قول جدتى.

أخيراً، يقررون وأقضى بقية النهار فى شرفة فى مهب هواء خريفى، أعد الرايات والأعلام المرفوعة على المبنى المقابل فى محاولة لقتل ملل الانتظار اللانهائى. جدتى وأبى وأنا وأخى، أما أمى فقد رفضت بحزم مرافقتنا، نمثل ثلاثة أجيال ترقب وتنتظر مرور "هذا السيد موسولينى" كما تطلق عليه جدتى.

لا يروق لها "السيد موسولينى" بأى حال لأنه، على حد قولها، "عندما يتحدث يضع إحدى يديه أو يديه الاثنتين، وهذا أسوأ، فى

جيبه". يرى والدى أنها على حق تمامًا، وهذا أمر نادر الحدوث، لدرجة أنه لا يروق لكليهما مدينة تورينو وقد تغيرت معالمها بهذا الشكل. فالأبنية والعمارات ذات الأسلوب الباروكى لا تصمد أمام خفقان الأعلام والأغطية، ويُقال إن الإدارة المحلية زودت كل مواطن بعلم ليمسك به فى يده ويجعله يتطاير، ويدين أبى هذا التقليد ويصفه بأنه نقص لا يغتفر فى الذوق العام والحكمة والرزانة:

– شيء لا يصدقه عقل هذا المهرجان! انظروا كيف حولوا مدينة بأكملها إلى مجرد سوق فى بلدة صغيرة! فهذا التهريج الهزلى مكانه السيرك فقط، يا للشيطان!

يتكشف النظامَ الفاشى أمام عينيَّ اللتين يظهر فيهما ضجر المراهقة مثل نهار لا نهاية له ينقضى فى الشرفة من أجل حضور "مسرحية هزلية"، بقيادة السيد موسولينى القط، الذى يجد متعة وهو يرى الأعلام ترفرف تمامًا كما يستمتع غلام مدع متعجرف، وتعبر جدتى عن شناعة وقبح ما تلحظ وهى ترى السيد موسولينى ليس فقط واضعًا يديه فى جيبه وإنما مرتديًا سترة من اللون الرمادى الفاتح.

فى نطاق أفراد أسرتى الضيق، ما من أحد يهتم أو يولى الأمر أهمية أكثر من اللازم، ولم يكن الحكم الذى أطلقته عليه جدتى بشكل قطعى، واصفة إياه بأنه "انهيار لا يغتفر للذوق العام"، لم يكن هذا

الحكم، على ما أتذكر، محل نقاش أو معارضة فى بيتنا، حتى قبل أن يتضح لنا نحن أيضًا، بعد مرور سنوات، حجم الكارثة التى ساقتنا إليها.

٣

قمت بزيارة المحامى ريكورسى، إنه يشعر بالملل والزهق، وهو بمفرده طوال اليوم. داخل سلة، توجد كومة من مجلات الكلمات المتقاطعة والألغاز مكتوبًا عليها بخط ردىء. ويقول إن لم يكن متعبًا فقد يذهب لسماع شباب الكنيسة الذين يحضرون حفل عيد الميلاد، أو يقوم بزيارة الكنائس التى ترجع إلى القرن الخامس عشر، فهناك كنائس لم نسمع حتى عنها من قبل، على سبيل المثال كنيسة سانتا تشيتشيليا الـ بوچولو، أكنت أعلم بوجودها؟، أو يذهب للسوق كى ينقى نوعًا غاليًا جداً من عش الغراب؛ فليس أحد أفضل ممن يهوى البحث عن عش الغراب يقدر أن يميز أفضل الأنواع، وكان هو بحق يهوى البحث عن هذا النوع الثمين من عش الغراب، ترى هل أتذكر تلك المرة التى عثر فيها على عشرين كيلو من هذا النوع النادر من المشروم على قمة أحد التلال، لكن كيف لى أن أنسى هذه الواقعة؟

ينقر المحامى ريكورسى على علبة السجائر، فهو عصبى، أخبره أننى أعد لدعوة أصدقاء قدامى فى نهاية الأسبوع، وأنه بالطبع مدعو هو أيضًا؛ لذلك أنوى القيام ببعض الأعمال فى المنزل، وأنتهز الفرصة لإصلاح قفل البوابة الحديدية ووضع بعض الحجارة والحصى على الطريق الواسع المؤدى للبيت. أود أن يكون اجتماعًا خاصًا. لا أنوى تنظيم شىء معقد للغاية، قد يكون مضحكًا أمر كهذا فى الريف، وبحضور عدد قليل هكذا، وإنما أحب أن يكون الجو العام مرحًا وبهيجًا.

يسرنى إضاءة البيت كله بالشموع، وحتى الفناء، بالشموع الصغيرة المثبتة داخل آنية واسعة بيضاوية. كنت أفكر فى أسلوب تزيين يغلب عليه ثمار الصنوبر وعش الغراب، أو ربما ثمار الرمان المشقوقة من نصفها، كما نراها فى اللوحات. ينبغى ألا أنسى أن أطلب من دينو الذهاب إلى المخزن ليرى ما لدينا من أفضل أنواع النبيذ المعتق، أظن أنه لا يزال لدىّ نبيذ روسوڤيرميلليو طيب جدًا بحق...

يقاطعنى المحامى ريكورسى قائلاً:

– أحضرى موسيقيين، واجعليهم يعزفون كما فى الزمن الماضى حينما كنا نذهب إلى دعوات الغذاء أو الحفلات وكانت هناك موسيقى تعزف دائمًا، وليست موسيقى الإسطوانات.

– حضرة المحامى العزيز، إنك أحيانًا تفاجئنى بأفكار مدهشة حقًا. لابد أن آتى كثيراً لأطلب نصحك.

أقول له هذا على سبيل السخرية الخفيفة؛ إذ يظهر عليه علامات الكآبة والحزن.

– المحاميون خُلقوا خصيصًا لهذا، لإعطاء النصح. أنا سعيد أن فكرتى تروق لكِ، اسمعى، إن أردتِ يمكننى أن أنظم لكِ أنا كل شىء. سوف أحجز لكِ شيئًا خفيفًا وترفيهيًا.

– محاميَّ العزيز، أنا أحتاج إلى حيويتك ويقظتك، فلترفه عنا بحكاياتك وقصصك. أنا لا أريدك أن تقضى تلك الليلة فى الفراش، فسأضطر حينئذ أن أرسل إليك لاسانتا بحساء الدجاج، فى حين أننى أحتاج لاسانتا معى لتقديم الطعام. اهتم أنت فقط بأن تكون معنوياتك مرتفعة وفى كامل طاقتك.

– إنه الملل الذى يحبطنى ويهبط من عزيمتى. أنا لا أمزح.

يعانى ريكورسى من هم يشغل باله. وهو يرتدى طقمًا كاملاً من القطيفة، كان ذائعًا قبل ثلاثين عامًا للذهاب للصيد، وحذاءً لامعًا من الجلد الأحمر، مظهره عتيق جداً وإن كان لا يزال جميلاً. ويثبت على ربطة عنقه دبوسًا رفيعًا جداً من الذهب يشبه أرجل الناموسة: كان

المحامى رجلاً أنيقًا جداً فى شبابه. وأسأله كيف أنه اليوم يتجمل كشاب متغندر يختال بنفسه.

يتجاهلنى قائلاً:

– فهمت، أتعرفين؟ لقد رأيت لمحة النفور فى عينَى سكاورى، رأيت كيف ينظر إلىَّ شذراً. كان صامتاً، ولكنه بدا كمن يقول لى:

– وصلنا يا عزيزى ريكورسى إلى نهاية الخط.

ذات مساء ستنعس أمام التليفزيون و، باف!، ينتهى كل شىء. ستتركنا إلى عالم الأموات.

– اسمع، دعك من هذه الحماقات. الموسيقى. كنا نتحدث عن الموسيقى والحفلات الموسيقية.

– صدقينى. لا أزال أتذكر بعض القواعد الأساسية للموسيقى، وأستطيع أن أجزم أننى أفهم فى الموسيقى... إذن، أتسمحين بأن أهتم أنا بأمرها؟ سوف يكون هذا بحق من دواعى سرورى.

– نعم بالتأكيد. وأنا واثقة أنها ستكون مفاجأة للجميع.

أستمر فى حديثى مع ريكورسى عن كل ما أبغى فعله، عن ذهابى إلى البنك كى آخذ قطع الفضيات، ثم ينبغى غسل الأطباق والأكواب؛ لأن هذه الأطقم لم أعد أستخدمها منذ سنوات عديدة مضت، كما ينبغى

كى المفارش ولا أزال أمتلك مفارش غاية فى الروعة من قماش الكتان الثقيل الكثيف وأتحدث عن مفارش توضع فى النشا فتصبح متماسكة مثل الورق، وكل تلك المناشف، أتتذكرها، تلك المناشف الكبيرة، والتى تصل جوانبها إلى ثمانين سنتيمتراً؟

كم من أشياء احتفظت بها... وأثناء حديثى، تدلت رأس ريكورسى ببطء على كتفه. بعد برهة أتسلل خارج الحجرة.

جعلته ينعس وينام وهو يستمع إلى حكاياتى.

كتبت إلى نينا وأنا فى طريق عودتى إلى البيت، طالبة منها ليس فقط أن تتصل بـــ كارلينو، إيريس وتروت، وإنما أيضًا أن توجه لكل منهم بطاقة دعوة، ليست بطاقة دعوة حقيقية مزخرفة كما هى العادة، وإنما بطاقة التعارف الخاصة بى، وقد كتبت عليها بيدى سطرين، أظن أنه من الأليق أن أقوم أنا شخصيًا بدعوتهم مباشـــرة. لأنها لافتة انتباه لحثهم وترغيبهم فى المجىء، أسيأتون؟ حقًا سيأتون؟ كلهم؟ وهو أيضًا؟

٤

يتم غسل الكمثرى الكونفيرانس. يتم تخليتها تماماً بمساعدة معلقة كبيرة. يُنثر السكر بداخلها وتُبلل ببضع قطرات من الليمون. يتم مزج

١٠٠ جرام من الجبن الريكوتا الطازج فى طاسة مع البندق المفروم و١ ديسى ليتر من القشطة أو، إن أمكن من الكريمة الطازجة و٦ ملاعق كبيرة من عسل الأكاسيا (عسل الكستناء غامق جداً ويميل طعمه للمرارة). يتم حشو الكمثرى بهذا المزيج المركب ثم يتم وضعها فى طاسة مع إضافة مقدارين من المياه. وفى النهاية يتم الطهو فى فرن ساخن لمدة ٣٠ دقيقة.

ها أنا أختار لضيوفى قائمة طعام بسيطة، مستبعدة ذيل عصفور السنونو ولسان الببغاء كما تقترح لاسانتا.

لقد قمت مراراً بإعداد دعوة على العشاء وتنظيمها، حينما كنت لا أزال متزوجة من فرانشيسكو، ومرات أخرى كثيرة شاهدت والدتى وهى تقوم بهذا.

كانت تستدعى الطباخ الخاص بنا، واسمه أنچيلو، إلى حجرة الصالون وتقول له فقط:

– يوم ١٥ فبراير، اثنا عشر شخصاً على العشاء.

وكان أنچيلو يختفى قليلاً ثم يعود ثانية ومعه كتاب التدبير المنزلى، وهو أكبر قليلاً من كراس صغير داكن اللون وحواف صفحاته من اللون الأحمر النارى، ويقدمه لأمى.

ثم كان يجلس بعيداً، مشغول البال شارد الذهن. لقد دخل أنچيلو أوليڤيرو من مدينة "كارور" بيتنا وهو فى العاشرة من عمره، ومات هناك وهو فى سن الرابعة والسبعين. قضى حياته كلها مع أسرة والدى، وقد أخذوه كمساعد طباخ وهو فى العاشرة وأحضروه إلى تورينو، وأحيانًا أفكر أنهم تقريبًا سرقوه وأشعر بفظاعة وبشاعة هذه الفكرة. لم يهتم أحد بأن يعلم أنچيلو القراءة والكتابة، وكان مع ذلك يقوم بإعداد أطباق من السوفليه الرفيع المستوى وطهيها وكأنه فنان بارع، وكذلك فطائر باللبن والبيض والدقيق والأطباق الفاخرة الشهية كافةً التى ما عدت أتذكرها اليوم.

أراه من جديد، وقد ارتدى مريلة المطبخ البيضاء، وهو يستند على قائمة الباب وينظر إلى أمى فى عينيها مباشرة دون أن يبدو عليه أى مظهر من مظاهر سلوك الخدم، وهذا ما يعجبنى فيه، ولهذا أتذكر ليس مذاق مرق اللحم المركز بقدر ما أتذكر نظرة الاعتزاز والفخر التى يتمتع بها، لأنه يعلم أن لديه موهبة؛ موهبة حقيقية وطبيعية وإعجازية مما يجعله مساويًا، بل على العكس، أفضل من كل واحد منا.

أمى بالأحرى التى تخفض عينيها، فهى صغيرة أمامه عندما يتعلق الأمر بالمطبخ، إنها صغيرة وهى تعلم ذلك وقد تزينت كلها بالدنتيللا واللآلئ الصغيرة، بينما أنچيلو لا يملك سوى زى الطباخ الأبيض ذى الصفَين من الأزرار، ومنشفة ملفوفة حول عنقه وأخرى مربوطة حول

وسطه، يعلق فيها جراباً تظهر منه السكاكين المخصصة لتقطيع الخبز واللحم. لقد كبر صبى الطباخ الأُمى، وأصبح شاباً ذا أصابع غليظة، ولكنه بهذه الأصابع يتمكن من لف حلقة من العجين حتى يجعل منها شكلاً جمالياً وكأنه منحوت.

تظل أمى تنظر إليه ممسكة بالقلم، ويفتش أنچيلو فى ذاكرته، ويرتجل ويبتكر توليفات جديدة فيكوّن فى عشر دقائق قائمة طعام لعشاء فاخر. تترجم هى، وعلى ثغرها ابتسامة خفيفة، وتقول: اللحم من شرائح البتلو الصغيرة، وسلطة فواكة الموالح من ثمار البرتقال على الطريقة الشرقية، وصدور الفراخ من لحم الفراخ مع المرق، والحساء هو الثريدة المركزة على طريقة أهل الريف.

الآن أنچيلو هو الذى ينظر إليها مفتوناً؛ فهى تحول فى نظره، أرباع البقرة، والبيض والخضرة وكل هذه البضائع المعتادة القادمة من الريف أو التى تُباع فى السوق، بعد أن يتشاحن ويتشاجر عليها الطباخون الآخرون، تحولها إلى كلمات أجنبية وموسيقية لا يعرف معناها وبالتالى فهو يسمعها هكذا، لمجرد سماع صوت رنينها ولأنها غامضة بالنسبة له، وخفيفة بما يفوق الوصف. وحينئذ، تشعر أمى بالسعادة من الذهول البادى على أنچيلو، ومن إعجابه الصامت المؤثر الذى يتكرر كل مرة، فتترك العنان لتعليق شخصى منها، تلعب فيه

بالألفاظ على استحياء ولكن بفخر واعتداد، فتكرره كثيرًا دون أن تنتبه، فى اعتقادى، إلى معناه المزدوج. وتقول:

– تعرف يا أنچيلو، ينبغى أن تكون قوائم الطعام باللغة الفرنسية... جرت العادة على هذا النحو دائمًا... وهناك سبب قوى جداً يجعلنى أغير اسم الأطباق الراقية الشهية التى تطهوها أنت... وهو أن الفرنسية... تفتح شهيتك كى تتذوق كل الأطباق... وتُجرى ريقك... إنها لغة يستشعرها الفم ويحس بها.

وفى كل مرة، يفهم أنچيلو بالفطرة أنه يلزم عند هذا الحد من الحديث بينهما إضافة ابتسامة خفيفة، حتى تُسَر أمى وقد قالت تعليقها هذا الذى لا يفهمه وربما هى أيضًا لا تفهمه...

حضرت هذا الثنائى عشرات المرات دون تغيير ما يذكر.

أما الآن فسأعطى لاسانتا فى يدها قصاصة الورق المقوى التى كتبت عليها بالتقريب طريقة عمل الكمثرى فى الفرن، بعد أن نقلتها من مجلة نسائية. غير أننى أعرف أن والدتى كانت على الأقل ستطلق عليها الكمثرى المحشوة بالكريمة اللبانى الطازجة.

سوف يرضى أصدقائى. آخر مرة التقينا فيها كلنا معًا، منذ ما يقرب من خمسين عامًا، كان كل شىء مختلفًا. لست أدرى ما الذى دفعنى إلى دعوتهم "للمحظورة" فى الأسبوع الأول من شهر يونيو، أعتقد

أننى كنت أبغى الترفيه عن تروت، الذى بدا لى مضطربًا وليس فى حالته المزاجية المعتادة.

كنت أعزو هذا البهتان الذى يغلب عليه إلى الأوضاع المبهمة الغامضة فى تلك الفترة الزمنية، وربما أيضًا إلى الملل والضجر الذى يمكن أن يشعر به فى الريف من هو معتاد على العيش فى العواصم، فى لندن وباريس.

فى تلك الأيام كنا نذهب للتصويت من أجل اتخاذ قرار بالبقاء من عدمه فى الملكية، بالتأكيد كنا نتطلع إلى تغيير كبير، حتى وإن كانت الحرب قد عودتنا بالفعل على تغييرات عديدة مباغتة. أما الجمهورية... ماذا كانت تعنى؟ من منا كان يعلم معناها؟

كانت هناك توقعات بأن الأمر سيحتاج إلى يومين فى الأقل أو ثلاثة أيام للانتهاء من فرز الأصوات، إنه لدهر من الزمان. لماذا لا ننتظر النتيجة سويًا، ونتغلب على نفاذ صبرنا بالقيام بنزهات على الجياد، هنا فى ضيافتى؟

وافق الأصدقاء، كنا مجموعة ظريفة، نعرف بعضنا منذ فترة طويلة، ومع ذلك كنا مختلفين جداً فى ميولنا وذوقنا وتعاطفنا وانجذابنا السياسى. لم يكن هذا الاختلاف يسترعى انتباهنا فى ذلك الوقت. كان يجمعنا حب الريف، وهواية الخيول وكان هذا يكفى. كانت إيريس ترسم

لوحات عن الحيوانات بالألوان المائية وتتجول بين أرجاء "المحمية" بحثًا عن طائر الهدهد أو عن أحد الكلاب، أو الفراخ الراقدة على البيض أو عن ديك برى بين الشجيرات، أما عن الجياد، فكانت تقول إنها تفضل ركوبها عن رسمها. كذلك كان كارلينو وتروت وابن خالتى أودونى بارعين فى ركوب الخيل. وكنت أنا أفتح لهم أبواب "المحمية"، وأتيح لهم ركوب الخيل وكذلك بعض صناديق زجاجات نبيذ كيانتى يعود تاريخ صنعها إلى ما قبل الحرب العالمية. كانت نينا تضفى على صحبتنا بهجة وجمال وقدرة متحررة على الاستمتاع بالحياة تنتقل إلينا جميعًا فيما يشبه العدوى. لا أحد منا كان يشعر فى قرارة نفسه أنه يريد انتقادها، ولا كارلينو بالطبع، الذى راهن على الخيول فخسر كل مجوهرات زوجته، ولا أودونى الذى، بعد أن قضى سنين من عمره وهو يحاول أن يظهر بمظهر الشخص القوى ذى البأس والرجولة فى سترته التى أحكم أزرارها، كان ينتظر حتى يرى موسولينى فى ميدان لوريتو ليفصح أخيراً فى شجاعة أنه كان لا يحب النساء، وجعله هذا يتخلص من عبء ثقيل عليه وعلىَّ أنا أيضًا؛ إذ لم أعد مضطرة للتظاهر بأننى لم أفهم طبيعته. ولم أكن أجرؤ أنا أيضًا على إدانتها، إدانة نينا. فقد كانت عندى ضرورات كثيرة تستحق الاهتمام، وشركة زراعية تحتاج للدفع بها إلى الأمام، وقرارات يتحتم علىَّ اتخاذها إلى غير ذلك من أمور تواجهنى كل يوم، هذا فضلاً عن أننى أعيش مع رجل ليس بزوجى.

كنت أتجاهل، وقتها، كل الأفكار التى لا تتعلق بهذه الأمور، وأستقطع وقتًا لنفسى، ولنفسى فقط، فى الساعات الأولى من النهار، بينما الجميع نيام وضوء الصبح لم يكتمل بعد. كنت أضع السرج على الخيل وأنطلق، تاركة إياه يركض حتى أنهك جوادى فى حقل أشجار السنديان، مجازفة بكسر عنقى إذا انزلق وزل وكأننى أسعى وراء المخاطر.

لدرجة أننى أحيانًا كنت أترك السير الذى يُربط تحت بطن الفرس مفكوكًا، إلى ماذا كنت أسعى؟ لا أعرف، أن يتألم تروت والعالم أجمع من أجلى؟ أو ربما أن يهتم أحدهم بمعرفة إلى أين أنا ذاهبة وماذا أنا فاعلة؟.



-٥-

فترة ما بعد الحرب

١

نحن فى حرب. انقضت الآن أربعة أعوام. ذات ليلة، يوقظنى نباح الكلاب. يحدث هذا كثيراً، هذه الأيام. فالكلاب أيضًا تشعر بالتوتر والخوف، هذا بخلاف أن الغابات التى تقع بالقرب من البيت تعد مخبأ جيداً للهاربين أو للجنود الذين يبحثون عن شخص ما، وأحيانًا نسمع طلقات سلاح نارى تأتى من جهة التلال.

أهبط إلى المطبخ، يغلب علىَّ النعاس والقلق. هناك شخص ما عند الباب. الساعة الآن الثانية صباحًا. أقول لنفسى إنهم ليسوا فاشيين، فهؤلاء يعلنون عن أنفسهم بالصياح والصراخ، وليسوا ألمان، فهم يدقون على الأبواب دقات حادة قوية. أشعر بالخوف، ولكنى أفتح الباب. إنها نينا. شعرها غير مرتب، وترتدى چاكتًا وبنطلونًا ومعها رجل وشاب ذو ستة عشر أو سبعة عشر عاماً. يبدو عليها الارتباك والتوتر، وبعلامة من يدها تطلب منى ألا أتفوه بكلمة. أدخلهم ونجلس جميعًا فى المطبخ. تخرج نينا علبة سجائر وتقدم واحدة للرجل. ثم تدس يدها فى جيب السترة وتخرج منه لفة صغيرة. وتقول لى بابتسامة:

– خذى، أنا متأكدة أنه سيعجبك.

إنه شاى. شاى إنجليزى بالليمون البرجموتى، كل شىء لا يزال طبيعيًا، عندما كانت تبدو حياتنا أنها لن تتغير أبدًا. بينما أقوم بتسخين المياة وأعد الفناجين، تروى نينا إنه أمس، وعلى بعد كيلومترات قليلة من هنا، عند مزرعة أرتشينو، قرر أحد الضباط الألمان أن يقوم بعملية انتقامية ضد المدنيين، ربما للرد على هجوم المقاومة، أو ربما فقط لكى يخلف وراءه أثرًا ينم عن القسوة والعنف.

يختار مزرعة البالاتساتشو دارتشينو، بالقرب من سيينا حيث يوجد خمسون شخصًا تقريبًا من المشردين. تعيش فى هذه المزرعة عائلة باربالى، وجماعة لا بأس بها من الناس، ونساء وأطفال. يصل الألمان ويجمعون الكل فى الفناء. يبكى الأطفال والنساء، بينما يلتزم الرجال الصمت. يأمر الضباط أحد الجنود بإطلاق النار بالمدفع الرشاش، غير أن الجندى يطلق النار فى الهواء. هل هو اختيار أم خطأ، لا تستطيع نينا أن تجزم بشىء. أصاب الخوف هؤلاء الناس بحالة من الشلل الكامل. يُخرج الضابط الألمانى مسدسه ويطلق النار على كومة الناس، فيقتل الأطفال ذوى السنة والثلاث والست سنوات، وشابًا فى السادسة عشرة، وخمسة أفراد آخرين، من عائلة باربالى وجيرانهم. وتعتقد نينا أن الضابط الألمانى لقى حتفه هو أيضًا، على يد جنوده أنفسهم. وهنا يتدخل الشاب الذى أتى معها قائلاً:

– مستحيل، أولئك كلاب متوحشة وليسوا بنى آدميين لهم ضمير.

يقول الرجل:

– اسكت، من يتكلم هكذا يتصرف على شاكلتهم. على أية حال أنت لم تكن موجوداً هناك.

والآن يوجه حديثه إليَّ، يناهز عمره أربعين عامًا، ولكن الشيب كان قد كسا شعره بالفعل ولون عينيه بنى بندقى:

– اسمى مارتشيللو أليبراندى. أعمل طبيبًا، كنت أعرف أطفال عائلة باربالى.

وهنا خفت صوته كثيراً.

تختم نينا الرواية بقولها:

– على أية حال، لم يطلق الجنود الألمان النار، ولم يقوموا بمطاردة المزارعين الهاربين، وهذا معناه أن الخوف والتشاؤم وقليلاً من الإنسانية بدأت تتسرب حتى بين صفوف القوات الألمانية.

لقد شاهدت بعينى أموراً كثيرة تدفعنى إلى التحرك، سأذهب معهم.

– معهم إلى أين؟ إلى أين تريدين أن تذهبى؟

إن نينا لقادرة أن ترقص طوال الليل، وأن تغوى وتغرى كل رجل تلتقى به دون أدنى احتشام، وقادرة أن تنفق ثروة فى شراء ملابس سهرة، وحقائب أنيقة وقبعات وهذا هو أقصى ما يمكن أن تبلغه وهو سر سحرها. إلى أين تفكر فى الذهاب ليلاً مع رجلين من الجائز والمحتمل أنها عرفتهما لتوها؟

تبتسم نينا. تظهر عيناها متورمتين ولم يعد لون بشرتها مضيئًا غضًا كالماضى. ولكنها تتمتع بسلام وتركيز وهى تجيبنى، دون أية مبالغة، وإنما يبدو صوتها هادئًا متزنًا اتزان من عزم أمره واتخذ قراره.

– سنذهب إلى جبل أمياتا. توجد هناك مجموعات تدريب من فرق المقاومة من أجل العمليات فى ڤال دورتشا وفى الجروسيتانو.

– أنتِ؟ دعكِ من هذا الهراء يا نينا. ماذا تنوين أن تفعلى؟ تزحفين فى الغابة ومعكِ بندقية؟ تضعين قنبلة تحت الكوبرى وتتجولين ليلاً بدراجة حاملة الرسائل؟ وإذا قبضوا عليكِ، أستطلقين النار على غير هدى مثل جندى ألمانى؟

– ماذا تقولين؟ لا مجال للحديث عن هذا. أنا، فى الغابة؟ لن يحدث هذا حتى وإن ولدت من جديد. ولا نية عندى لأن أتعامل مع متفجرات، أو أن أطلق النار على أحد. فسأذهب لأقدم ما

أستطيع القيام به. إن أليبراندى على معرفة وثيقة بجسباردو وهو قائد من رجال المقاومة. كان ملتحقًا معه بكلية الطب قبل عشرين عامًا. صحيح يا أليبراندى أنك سوف تقدمنى لجسباردو؟ واحدة مثلى يمكن أن تخدم دائمًا. أليبراندى أيضًا متفق معى.

سنذهب لتقديم خدماتنا، بما فى مقدورنا أن نفعل. أليبراندى طبيب جراح وأنا أتقن اللغات. وأعرف كل الشخصيات الكبيرة ذات الوزن والثقل ولا أخاف شيئًا. أعرف كيف أتعامل مع الرجال، الإيطاليين والألمان والإنجليز، متزوجين أو عزاب. هذا رأى الجميع. حان الوقت كى أستثمر هذه الموهبة؛ ألا ترينها فكرة جيدة؟

انظر إليها فى ذهول. تلتقط نينا نظرتى وتنفجر فى الضحك.

– لقد فاجأتك، أليس كذلك؟ ما كنت تتوقعين ذلك منى، أليس كذلك؟ هذا هو لب الموضوع. يُذاع عنى أننى سهلة المنال ومغرورة وهذه أفضل الأقنعة التى يمكن أن أتستر وراءها. أليس هذا صحيحًا، يا أليبراندى؟ لابد أن نتخفى وراء ستار، حتى نكون فى أمان. عمومًا لقد أتيت إلى هنا كى أسلم عليكِ. وإن حدث وساءت الأمور، فقولى للجميع إننى أستحق وسامًا؛ وسامًا من الذهب وإلا فلا. ثم إنكِ فى منتصف الطريق، ياعزيزتى، ونحن قادمون

من فلورنسا ونموت من التعب. نود أن ننام بضع ساعات فى الأمان. هل تتكرمين بإعطائنا فراشًا؟ والقليل من الطعام؟

جهزت لهم غرف الضيوف. من الخطر أن أفعل هذا، لكنهم إن أتوا للبحث عنهم، فقد يجدونهم حتى وإن أخفيتهم فى مخزن القمح أو فى الكوخ. بعد أن ذهبوا للنوم، أقضى بقية الليل أجهز لهم بعض المؤن ليأخذوها معهم، زيت وجبن وبيض وبعض زجاجات النبيذ. لقد أثرت فىَّ جداً شجاعة نينا، وأرى أننا لا نعرف أبداً الأشخاص عن حق. أو ربما، علينا أن نعترف أن الأفراد يتغيرون، وأن خصالهم المختفية تظهر على السطح أو تغوص بصفة نهائية فى القاع حينما تصطدم بهم الحياة.

تصل باستمرار أخبار عن مذابح من كل أرجاء توسكانا. من أريتسو وبيستويا وفلورنسا ولوكا. يصب الألمان المنسحبون غضبهم على النساء والعجائز والأطفال، بشكل يتزايد يومًا بعد يوم.

نحن نعيش هنا خفية فى سان بياچو. أصيب أدو بالتهاب رئوى أدى إلى وفاته فى ثلاثة أيام، وحل ابنه، ماريو، محله فى المزرعة، بعد أن عاد من الجبهة فى حالة يرثى لها يستحيل معها أن يعود للقتال من جديد. وهو يعيش مختبئًا فى خزان المياه الفارغ. الخزان رطب ومليء بالفئران ولكنه مخبأ آمن. يقوم الألمان والفاشيون بتمشيط الحقول منذ شهور بحثًا عن رجال ثائرين متمردين لاستخدامهم فى أعمال ريفية ثم

بعد ذلك قتلهم رميًا بالرصاص أو نفيهم. لا نسمع غير حكايات من هذا القبيل. أمضت نينا سنين الحرب وهى تتظاهر بعدم الاكتراث، مثل كثير منا، ثم ودون سابق إنذار، أخذت قرارها. أعتقد أنه إذا سألناها ولا حتى هى نفسها تعرف كيف ولماذا قررت؟. فى وقت الحرب، نتعلم أيضًا أنه حينما يحين الصباح فأنت لا تعلم كيف ولا أين ولا إذا كنت ستكون موجودًا وقت حلول المساء.

لقد بقيت أمى وحدها. توفى والدى، بعد دخول إيطاليا الحرب بثلاثة شهور. لم يعد مثل سابق عهده منذ أن رحل أنريكو عن عالمنا، فقد نخر عظامه مرض السرطان، دون أن يلق منه أية مقاومة. بدا ذلك واضحًا جليًا أمام أعين الجميع.

تم تحرير فلورنسا، أول أمس.

لم يعد هناك وجود لمنزل أجدادى. وقالت لى إيريس إنه هناك حيث كانت توجد بوابة الدخول، يوجد الآن فتحة فى الأرض تنبعث منها رائحة كريهة لأن أغطية البالوعات قد اختفت أيضًا.

وتقول كذلك إنه إذا دققنا النظر بين الأنقاض فإنه لا تزال تُرى قطع من الخشب المذهب، من يدرى، ربما كانت بقايا المقاعد الصغيرة فى صالة الرقص، والتى لم ترد أمى نقلها؛ لأنها، على حد قولها، "قطع أثاث غير أصلية، لا يستحق الأمر عناء نقلها".

تكتب لى أمى من الفاتيكان وترجونى أن ألحق بها وتقول:– هنا نشعر أننا فى أمان أكثر.

لقد هيأ لها سيادة القس ڤينتورى فراشًا فى حجرة تشرف عليها الراهبات، وهى منذ شهور مقيمة فى حجرة مع عشر سيدات أخريات، وكلهن معهن أطفال. وماذا عنى أنا؟ أين أنا، طفلتها؟

هكذا قالت لسيادة القس ڤينتورى:– هل من الممكن أن أجعل طفلتى تلحق بى؟

فى نظر أمى، لا يزال عمرى عشر سنوات، وليس خمسة وثلاثين عامًا.

رفضت طلبها؛ فأنا هنا على خير ما يرام. حاولت أن أشرح لها أننى فى الفاتيكان لن يكون لدىّ ما أفعله، ليس لدىّ أطفال أقوم بحمايتهم وأنا فى حال أفضل فى هذا المكان. هنا يمكننى أن أكون مفيدة.

لقد قصفوا المدرسة قبل عام، ومنذ ذلك الحين وأنا أجعل من بيتى ملاذًا لمن يحتاج، ليس البيت على وجه التحديد، إذ كان من الممكن قصفه هو أيضًا، وإنما غرفة كبيرة تحت الأرض تقريبًا نطلق عليها "القبو القديم"، وهى واسعة، وجدرانها سميكة جدًا واستخدمناها أكثر من مرة كملاذ ضد الطائرات.

تحاول المدرِّسة أن تجعل الأطفال ينسون أننا فى حرب، وتدعى مارجريت وهى من فلورنسا ويملأ وجهها النمش.

لا أدرى إن كانت تنجح فى مهمتها هذه، ولكنها حينما تقوم بشرح التاريخ أو الرياضة، تبرق عيناها وتلمعان. إنها، بالنسبة لى، سعادة كبيرة أن أستضيفهم هنا. فى منتصف النهار أقوم بإعداد شرائح الخبز والزيت، وأحيانًا أخرى شرائح الخبز والسكر، فقط فى حال عيد ميلاد أحدهم أو حصول آخر علـى درجة مرتفعة، ثم أنزل لأقدمها لهم. وبمجرد أن يرانى، يجرى نحوى فيليب، أصغر الأطفال بالفصل، وقد بلغ لتوه ست سنوات، ويأتى من بعده على الفور متَّى وآنا، وعمرهما عشر سنوات.

ثم مارتسيا، إدالبرتو، ليديانو، باولو وچوزيبه الذى فقد ذراعيه قبل عامين بسبب شظية من قذيفة مدفع. أما الطفلتان الكبريان سنًا، لوريتا وماريا، فهما تتظاهران بأن الأمر لا يعنيهما، لعلهما تشعران بأن جريهما وراء الوجبة السريعة مثل الأطفال الصغار يقلل من شأنهما هما اللتان تبلغان الثالثة عشرة من عمرهما. أحيانًا أمكث معهم وأسمع الدروس، أو أجلس مع الكبار منهم وأحاول أن أعلمهم بضع كلمات بالإنجليزية، واحد، اثنين، ثلاثة، وفى كل مرة أندهش من سرعة تعلمهم. وتقول مارجريت:

- إنها الحرب التى أوجدت بهم الرغبة فى التعلم.

وهم يخافـــون من كل شىء فى الخارج، من القفز على لغم أو من سماع قصص لا تنقطع عن العنف والمخاوف فى حالة بقائهم بمنازلهم، أما هنا فالوضع مختلف. فهم يتعلمون القراءة والحساب، ويستمعون إلى قصص وحكايات رومولو وريمو أو كارلو الأكبر، هنا كل شىء يصبح تسلية ومتعة. من ذا الذى كان باستطاعته أن يقول إن الحرب بإمكانها أن تقدم خدمة للأطفال؟

لست أدرى إن كانت الأمور تسير على هذا النحو بالضبط. فالأطفال يأتون هنا بكل سرور بسبب وجودها هى أيضاً، مدرسة تعشق مهنتها، ذات عينين ذكيتين وتمتلك موهبة القص. وقد حولت قبواً رطباً إلى فصل مدرسى، حتى وإن غابت المقاعد والدكك والسبورة، ولسوف تترك أثراً لا يمحى فى ذاكرة هؤلاء الأطفال.

فى يوم من أيام شهر نوفمبر، تصل مارجريت إلى المدرسة وهى لا تقوى على الوقوف، تدخل الفصل بعد أن تلقى بدراجتها عند إحدى الزوايا وقد خلت عيناها من أى تعبير، كمن أصابه ذعر أو رعب. أدَعها تجلس، وأخرج الأطفال خارجاً.

أما هى فتحتج فى وهن وتقول:

– لا، لا، يجب أن ألقى الدرس. سوف يزول الأمر الآن، سوف يزول الآن. يجب أن ألقى الدرس.

لا أذعن لما تقول؛ فهى تحت تأثير الصدمة، وبعد برهة تغمغم أنهم قتلوا خطيبها. تشير إلى الحقيبة المصنوعة من النخيل والمليئة بالكتب، كان بداخلها خطاب مكرمش يحمل ختم الوزارة. لا حاجة لى أن أقرأه وأضم رأس مارجريت إلى صدرى وأربت على شعرها. نبقى هكذا، طويلاً. ودون أن أنتبه أخذت أهدهدها، إلى الأمام وإلى الخلف، ببطء شديد.

امتنعت مارجريت عن الكلام. واستمرت فى إلقاء دروسها حتى شهر يونيو، دون أن تفوت يومًا واحداً؛ لم تعد تبتسم، ولكنها لم تستسلم. فهم الأطفال وكانوا يتبارون فى استذكار دروسهم بشكل أفضل، فى تعلم عمليات القسمة أو فى حفظ وإلقاء الشعر دون ارتباك أو تشوش. لكنهم لم يعودوا يرون ابتسامتها. جاءت مارجريت تسلم علىَّ، آخر يوم فى الدراسة وقالت لى:

– سوف أترك التدريس. سأعود إلى فلورنسا، عند والدىّ؛ فالتدريس يتطلب رغبة داخلية وأنا لم أعد أرغب فى التدريس بعد الآن. حضرتك كنتِ على حق. الحرب لا تصنع أموراً حسنة، ولا تؤثر أحداً. ماذا بيدنا أن نفعل؟ هكذا سارت الأحوال.

لم أعد أركب خيلاً؛ فقد بقى لى فرس واحد وقد أخذوه منى. تبدو أشجار الكروم والزيتون فى حالة سيئة للغاية، ولم يعد هناك أحد يهتم بها، ولكننى أقول لنفسى إن الحرب ستنتهى إن عاجلاً أو آجلاً.

أتنقل بالدراجة، كما كانت تفعل مارجريت.

لا أعلم شيئًا عن تروت.

منذ ذلك المساء فى تورينو، منذ ذلك المساء قبل الحرب، لم أعلم أى شىء عنه منذ ذلك الحين. ربما تكون قد انقضت ثلاثون عامًا، وتلك الأحضان وتلك الأفكار هى الآن بعيدة كل البعد.

أقول لنفسى إن أهم شىء هو الصبر والاحتمال.

٢

انتهت الحرب.

نقل المذياع الخبر وجاء شباب المزرعة القريبة يطلبون منى أن أقرضهم السيارة حتى يتنقلوا بها من بلدة إلى بلدة يحتفلون ويستعملون آلات التنبيه ويطيرون العلم.

أعطيتهم السيارة المرسيدس، على الرغم من أنه كان بها قليل من البنزين وقلت لهم إنهم سيتوقفون فى الطريق، فى وسط الحقول. رفعوا

أكتافهم لأعلى وقالوا إن النتيجة واحدة. لا ليست النتيجة واحدة على الإطلاق؛ فمعنى هذا أنهم سيتوقفون وسط الحقول يهتفون بفرحتهم ويطيرون الأعلام بين أشجار الكروم.

لم أشعر أننى أرغب فى الذهاب للاحتفال معهم. تنقلت من مكان إلى مكان داخل أرجاء المنزل، أحرك مقعداً هنا وهناك، والتحف والآنية، والسجاد، كما لو كنت أريد أن أحتفل بالسلام عن طريق إزالة بعض التراب وترتيب أثاث المنزل، ولم أتوقف إلا عندما بدأ البَرَد يتساقط واضطررت أن أجرى لأغلق مغالق النوافذ.

إن حبيبات البَرَد تحدث تصدعًا فى الزجاج مثل القنابل.

انتهى الضجيج الذى يحدثه البَرَد، وأنا الآن وحيدة فى المنزل وفى هدوء تام، لقد انتهت الحرب، وهذا يعنى أنه ينبغى علىّ أن أتطلع إلى الأمام وأن أفكر فى المستقبل.

إنها عادة فقدتها؛ إذ قد عودتنى سنوات الهمجية والتوحش هذه أن أرشد حتى المستقبل فى شكل حصص أو جرعات صغيرة وهى طريقة أنيقة أقصد بها أن أقول إننى كنت أعيش يومًا بيوم.

والآن واجب علىَّ أن أنفض عن كاهلى كل إحساس أو معنى بالزوال والفناء وعدم الدوام وأن أعود لما كنت عليه من قبل، أن أشمر عن

ساعدىّ، من أجل خاطر أرضى الزراعية وأشجار الزيتون المنهكة ومن أجل القليل من الكرم المتبقى والذى يطالبنى بعناية واهتمام دؤوب ومستمر، لعلها تكون طريقة جميلة للاحتفال بالسلام ألا وهى الاهتمام بإنتاج النبيذ.

فى وقت لاحق، وعندما بدأ الظلام يحل، دخلت غرفتى وأغلقت بابها وفتحت صوان ملابس السهرة، خرج منه رائحة الكافور الممزوج برائحة العطن المثيرة للغثيان، آخر فستان على المسند، وهو المفضل لدىّ، عبارة عن قميص طويل من قماش الشيفون الأخضر بلون الخس وكله مطرز باللآلئ الصغيرة.

وأنا شابة كان يبدو لى وقتها أنه رداء باهر ذو جمال غريب، أنيق بشكل لا نهائى. ومما كان يجعله عزيزًا لدىّ أكثر فأكثر أنه لم يكن يعجب أمى، التى كانت تهز رأسها وتكرر مرارًا هذه العبارات: «من يرتدى اللون الأخضر، يخلع عنه مظاهر جماله»، وأيضًا «إن فتحة الصدر العالية جدًا لا تلائم المرأة»، وكذلك «إن تداخل بعض الأجزاء الشفافة مبتذل للغاية».

كان ثوبًا من جهاز عرسى، واحدًا من بين ثياب أخرى كثيرة، غير أنه كان يثير فىّ الذكريات بقوة مما يجعله مختلفًا، فى عينى، عن كل الثياب الأخرى.

كنت أتخيل أن ذلك الثوب كان ليجعل منى جنية صغيرة فى الغابات، أو نبتة الدَّفلى الصغيرة بأصابع من عشب اللورا، أو ربما شكلاً أبسط من ذلك بكثير، مجرد خسة صغيرة متحركة ترقص، فى خفة وعدم إعياء، حتى بزوغ الفجر، فى بستان عادت إليه الحياة بفعل سحر غير معلوم.

أما باقى ثياب جهاز عرسى، تلك التى اختارتها لى أمى، كانت عبارة عن كيلومترات من الأقمشة المهددة المتوعدة: قماش التافتاه الأحمر النارى الذى كان كفيلاً أن يصنع منى والكيرا وهى واحدة من الفارسات اللواتى يقررن مصير المعارك فى الميتولوچيا الإسكندنافية، وطقم رسمى من اللون الكحلى كنت بالتأكيد سأرتديه لإعطاء أوامر حادة لا تقبل النقاش، لا أدرى على وجه التحديد لمن، وكذلك ثوب من الساتان الأبيض كان ليعيقنى ليس فقط عن الرقص وإنما عن السير أيضًا وبه كل هذه الكمية من القماش وذلك التصميم من الثنيات والكرانيش والكشكشة.

لم أسقط فى مصيدة اعتبار أن اقتناء دولاب كامل من الملابس، كلها ملك لى، لهو دليل قاطع على كرم أمى، كنت أدرك تمامًا أن كرمها هذا يخضع لقاعدة اجتماعية محددة ومقننة وهى أننى كنت فى طريقى إلى الزواج وكان لابد من دخولى بيت ڤيللافورستا محملة بالصناديق والحقائب المليئة بالثياب لكل مناسبة، للصباح، لبعد الظهر، للعشاء،

للرقص، للمساء، وهكذا دواليك، وهذا كله للحفاظ على آداب المراسم وقواعدها والتقاليد المتعارف عليها. وكنت على وجه الخصوص أدرك أن أمى لا تختار لى ملابسى فحسب وإنما تلقننى، بفن وحنكة، مجموعة من التصرفات الاجتماعية الواجب علىَّ انتهاجها، هذا بينما كنا نشاهد السيدة الأولى فى مشغل ومحل خياطة الأخوات جامبينو وهى تتحرك بخفة حولنا وتستدعى عارضاتها للخروج علينا واحدة تلو الأخرى وهن يرتدين الموديلات المختلفة. كانت أمى تلقننى هذا السلوك لأننى كنت على وشك أن أترك مرحلة الصبا وما يميزها من الملابس التى ترفل فى أمتار وأمتار من الزركشة والتطريز والجوارب المصنوعة من القطن الإنجليزى؛ لاقتراب موعد اقترانى بڤيللافورستا، ومن ثم كان علىَّ تخطى هذه المرحلة والدخول فى مرحلة تميزها ملابس داخلية من الحرير الخفيف والرقيق جداً لدرجة أنها كانت تثير اضطرابى لمجرد ملامستها، وكأن حدسى ينبئنى بأن هذه الملابس كانت ستعبر بى إلى عالم آخر، غامض ومغر، مفعم بالدروب العثرة والجسور الهشة المعلقة أعلى وديان من البذاءات والأعمال غير المحتشمة.

كم كانت تكلفنى وقتها إطاعة أمى، التى كنت أحبها أيضًا بحنان بالغ، كم كان يكلفنى إدراك أننا متباعدتان إلى أقصى حد، نحن اللتان كنا أقرب ما يكون إذا تحدثنا عن علاقة الدم والمشاعر وحتى جسديًا؛ لأن لنا نفس لون الشعر الكستنائى الغامق والحواجب نفسها التى على شكل قوس غير قصير.

لكننى حسمت أمرى هذه المرة، ولا أنوى الاستماع إلى علل وأسباب، أصمم على رأيى وأتوسل وأشير إلى عارضة الأزياء ذات الوجه الصارم التى تتحرك هنا وهناك أمامى أنا ووالدتى ونحن غارقتان فى الأريكة المصنوعة من القطيفة.

وأنتصر.

أنتصر لمرة واحدة.

فى النهاية تخفض أمى رأسها، وتومئ بالإيجاب. ثم تستدير نحوى وتبتسم.

لقد استدر شىء ما عطفها، ولا أعتقد أن تكون نظرة مديرة المشغل التى تغض الطرف، بقدر ما هو خاطر رقيق، همسة عطف وحنان خالص، طفولى؛ إذ قد رأت نفسها فىَّ، هى الفتاة الأجنبية الجميلة التى راحت تبكى ليومين وليلتين متواصلتين ولا تريد أن تتعزى حينما تزوجت من والدى وانتقلت من فلورنسا إلى تورينو.

أحضر الساعى إلى منزلنا علبًا وصناديق للقبعات من الكرتون تبرز منها ملابس بديعة رائعة وابقى مشدوهة ومفتونة وأنا أنظر الثوب الأخضر.

على أية حال، لم أقم إلا باختيار ثوب سهرة، غير أننى أرى فتاة، متدثرة بذلك الرداء، الذى يميل لونه إلى الأخضر الفاتح، سرعان ما اضمحل هذا الإحساس، ولم يتبق منه سوى أثر طفيف أوشك على التلاشى ولكنه مع ذلك مستمر، مثل بعض أنواع العطور، ذات الرائحة المعسولة التى ترشها السيدة وودروف والتى تبقى لفترة طويلة فى حجرة الصالون، حتى بعد أن تغادرها.

إن صورة الفتاة التى تتخذ من أوراق الخس رداءً لها، وهذا هو بالتحديد ما يعجبنى كثيراً فى ذلك الرداء، اللون والخفة المطلقة، لهى صورة عزيزة على نفسى بدرجة غريبة، بل أكثر من عزيزة، فهى قريبة من نفسى ومألوفة.

نعم، بالتأكيد، إنه فقط مجرد ثوب من الشيفون ولكنه مطرز كله باللآلئ الصغيرة، وعندما تسقط عليه أشعة الشمس، أنتبه إلى أنه يضىء بفعل انعكاس الضوء، مثل القمر.

هذا هو الثوب الذى أرتديه فى باريس عشية لقائى بـ تروت.

هكذا بهذا اللون الأخضر المنثور عليه الضوء يرانى تروت لأول مرة.

من يدرى؟ ربما بدوت له هو أيضًا جنية من الغابات من يدرى؟ ربما من أجل هذا لم يشعر أبدًا بأية رغبة فى ملاحقتى. لا شك أنه فكر

أنه مجهود ومشقة لا فائدة منها، خشية منه ربما أن أتحول إلى عشب من أعشاب الغار، أو ربما كان يتخيل أننى سوف أهرب بعيداً جداً بحيث أفقد القدرة أنا نفسى على العودة من جديد.

لا يمكن ملاحقة شخص بعيد جداً.

٣

تنادينى نوڤيللا، زوجة ماريو.

– هناك من يريدك على التليفون.

– من يكون؟

– لا أعرف. لم أسأله.

أنزل لأسفل وأنا أشعر بالضجر.

أمقت المكالمات الهاتفية المفاجئة.

تمتلئ حجرة الصالون بأشعة الشمس، فنحن فى منتصف فصل الصيف. أتعرف على هيئة أمى النحيلة وهى ممدة على الكرسى الطويل، أغلب الظن أن النعاس قد غلبها. مرت علىَّ، وهى فى طريق عودتها من الفاتيكان، ومكثت عندى أسبوعين، ولكنها عقدت عزمها على العودة إلى

تورينو. وعلى الرغم من إلحاحى، فلا جدوى من إقناعها بالعدول عن رأيها وبقائها معى. قلت لها إنه لم يعد لها شىء فى تورينو، وفى الحال ندمت على هذه القسوة غير المقصودة منى.

كيف غابت عنى حصافتى ورقتى وحساسيتى؟

لست أنا الواجب علىَّ أن أذكرها بأنه فى البيت الكائن فى شارع ماچينتا، والذى علمت أنه ربما الآن يأخذ اسمًا جديداً، لم يتبق أى شخص، سوى خادم عجوز وأنچيلو الطباخ.

ترمقنى أمى بنظرة تنم عن مفاجأة، تلك النظرة الثلجية التى كانت تصيبنى بالشلل فى وقت ما والتى أعزوها اليوم فقط إلى أفلاكها وعوالمها الخاصة العميقة جداً والعالية كما هو حال السيدات الجميلات فى الغالب. تلوى شفتيها وهى تبتسم ابتسامة دهشة وتسأل بصوت خفيض:

– كيف تقولين إنه. "لم يعد لى شىء هناك؟ وأوراقى، وموسيقاى، وشئونى، وعمليات البيع الخيرية، والصديقات ولعبة الورق، هل حياتى هى لا شىء بالنسبة لكِ؟

عصر هذا اليوم، وهو من أواخر الأيام التى نقضيها سويًا، تتركنى أمى بمفردى، إذ سبق أن وجدتها ناعسة فى المقعد الوثير، وجهها فى الظل وأكتافها مستندة على النافذة.

لا أريد أن أستقبل المكالمة الهاتفية من التليفون الذى بجوارها، لا أريد أن أزعج نومها الخفيف.

منذ أن جاءت لتمضى معى بضعة أيام، وأنا أعاملها برقة متناهية.

لقد تقدم بها السن فجأة بعد الحرب، فى الماضى كانت تعتبر مجرد النعاس فى حجرة الصالون سلوكًا معيبًا لا يغتفر. بالتأكيد هذا يرجع إلى الشهور التى قضتها فى الفاتيكان، والنوم فى غرفة كبيرة مع عشر سيدات أخريات لا تعرفهن، وتغيير ملابسها وخلعها خلف ستار موضوع هناك بصورة مؤقتة دون سابق إعداد، أثناء الحرب يخلع الإنسان عن نفسه كل شىء، يخلع مظاهر حيائه وخجله وكذلك عوائده القديمة. أمر بالقرب منها وأعطيها قبلة خفيفة، أما هى فتمسح خدها دون حتى أن تغير من جلستها وكأنها تطرد ذبابة من أمام وجهها.

أذهب إلى المطبخ لتلقى المكالمة؛ فالشخص الذى اتصل يمكنه الانتظار. إن نوم أمى أهم.

أهم بالرد ولكن لا مجيب. أوشك أن أضع سماعة الهاتف، فالخطوط لا تزال سيئة، غالبًا ما يضيع الاتصال دون أى سبب واضح، ولكننى أسمع نفخة، لا تكاد تصل إلى حد النفس، مجرد صوت خفيف للغاية. أنتظر.

يقول الصوت:

– أنا، أنا هو، تروت.

أنسى وقتها أن أتنفس.

أعادت لى هذه المكالمة، الإحساس بكامل خفة الحلم، والأمل فى أن يتحقق هذا الحلم يومًا ما، جرى كل هذا فى لحظة واحدة.

٤

إن تروت موجود فى سيينا.

وهو ينتظرنى فى بانسيون ننينى حيث نزل.

أتصل بـ نوڤيللا وأرجوها أن ترعى والدتى، وقتما تستيقظ. ثم أركض إلى حجرة النوم وأبحث بشكل محموم فى ملابسى عن رداء يليق. لقد انقضت ست سنوات منذ آخر مرة رأيته فيها. لقد بلغت أعوامى الستة والثلاثين، وهناك خيط رفيع من التجاعيد حول عينىَّ وحول فمى.

لا يوجد فى دولاب ملابسى سوى كنزات صوفية وبنطلونات من قماش بسيط وقمصان على الطريقة الأمريكية.

أقول لنفسى إنه لا فائدة من تغيير هيئتى ومظهرى. وهذا هو ما أستمر فى ترديده على مسامعى وأنا أركن السيارة، أغلقها ثم أدلف من باب البانسيون الدوَّار، وأسأل عن تروت عند الاستقبال ثم أتجه دون أى تردد نحو المكتبة.

إن ما يُطلق عليه المكتبة فى بانسيون ننينى لهى غرفة ضيقة، ورق حوائطها على شكل خطوط ناحلة اللون. فى الوسط توجد طاولة مليئة بالمجلات، وبعض المقاعد المريحة المبطنة، وسجادة حمراء، وأشكال من الورود المطبوعة على الجدارن. وبخلاف النافذة، يمكن أن يلمح المرء شرفة خاوية تغمرها الشمس.

إنه يوم حار، ويعود بانسيون ننينى إلى استقبال أعداد من الأجانب الذين يبيتون فيه لفترة قصيرة.

انظر حولى.

أرى على المنضدة أيضًا صينية عليها زجاجتان أو ثلاث من خمر مصنوع فى المنزل، من النوع المعتدل أو ذلك المنقوع به حبات من الجوز، شىء من هذا القبيل.

تروت ليس بموجود.

أنظر حولى وأنا متحيرة.

هناك امرأة ورجل. هى تدخن سيجارة وباليد الأخرى تحرك قطعة من الورق على سبيل التهوية. أما هو فرأسه منحنية على جريدة وبالكاد يرفع بصره نحوى. أراقبه بعدم اهتمام، شعره قصير جداً على الطريقة العسكرية، ويبدو لى أنه مهمل فى ملابسه.

أخرج وأتوجه ناحية مكتب الاستقبال كى أستفسر عن الأمر، وفى ذلك الحين أسمع أحدهم ينادينى فألتفت. نهض الرجل واقفًا، وظل بلا حراك وسط الغرفة وهو يكرر، بهدوء، اسمى. هذا هو ما وجدته فى بنسيون ننيني: رجلاً يرتدى قميصًا أزرق وبنطلونًا بيج، ازداد وزنه بشكل طفيف، وخلفه شرفة تغمرها الشمس ونبات الياسمين الأبيض المتسلق على شكل دائرة، وصمت شبه مقدس، وأنا، من انتظرت هذه اللحظة طوال ست سنوات، لم أتعرف عليه، ولا أقوى لا على التفكير ولا على قول كلمة واحدة، بل أشعر بأننى تحت وطأة الفراغ والصمت، وعدم تعرفى عليه الذى يبدو لى وكأنه خيانة، وقد أضنانى الذهول وأحسست بالتأثر من اضطرابى، من اضطرابنا، ومن هذه الحقيقة المعلنة والأليمة التى نختبرها، وهى أننا لسنا كما كنا من قبل.

قطب وجه تروت.

يقول، دون أن يبتسم:

– سلام.

ها هما، الواحد فى مقابل الأخرى، هذان العشيقان الخفيان اللذان لم يتقابلا سوى أمسية واحدة، ومع ذلك ظل كل منهما يتذكر الآخر، هذان الاثنان اللذان كان يبحث كل منهما عن الآخر بعينيه، قبل الحرب، وسط جمع من المدعوين واللذان يتظاهران، فى هذا المساء شديد القيظ، بأنهما لا يزالان يتحابان ويرغب كل منهما فى الآخر؛ لأن هذا الماضى التافه الذى لا يرقى إلا لمستوى المجلات الرومانسية، ويجدر بنا أن نعترف بهذا! هو كل ما يملكانه.

ينظر كل منهما للآخر فى عينيه، ولكنهما فى الواقع ينظران إلى ما وراءهما وتنم نظرتهما عن خواء وارتياع. تبدو المكتبة الكائنة بـ بنسيون ننينى صغيرة للغاية حتى تستوعب ارتباكهما واضطرابهما.

لقد انتظرت إيماءة، خطاب، كلمة طوال ست سنوات. ست سنوات.

– قدم لى سيجارة، لو سمحت.

هذا كل ما أستطيع قوله.

خمس كلمات بسيطة، تظل تطفو تائهة شاردة، عالقة بالهواء، مثل ذلك الغبار الذهبى الذى يتراقص فى حزمة ضوء الصيف.

يومئ تروت. يمسك بيدى ويقربها من شفتيه. نظرته فقط هى التى بقيت على حالها، وهذا فى حد ذاته يكفى.

– تعالى هنا. اقتربى أكثر.

جلس على حافة الفراش، غير أننى بقيت واقفة. أشاهد ملابسى وهى تقع أرضًا دون جلبة. أشاهدها كما لو كنت لا علاقة لى بها. يلامس تروت أكتافى ثم يقبلنى.

أتركه يمرر أصابعه ونظره على جلدى وأن يقبل وجهى كله وفمى وعينى وجبينى.

فى الصمت.

عينا تروت.

أرتجف دون أن أدرك.

أرتجف من الرغبة.

كان باستطاعتى الهروب معه منذ سنوات طويلة. كان باستطاعتى إبعاد المقعد عن مائدة السفرة، وترك المنشفة بعد الطبق الأول أو الثانى، كان باستطاعتى أن أتأبط ذراع صديقى، صديقى ذى العيون المضطربة، وأن أخرج معه من ذلك البيت الكائن بشارع كامبون، تحت بصر زوجى غير المكترث فى ازدراء، وبالطبع، تحت بصر كل الآخرين الذين يجدون فى هذا متعة لهم وتسلية أكثر من استنكارهم له.

كم هو غريب أنه فى بعض الأحيان يتطلب الأمر نفس القدر من الشجاعة والطيش والتهور للاستحواذ على ما يرغب فيه المرء بشدة!

وقتها كان كل شيء يحبذ تحديد ثمة موقف ويستلزم تحمل مسئولية معينة، ويلزمنا باختياراتنا.

لقد سلب كل منا الآخر، أنا وتروت.

ومن أجل هذا أنا الآن محبطة تماماً.

إن أمى على حق، حينما تقول: إننا لا نعيش أحداثًا تراچيدية وإنما نصاب فقط بحالات من الإحباط وخيبة الأمل والندم.

أدرك أننى على وشك أن أبكى. أتمنى ألا يلحظ تروت هذا.

لا داعى لأن يرانى وأنا أبكى فقد كان أنريكو يقول فى صوت رتيب:

– يا لكِ من صريحة جداً وبديهية!! فكل الفتيات يبكين.

كانت ميس وودروف لتقطب أنفها دليلاً على امتعاضها. أخفى رأسى تحت الوسادة. كان أبى يقول دائمًا إن لدىّ وجهين، مثل الميداليات، أبكى بوجه وأضحك بالآخر. وأقول لنفسى، الآن أُظهر الوجه الذى يضحك.

مارسنا الحب على عجلة، كما وإن كانت صفارة الإنذار على وشك أن ترن بين الحين والآخر، ولكننا بقينا متعانقين لفترة طويلة. لا يُسمع أى ضجيج سوى طنين ذبابة كبيرة دخلت من النافذة، ذبابة كبيرة غبية للغاية لدرجة أنها ظلت تتخبط فى الزجاج، دون أن تفهم أين هو المنفذ للخروج.

قرأت ذات مرة أن حياة الذبابة لا تدوم سوى ساعات قليلة.

– إن الذباب يعيش ليوم واحد فقط. على الأرجح، يولد فى الفجر ويموت عند الغروب. من يدرى إن كان الأمر كذلك بالنسبة للذباب الكبير. أتعتقد أن الذباب الكبير والذباب الصغير ينتمى لنفس العائلة؟ أتعتقد أنها مسألة أحجام فقط؟

– ما هذه الأسئلة التى تسألينها؟

لا أدرى ما هذه الأسئلة التى أسألها. ألتف حول نفسى تحت الملاءة.

– إنه يتطاير هنا وهناك. ويحمله الهواء فى كل مكان. أتتخيل كم هى مشحونة ومليئة. حياة الذبابة؟!

- ينهض تروت ليفتح النافذة على مصراعيها.

تطير الذبابة الكبيرة بعيداً. ويقول تروت متهكماً:

– على الأقل هكذا لا تضيع وقتها هباءً معنا. فأمامها وقت قصير لتعيشه، إنها السادسة مساءً.

نظرة تروت يصعب فهمها، وبالنسبة لى، فكل ما يتعلق بـ تروت طلاسم يصعب فهمها لسبب بسيط وهو أننى لا أعرفه جيداً.

أقول له هذا.

يضحك، وبنبرة صوت خفيضة يسألنى، دون أن يكون راغبًا فى سماع إجابة.

– كيف تقولين إنكِ لا تعرفيننى؟

لابد وأنها حارة أيضًا ليلاً، هذه الغرفة الموجودة بالطابق الأخير، تحت السطح. قبل الحرب، كانت تصل أفواج من السائحات، وبصفة خاصة الإنجليزيات مديرات منزل أو معلمات بالمدرسة النهائية وقد أصبحن على المعاش، بفضل الأسعار الزهيدة وورق الحوائط المنقوش على شكل زهور. بالتأكيد، أولئك الآنسات ذوات الألوان الهادئة الناعمة، بعد أن أغلقن باضطراب مزلاج حجرة النوم، قد أضناهن مشاهدة برج كاتدرائية الـ دوومو الذى يعلوه الجرس، وكذلك هذه الشرفات الإيطالية، الرومانسية للغاية، مثل شرفة چولييت؛ فكل هذا يبدو لهن ذا طابع إيطالى صميم. يجول بفكرى ألف خاطر من هذا القبيل؛ لأن تروت وأنا

ليس لدينا ما نقوله ولابد من ملء هذا الصمت، أفكر فى أمى وصوتها الحاد، وهى على استعداد دائم لتوبيخى، وإلى كيفية تبرير عدم قضائى هذا العصر معها على غير توقع، دون إخطارها مسبقًا على الرغم من معرفتى أنها تتضايق من التغيرات التى قد تطرأ على البرنامج اليومى، ومن الأحداث المفاجئة؛ لأنها تخشى من خروج الموقف، أى موقف، عن سيطرتها. وقد حدث لها هذا بالفعل؛ فقد فقدت أبى وأخى. لقد انسابا من بين يديها، ويقينًا تعذب أمى نفسها؛ إذ تتساءل كيف عجز حبها وحنانها عن الإبقاء عليهما؟ وكيف تمكن الموت من أن يكون وقحًا إلى هذه الدرجة وصلب الرأى عنيدًا إلى هذه الدرجة؟

أقول لنفسى، هكذا سارت الأمور.

لا أحد يستطيع أن يختار كيف يجب أن تسير الأمور.

ولا حتى أنا.

ثم يلتفت تروت وينظر إلىَّ ويقول:

– حتى هذه اللحظة، لم أدرك أننى أرغب فى البقاء، وأحتاج إلى مكان للإقامة. أيمكنك استضافتى لبعض الوقت؟

هكذا. يقول هذا الأمر هكذا. هل من الممكن أن تُقال هكذا أمور مثل هذه؟

يقول تروت أيضاً:

- أحبك.

(أو يقول: حبيبتى، أو: يا كنزى، ها أنت هنا. أو ربما: أحبك لدرجة الجنون، أو لعله لا يقول أى شيء على الإطلاق، غير أننى مع ذلك أسمع كل هذه الكلمات. ليست هى بكثيرة الكلمات التى يمكن سماعها خلال الصمت).

أجيبه:

- لقد انتظرت رسالة أو مكالمة هاتفية طوال ست سنوات.

لا أقول المزيد، أنهض، أذهب للحمام لارتداء ملابسى ثم أخرج. أغلق باب الحجرة برقة، منتبهة إلى عدم إحداث ضوضاء، ويحدث المقبض المعدنى وميضاً فى الدهليز المظلم؛ إذ يتسلط عليه شعاع الشمس.

لم يحاول تروت حتى أن يستوقفنى.

أعود إلى المنزل يتملكنى إحساس بأننى ابتعدت عنه لأيام وأيام، ربما لأننى كنت فى جولة حول العالم، وعلى العكس لم يتعد الأمر سوى بضع ساعات من العصر، وإن كانت طويلة، ممتدة، كالحد الفاصل، كالحاجز، بل أكثر من ذلك، فهى وقفة عميقة لم يكن من الممكن تداركها أو تجنبها.

تركت تروت هناك، تلفه الملاءة البيضاء وهو ينظر إليَّ محدقًا، وعلى شفتيه شبه ابتسامة ولكن دون أن ينبس بكلمة واحدة.

٥

ألف وأجول فى البيت كالحيوان فى القفص. يقيم تروت منذ أسبوعين فى بانسيون ننينى ونلتقى كل ليلة. أحيانًا أنام عنده، ساعات قلائل من النوم المتقطع؛ لأننى مضطرة أن أعيش حياتى فى الخفاء، أن أخرج من البيت فقط حينما تنام أمى وأن أعود قبل الفجر بحيث لا تنتبه إلى الأمر. إن چوليانا ننينى، صاحبة البانسيون، امرأة شجاعة. قُتل زوجها، لورينسو، عام ١٩٤١، إثر طلقة من مدافع الإنجليز والأمريكان، ومع ذلك لم تفقد ثقتها التى لا تخور فى الحلفاء. تكره الألمان من كل قلبها، وحينما قال لها تروت بإنه نقل العديد من المعلومات المهمة إلى قيادة الحلفاء، لم تتردد لحظة واحدة فى إعطائه غرفة خلفية صغيرة، يمكن الوصول إليها من الفناء. لا يزال يجثم على مدينة سيينا جو كئيب. خلف الخوف رائحة تشربت بها الحوائط والجدران، وتخيم على الضواحى والريف. كانت السنتان الأخيرتان من الحرب قاسيتين جداً. كانت الطائرات الأمريكية لديها أوامر بضرب كل ما يتحرك فى الحقول. بتينا، أخت ماريو، ماتت هكذا. كانت قد ذهبت لتأخذ بعض الزيت للمصباح من مزرعة الجيران، وكان ذلك فى إحدى الأمسيات التى بدت

هادئة. حتى الآن، وبعد انتهاء الحرب، تمسك النساء جيداً بأولادهن الصبية، فهم فتية يسيطر عليهم غضب الكبار وعدم إدراك الصبيان الصغار والأمهات لا يزلن يحملن الخوف فى قلوبهن. كان انسحاب الألمان عبارة عن حمام من الدم. فى خلال خمسة شهور، حدثت مائتان وثمانون مذبحة للمدنيين فى حوالى ثمانين بلدة فى توسكانا، فى الغالب تقع على جبل من جبال الألب. يقول ماريو إن القتلى قرابة الخمسة آلاف.

لقد عشنا فى رعب لزمن دام أكثر من اللازم. هناك من يعانى الجوع، ومن فقد كل شىء، ومن لا يملك شيئًا آخر ليفقده، وهذا هو الحال هنا فقط، فى هذا القطاع من الأرض الذى أعرفه وأحبه، والذى تحوطه التلال وكأنها إكليل. يروى تروت إن الشمال يماثل الجنوب، وإن أوروبا الآن عبارة عن كومة من الحطام والأنقاض والألم، وإن بيتى فقط هو قطعة من الجنة لم تطلها القنابل ونجت من العذاب، ولا أحد يدرى لماذا. لما ماتت بتينا، لم ينم ماريو ولم يأكل ليومين، وكان يكرر فى عند وإصرار على مسامع زوجته التى تحضر له القليل من الحساء، ويقول دون أن يذرف دمعة واحدة:

– خبزى هو الألم، نوفيللا، بعينى وشأنى.

كانت هى التى تبكى دون تعزية. وأنا أحاول أن أسرى عنها. وكانت تقول وهى تنفخ من الغضب:

– ألا تفهمين، ياسيدتى الكونتيسة، أنه لا ينجو ولا واحد هنا؟

لم تبرح هذه العبارة ذهنى، وإنما بقيت تطفو على السطح، وكأنها تعليق من تعليقات السينما، لا ينجو ولا واحد، ولا واحد.

لا يتحدث تروت عن نفسه، وأنا أتردد فى أن أسأله. فقد تعلمت أن أخشى الإيضاحات مثلما أخشى الصمت. لا يتحدث عن أى شىء على الإطلاق، فى الحقيقة. أشعر بقلقه بين الحين والآخر، ولكن لا أعلم مم ولا لماذا يقلق. ثم نمارس الحب ليلاً كمراهقين، دون أن نهدر ولا دقيقة واحدة فى الكلام، تمامًا مثلما يفعل أولئك الذين يحسبون وقتهم بالدقيقة والثانية، وهم العشاق ومن يتوارون عن الأنظار، وفى كل مرة يكون لحبنا مذاق مختلف. فأحيانًا يكون عنيفًا، ويضمنى إليه تروت بشدة حتى يؤلمنى وحتى يرى إن كانت عيناى تنمان عن الخوف، وأحيانًا أخرى يكون حبنا عذبًا حنونًا، ويسلم هو نفسه فى حنان طفولى يثير العطف. تحتوى الغرفة الصغيرة فى الطابق الأرضى ببانسيون ننينى على نموذج كامل من الانفعالات الإنسانية، وهى محفوظة بداخل الغرفة حتى نجدها، تروت وأنا، ثمينة وسليمة كما هي فى انتظارنا نحن وليس سوانا. وحينما أسأله، بين الحين والآخر، عن زوجته وعن ابنته، يجيبنى بإيماءة تصحبها واحدة من نظراته تلك الطويلة الصامتة، التى أعجز عن فك طلاسمها. ويكتفى بقوله:

– إنهما تعيشان فى فرنسا؛ فالأمور لم تعد كسابق عهدها. لم تعد إيناس قادرة على الحياة معى. إذن، لقد انفصلا برغبتهما، فلم تعد إيناس مغرمة بتروت، هل سارت الأمور على هذا النحو بحق؟

لقد تغير كل شىء فى هذه السنين، ودمرت الحرب كل شىء، ولم تكتف بإخلاء المدن، وزرع القنابل بالحقول؛ قنابل انفجرت وقنابل لم تنفجر، حتى من قبع منا فى البيوت الصيفية، على جبال الألب، وفى الفاتيكان، أولئك الذين تظاهروا بأن هذه الحرب هى كمثيلاتها الأخرى، واحدة من تلك الحروب التى تُدرس فى الكتب والتى يتم التقاتل فيها بالبنادق الصغيرة، حتى أولئك سلموا فى النهاية واعترفوا بأن هذه الحرب كانت بمثابة السم الذى تسلل إلى الرئتين.

لقد أسفرت الحرب عن باقين على قيد الحياة. فلا هم مصابون ولا هم ناجون من الجراح، هم باقون على قيد الحياة فحسب. إنه واقع مختلف، وجديد، علينا أن نتعامل معه ونتحسب له.

يشك تروت فى كل شىء، فى نفسه، فى مشاعره، ولا يدرى ولا يعلم أى شىء، فهو يضع مقدمة المركب فى مواجهة الرياح، وينتظر ليعرف أين سيكون من المناسب أن ينعطف ويميل. وسط هذه الحيرة والشك تذكر فتاة ليست سهلة المنال ولكنها متألمة، ربما كان بينهما شىء ما. إنها ذكرى مهزوزة وغير محسوسة، ذكرى زمن سلام بعيد جداً لدرجة

أنه يبدو مصطنعاً مثل بعض المشاهد المسرحية، أو لدرجة أنه لم يوجد أبداً فى الأساس، زمن من الخيال، خيالى، فهل قابلها بالفعل، تلك الفتاة، ولكن أين قابلها؟ في المسرح، فى أحد معارض "جورتشينو"، أم ربما فى الأوبرا، أو عبر الطريق؟ أم قابلها فى حفل استقبال، أما هى فتبدو نظرتها زائغة شاردة، وإنما هى فى الحقيقة نظرة فارغة؛ لأنها اختارت، لا، لم تختر، وإنما قُدر لها، أن تحمل على عاتقها عذاباً هائلاً ولكن تحتويه قبضة يد واحدة، فلا يُرى من الخارج. هل انتبه تروت إلى مقدار الغطرسة والخيلاء، اليوم، فى ارتداء الفراك لتناول العشاء خارج المنزل، وإرسال شخص ما إلى محل الزهور ليبتاع قرنفلة أو زهرة الجردينيا ليثبتها فى عروة السترة؟

ومع هذا، تقول لنا الذاكرة إن هذا هو بعينه ما كنا عليه، وتغمرنا حسرة نعجز عن محوها. ربما كان هناك بعض من الحرج، وقليل من العار والخجل، وانزعاج أكيد، فأين اختفى، عالم بأكمله؟

يظن تروت أنه يحبنى ويريدنى، إنما يختلط عليه الأمر بينى وبين تلك الذكرى، ولا يعلم، ولا يفهم، أنه لا يسعى ورائى أنا بل يسعى وراء ذلك الرجل ذى الشعر المعقود للخلف والنار فى عينيه والتى ليست إلا حبه لذاته، حبه للثلاثين عاماً، وحبه لمائة، بل ألف حياة جديدة تفتح له ذراعيها. من أجل هذا، جاء إلى هنا بحثاً عنى؛ لأنه على الأقل أنا، بولائى وإخلاصى له، أعيد له هذه الصورة التى لا يعثر عليها فى أى

مكان آخر؛ فأنا بمثابة مرآة يرى فيها الشخص الذى اعتقد فى الماضى أنه هو. ينسب إلىَّ تروت قدرة سحرية أنا لا أملكها. ولا أستطيع أن أقوده من جديد لذاته البعيدة تلك. إنه يسىء فهم هذا القصور الموضوعى، فلا أحد منا يمكنه أن يعود إلى ما كان عليه قبل الحرب، فلماذا لا يفهم هذا؟، ويفسره على أنه نقص فى الحماس. فهو يجدنى ذابلة باهتة، مستسلمة، مختلفة للغاية، أين توارت وخبت المرأة الشابة التى يلفها معطف من الساتان، وتنساب من الباب الدوّار فى أحد المطاعم الحديثة؟

ينبغى أن أجهز حقائب أمى لأنها غداً سوف تعود إلى تورينو، إذ يمكن أن تقلها نينا التى تنوى الذهاب إلى تورينو لاختيار سيارة جديدة، عملية ومريحة هذه المرة، ولا أجد صعوبة فى ذلك، بل إننى أجهزها فى سرعة. ثم إننى أستفيد للصعود إلى أعلى البرج. وهو مكدس بالصناديق، والمقاعد المنقوبة وأغراض أخرى، إلا أنه عند التمكن من المرور من خلال هذا الكم الهائل من الأشياء التى لا قيمة لها، فالمكافأة هى نافذة صغيرة مستديرة، أعلى درجتين من السلم، تنفتح على شرفة صغيرة ضيقة وطويلة. المنظر من هناك يحبس الأنفاس، أراضٍ زراعية وحقول منظمة، مساحات من الغابات تتحول إلى اللون الأزرق والرمادى المائل للزرقة لأن الشمس وهى تغيب قد غطتها بالظلال. كان يوماً شديد

الحرارة، مضيئًا، ودائمًا ما أفاجأ عند ملاحظة كيف أن نور الغروب الناعم يعيد للمنظر عمقه وألوانه الكثيرة المليئة بالظلال والفروق فى الدرجات، بل إنه يخفف من حدة النهار وضجيجه ويُعد كل شىء لسكون الليل. من يدرى كم من الوقت أظل هكذا، شاردة أداعب بعينىّ هذه البانوراما الممتدة أمامى، ولا يبرح التفكير فى تروت أعماق نفسى. كم كنت أود رؤيته يظهر من جديد فى حياتى من أجلى فقط، دون أى سبب آخر سوى ملاقاتى، وليس من أجل الاختباء مثل هارب يتخفى. خائف، جبان، ضال الوجهة وتائه.

٦

يرحل تروت متجهًا إلى فلورنسا. قال لى إنه سيستقر هناك، حيث المكان أكثر أمانًا. روى لى إن أعماله ساء بها الحال وليس هناك ما يربطه بباريس، بينما فى فلورنسا، كلفه ثرى أمريكى بمهمة يعلم جيداً أنه يمكنه القيام بها بكفاءة. ولما أسأله عن طبيعة هذه المهمة، يحرك يده بما معناه، أنها تفاهات، أمور لا قيمة لها، ونظراً لإلحاحى وإصرارى أتمكن من أن أدعه يقول لى إنه مطلوب منه أن يقوم بتجميع قطع من البرونز، أو من الفخار، لوحات مرسومة، رسومات جدرانية منفصلة، كل ما يجده.

يقولون فى أمريكا إن حتى القساوسة والراهبات الخادمات فى ريف إيطاليا يقومون ببيع قماش حجرة أوانى الهيكل لكسب بعض المال.

يحلم الثرى الأمريكى بحلم وهو امتلاك مجموعة من القطع مثل تلك الموجودة بالمتاحف. وهو يملك وسائل اقتصادية ضخمة وصناعات ميكانيكية، ازدهرت جداً فى زمن الحرب، وفى سنوات قليلة حظى بمكانة اجتماعية وبمنزل جميل فى شيكاجو، لم يتبق سوى تأثيثه من أوروبا. جمع الأمريكى بالفعل فى القبو عشرات وعشرات من زجاجات النبيذ الفرنسية والإيطالية من أجود الأنواع، واشترى لزوجته الماس من صنع هولندا، ولكنه يحتفظ به فى خزينته. وهو الآن يسعى وراء أعمال فنية إيطالية قيمة، غير أن أعماله لا تمكنه من السفر لذا فهو مضطر رغماً عنه للبقاء فى أمريكا. وحينما يقابل تروت الذى يتمتع بذوق لا ريبة فيه وعين متمرسة خبيرة، يجد حلاً لمشكلته، وبالمال الأمريكى، سوف يأخذ تروت شقة صغيرة فى فلورنسا كمقر لاكتشافاته، ويكفيه سنة أو أكثر بقليل، فالثرى الأمريكى على عجلة من أمره لأنه يريد أن يفتتح منزله مقيماً حفل استقبال تتحدث عنه المدينة كلها، بمناسبة زواج ابنته المخطوبة بالفعل. يحاول تروت جاهداً أن يشرح له أن تجميع هذه القطع والأعمال الفنية يحتاج إلى وقت وليس إلى المال فقط، إلا أن الأمريكى، الذى لا يتحدث كثيراً، يختصر الحديث قائلاً إن هذا المبدأ يتماشى فقط مع من لبس معه المال.

طلب منى تروت أن أصحبه إلى فلورنسا، فطلبت من ماريو أن يفحص المياه والزيت وإطارات السيارة. يرغب تروت فى أن نسير عبر التلال، ويختار الطرقات التى بها منحنيات ضيقة ومرتفعات بين حقول الكروم، حيث لا يعبر سوى بضعة فلاحين. بينما يحضر ماريو السيارة، أقترح على تروت القيام بجولة حتى مونتيتى.

احتج تروت:

– الآن؟ نحن على وشك الرحيل.

– لا يزال هناك بعض الوقت، لم تحن الساعة الخامسة بعد. سترى مفاجأة ومنظراً رائعاً.

إنها نزهة على الأقدام لمدة ربع الساعة، أعلى درب منعزل يفصل بين حقول الكروم. يلقى التل بظله على الطريق بمنحنياته البطيئة ويافطات مطعم صغير بطول السكة. إنه يوم من أيام نهاية شهر أغسطس، أشجار الكروم مثقلة بالعنب ويتزايد الأمل فى سقوط الأمطار. وجود بعض السحب فى السماء، بعد حر الصيف، يعتبر هدية.

ينظر تروت حوله ويتعجب.

– إنه لشىء مذهل كيف أن الطبيعة التى تعيد للذاكرة أعمال ليوناردو داڤينشى لا تموت أبداً، فى هذه المناطق، وكيف أن الحضارة لم تستطع خدش جمال هذه الطبيعة.

وأجيبه:

– ولا حتى الحرب، بكل ضراوتها.

يلاطفنى تروت على وجنتى ويقول:

– يروقنى النظر إلى شىء لم تستطع الحرب إفساده، وأنتِ أيضًا لم تتغيرى.

– أرأيت؟ لقد قلت لك. أعرف دروبًا تعطى متعة خاصة للنزهة. يطيب العيش هنا.

أخذ يضحك ثم سألنى مازحًا:

– أتقترحين علىَّ أن آتى لأعيش معك؟

أجبته:

– لم لا؟

– اسمعى، لست أدرى. أنا الآن هنا. لا تفكرى فى الغد.

– هل سترحل مجددًا؟

– تذكرى أنك وعدتنى بأنك لا تريدين أى شىء منى. وبأنك لن تسألينى عن شىء البتة. لا تنسى هذا، من فضلك.

– يمكنك أن تنتقل للعيش هنا. المرة القدمة سوف أصحبك إلى لاجواكواتو. سنذهب بالخيول.

– تعالى أنتِ إلى فلورنسا.

– لا أستطيع. فعليَّ الاهتمام بمصالح العزبة. إنه بمثابة العمل بالنسبة لى، هل تفهم؟

– عمل؟ أنتِ حتى لا تعلمين ماذا تعنى كلمة عمل.

بدا تروت أكثر صرامة، واستطرد:

– أنتِ تثرثرين، تركبين الجواد، وتصلحين شيئًا ما هنا وهناك، دون أى تخطيط ودون حزم. أنتِ على قدر من الثراء يتيح لكِ أن تحافظى على عزبتك، على هذا النحو. وهذا ليس بعمل. فأنتِ لست بحاجة إلى أرضك الزراعية إلا كى تشاهديها من النافذة، تستخدميها كمنظر طبيعى جميل، كما كان الحال دومًا من حولك.

– كان والدى يقول إن الأرض الزراعية تجعلك تخسر المال ولا تجعلك تربحه.

– وهو محق. كل أمثاله خسروا مالاً. وسوف يحدث لكِ هذا أنتِ أيضًا. عندما ينفد منكِ المال ستقومين ببيع قطعة أرض، ثم قطعة أخرى وهكذا.

أنظر إليه فى دهشة؛ فهذه أول مرة يكلمنى فيها بهذه النبرة.

يستطرد تروت بصوت أكثر نعومة وهو يسدل جفونه:

– كم تدر عليكِ العزبة من ربح؟

– لا أعرف... لا أعرف إن كانت تدر علىَّ ربحًا.

أرى أنها تكلفنى...

– أترين؟ أنتِ لا تعلمين شيئًا، وتحتاجين إلىَّ.

ودون أن أستدير قلت له:

– لا أعلم شيئًا وأحتاج إليك. بالضبط هكذا.

لكنى أعتقد أنه حتى لم يسمعنى.

لم نتبادل الحديث طوال الرحلة. فى فلورنسا، تركنا السيارة وقال تروت إنه يعرف مقهى توجد به قاعة خاصة.

– انتظرينى، لن أتأخر كثيراً، لابد أن أرى صديقًا، يساعدنى فى الاستدلال على ما أبحث عنه.

– تاجر عاديات؟

– شىء من هذا القبيل.

ثم بادر بإشارة تحية لرجل ضخم، وجهه طويل وسمين. ابتعدا سريعًا وهما ينزويان عند الناصية، بينما اقتربت أنا لأطلب ماء وليمونًا. وبعد نصف الساعة، ظهر تروت من جديد بمفرده وعلى وجهه ابتسامة.

– عودى إلى "المجمية"، قبل أن يحل الظلام. فالطرقات ليست آمنة ليلاً.

أشعر بالحزن. يؤسفنى أنه قرر العيش فى فلورنسا، غير أننى لا أريد أن أطلب منه أى شىء، كما وعدته.

افترقنا بعد عناق سريع، مشحون بالعطف والحنان.

يقول لى تروت وهو يضمنى إليه بقوة:

– عودى لزيارتى.

– نعم.

– بعد أسبوعين. سأنتظرك هنا. لنتقابل بعد العصر.

– أعدك يا تروت.

أركب السيارة إلى جوار ماريو والدموع تملأ عينى، وانظر من نافذة السيارة. لا أريد أن يرى ماريو كم هو صعب علىّ الانفصال عن تروت.

انقضت الأيام فى سرعة خاطفة، أسبوعان كل شيء، وها نحن فى شهر سبتمبر. أستعد بعناية للذهاب إلى موعدى مع تروت، أريد أن أكون جميلة ومغرية كما لم يرنى من قبل. أطلب من ماريو أن يتركنى أمام المقهى نفسه. تروت ينتظرنى ومعه لفة تحت ذراعه.

سألته لمجرد السؤال:

– ما هذا؟

– كتب.

– من أى نوعية؟

– كتب وجيزة. حديثة وأخرى عتيقة. مجموعة صغيرة لكنها ثمينة.

– مجموعة مختارة؟

– أحضرهم لى صديقى، إنها لكِ.

– دعنى أراها .

– لا . انتظرى. إنها هدية، ولكن أولاً يجب أن تعدينى بشىء.

– أخبرنى.

– أتوافقين على بذل الجهد والتعب؟ على الدراسة والفهم وتحمل إحباطات، ولكن بالأخص على عدم التعجل وإنما التحلى بالصبر؟

– لست أدرى، أتخيل أنه يمكننى أن أفعل هذا... إن كان الأمر يستحق.

– الأمر يستحق، ثقى فىَّ.

– إذن نعم.

– امسكى يا حبيبتى، اقرئى، ادرسى، إنها أفضل الكتب التى نشرت بخصوص هذا الموضوع.

إنها أول مرة أتلقى فيها هدية منه، اللفة بداخلها خمسة كتب، كتابان طبعتهما عتيقة وثلاثة أكثر حداثة.

ثلاثة كتب باللغة الفرنسية، وواحد بالإيطالية وواحد باللغة الإنجليزية. إنها كتب موجزة عن علم الهندسة الزراعية، تاريخ النبيذ الفرنسى، حزمة من الوثائق التى تشبه التقارير الطبية. أنظر بانتباه أكثر، فأكتشف أنها دراسات تحليلية عن التربة وعن المياه وهناك أيضاً خريطة عسكرية مثنية. أتعرف فيها على شكل "المحمية"، فى وسط شبكة من الخطوط الغامقة التى أجهل قراءتها. لا أفهم قصد تروت من كل هذا.

– لماذا...؟

ينظر إلىَّ وعيناه تبرقان ويقرب وجهه من وجهى. أشم رائحة جلده، وهو قريب منى هكذا. يطلب من النادل إحضار طبق به عنب. ينزع

الحبيبات ويدسها فى فمى بكل رقة، واحدة بعد الأخرى. أضحك وأنا أشعر بالحرج.

– أتعرفين ماذا يوجد فى شمال غرب نقطة التلاقى بين خط جرينتش وخط عرض ٤٥ْ الموازى لخط الاستواء؟

– لا. لست أعرف حتى مكان خط عرض ٤٥ْ الموازى لخط الاستواء.

– أغمضى عينيكِ.

أغمضهما. شىء ما ناعم ومنعش ينزلق على جبهتى، بين الحاجبين وبطول عظم الوجنتين. يداعبنى تروت بحبة عنب وهو يقول لى، بصوت منخفض:

– أنتِ طائرة، أو عصفور السنونو العائد، أنتِ فكرة تطير وتحلق عاليًا فوق "المحمية"، تأملى كم هى مستديرة التلال وكم هو ناعم السهل، قطعة من المخمل أحيانًا يكون أخضر، وأحيانًا بنيًا فاتحًا... تأملى ضلوع الألب القاتمة والهواء المنعش الآتى من الجبال، وصوت روافد جبال الألب ومسطحات الجليد البيضاء. تأملى حافة البحر الزرقاء الصافية، خليج يلاحق الآخر فى اتجاه إسبانيا، وحول كل هذا المزيد من الجبال والسهول التى

تشقها الأنهار والترع، وحينما تشعرين بكل أرجاء أوروبا وراء أكتافك، تتكهنين بأنك بعد برهة سوف تجدين نفسك أمام أمواج المحيط الأطلنطى فى ذروتها...»

أسند حبة العنب على شفتى. يحركها إلى الأمام وإلى الخلف.

– لقد حان الوقت الذى تتوقفين فيه، كما تفعل الطيور عندما ترتاح من الطيران على التيارات الصاعدة. لقد وصلت إلى نقطة التلاقى بين خط جرينتش وخط عرض ٤٥ْ، وأنتِ موجودة الآن فى مربع مساحته ألفان كيلومتر فى اتجاه المحيط، حيث تُنتج أفضل أنواع النبيذ فى العالم. للهواء عطر لا يمكن أن تتخيليه. هكتارات وهكتارات من الكرم على مرمى البصر. رياح لطيفة معتدلة، أمطار خفيفة تسقط وقت اللزوم. معجزة من صنع الطبيعة والإنسان.

تنقبض معدتى بفعل الغيرة. أفتح عينىَّ وأنا غاضبة. ولدت زوجته وترعرعت فى مدينة بوردو وهى سليلة عائلة من صغار مزارعى الكروم الذين قضت عليهم الحرب. ما الذى يريده منى، أن يحولنى إلى إيناس جديدة أكثر هشاشة وأكثر وحدة؟ يبدو على تروت الاستمتاع والحماس، وتلمع عيناه من الإثارة. لم أره هكذا منذ فترة طويلة.

– قبل خمسمائة مليون عام، فى الدهر الرابع، جرفت الترسيبات النهرية إلى حوض الـ جيروندا، البقايا الصخرية من منطقة

جبال الماسيف البركانية ومن جبال البرنس مكونة بذلك تربة عمليًا غير ملائمة لأى نوع من المزروعات سوى زراعة العنب. خلاصة القول، حصى مخلوط بالأرض، وهذه هى النقطة الأولى. لقد طلبت تحليل نوعية التربة عندك. فأرضك تصلح لإنتاج النبيذ.

– ماذا إذن؟

– ثانى نقطة هى مناخ المحيط الأطلنطى والذى يؤثر فيه تيار الخليج فيأتى بشتاء معتدل، قصير المدة، يتبعه ربيع منعش وصيف حار بوجه عام ومشمس.

تروت، الشتاء بارد عندنا، شديد البرودة.

– ولكن ليس لديك الجليد فى الربيع، فهو خطير جداً بالنسبة للكروم. سقوط الجليد نادر جداً عندك، فالغابات تشكل شيئًا ما يشبه القمح حول مزرعتك وهذا من حسن حظك. فأنتِ تتعرضين لمخاطر ثلجية أقل ممن هم حولك، غير أن الصيف لديك حار وجاف. وتسقط أمطار قليلة فى أغسطس، النقطة الثالثة هى العنب. فى الماضى كانت تُعطَى أهمية ضئيلة لنوعية الكرم وجودته. كان الجميع يرضى بأشجار كروم تعطى حبيبات عنب ذات نسبة مناسبة من السكر تسمح بالتخمر. كل شىء مكتوب هنا.

في فرنسا، يتم تدريس علم صناعة النبيذ منذ أربعمائة عام وبأسلوب علمي. يمكن أن نقوم بصناعة النبيذ في توسكانا أيضًا، أنتِ أيضًا تستطيعين إنتاج نبيذ جيد. وإن راق لكِ الأمر، يمكنك أيضًا إنتاج نبيذ عالي الجودة. لكل تربة، نوع الكرم الخاص بها. ولا توجد أراض حولك تشبه أرضك من الناحية الچيولوچية، ولكن لديك واديًا واسعًا جوانبه مغطاة بالغابات، وتغمره الشمس لشهور طويلة في السنة. عندك المياه اللازمة. عندك قبو كبير، من الممكن أن تجلبي الأيدي العاملة، أناسًا يعرفون عملهم، عليكِ فقط تنظيمهم بعض الشيء. جربي، اخلطي أنواعًا ببعض إلى أن تجدي نوع العنب المضبوط الملائم لتربتك. وهكذا تصنعين نبيذًا كالمخمل مثل عينيكِ.

يغشى فلورنسا ضباب يشبه السحابة فتغدو شبه غير مرئية. أغمض عينيَّ فتنساب من بين أهدابي ألوان جديدة، غير واضحة مهزوزة في ضوء العصر.

قد تكون الساعة السابعة أو الثامنة مساءً، وبالفعل يغطي الظل جزءًا من النهر. تنصهر كل ألوان البنفسجي والبنفسجي الفاتح وكل درجات اللون الرمادي، ويصبح الرصيف الذي نسير عليه شريطًا من الفضة. المدينة وضوء الصباح هما الحديقة الساحرة، حيث كل شيء يمكنه أن يحدث. يمكنني أن أزرع أشجار كروم. ليس هكتارًا أو

هكتـارين، وإنما عـشـرة أو عـشـرين، حـيث تكون مـدة التـعـريض للنور أنسب. يمكننى أن أحول "المحمية" إلى مزرعة كبيرة وحديثة. يمكننى أن أجعل تروت يتعلق بى وبالأرض. يمكننى أن أفكر من جديد فى البناء، بعد أن رأيت دمارًا كثيرًا.

يقوم تروت بحركة ما، وكأنه يلمس كتفى، ثم يمسك بكوعى فى إصرار أكثر. ألتفت إليه، فى انتظار أن يتكلم، لكن لا يحدث أى شىء. يكتفى بالنظر إلىَّ. ثم يقول فجأة:

– اسمعى، فلنذهب.

– إلى أين؟

– لنعد إلى المنزل. سآتى للعيش معك، وسأعلمك صناعة النبيذ.

٧

انتقل تروت إلى "المحمية".

لم تعلق نوڤيللا، ولكن كما لو كانت قد فعلت ذلك، وبصورة لاذعة. لابد أنها ترانى امرأة غير صالحة. هذا أمر مفهوم، فهى لا تزال فى الثانية والعشرين من عمرها وسبق لها الزواج ثلاث مرات. وهى تقول: "الأشياء إما أن تكون أو لا تكون"، بما معناه أن المرأة المتزوجة لا تعيش

فى بيت مع رجل آخر غير زوجها. الأمر بسيط ولكنه صارم، مثلها. ولكن بعد مضى بضعة أسابيع، لم يعد وجه نوڤيللا متجهمًا. لقد أدركت أن وجود تروت أزاح عن ماريو التزامات وأعباء كثيرة. يعمل طوال اليوم داخل القبو، يطلى السقف بأكسيد الرصاص لمنع الصدأ، ويصلح طلمبة البئر. شيئًا فشيئًا، يزداد إعجاب نوڤيللا بـ تروت وحينما تراه داخلاً البيت تحييه بابتسامة وتحضر له كوبًا من النبيذ.

عاد كل شىء إلى الحركة من جديد. بعد الحرب، كنت أحسب أنه ستلزم سنوات وسنوات لإعادة كل شىء إلى ما كان عليه. على العكس، نحن نخطو خطوات عملاقة ونسعى بكل الجهد. نعمل من الفجر وحتى المساء، سبعة أيام فى الأسبوع. نحن فى الخريف، ولا يزال هناك وقت، قبل أن يصل هدير الأمطار التى تجعل من المستحيل العمل فى الحقل. حدد تروت الأراضى حيث مدة التعريض للنور أفضل من غيرها بالنسبة لأشجار الكروم الجديدة. يجب علينا أن نحرث الأرض بعمق متر تقريبًا، ونستغل ميل الأرض لخلق مصارف تسمح للمياه بأن تجرى دون ركود. يقود ماريو فريقًا من العمال يحفرون الصخور ثم يكومونها فى أكوام ضخمة سوف يستخدمونها فى ملء الحفر الخاصة بالمصارف. يقول تروت إن النبيذ الطيب يبدأ من أشجار تغرس بعناية ويشرح لى فى صبر كل ما يعرفه. يقول إنه يعرف منتجين للنبيذ يستخدمون نوعية الأشجار نفسها ولكنهم مع ذلك ينتجون أنواعًا من النبيذ مختلفة تمامًا.

ويقول إن هناك شخصًا من إقليم بيمونتى يقوم بتجارب على الساحل على أشجار كروم فرنسية على بعد أمتار قليلة من البحر، وهو يشك تمامًا فى النتائج، ولكنه على الأقل ينهج نهجًا جديدًا . يجتهد ليشرح لى أن النبيذ هو نتاج الحدس، والوقت والعناية بالتفاصيل والتقنية المناسبة. يحدثنى لساعات طوال عن أشجار الكروم الموجودة هنا فى الـ سان چوڤيزى وهى كلمة معناها "دم كوكب المُشترى"، وفى الـ تربيانو والـ مالڤاسيا، وعن أولئك الذين ينتجون النبيذ الأبيض غير المسكر فى العصور الوسطى فى سان چيمينيانو، وعن الإغريق واللاتين الذين ابتدعوا إلهًا للنبيذ خصيصًا . يقول إنه، بالنسبة لنا نحن المسيحيين، يتحول النبيذ إلى دم المسيح. يقف هناك، مستندًا على شجرة اللوز بجوار البئر، ويحكى، يحكى دون توقف. يتجول على الدراجة ويذهب لزيارة كبار السن المقيمين هنا حتى يحكوا له عن الأرض، وعن طريقة قطف العنب وأوانه، عن عصره وعن الأمراض التى تصيبه. ثم يعود، أحيانًا متعبًا وقد غطاه التراب، وخبا بريق عينيه فلا يبدو عليهما سوى الإنهاك، ويقول إنه وقت ضائع، وإن الناس هنا ليس لديهم ثقافة حقيقية عن النبيذ لأنهم فقراء جدًا . تختزن نوڤيللا كل هذا، فى صمت وهى تشعر بالإهانة، وكتفاها النحيلتان يغطيهما الشال الصوفى، ورأسها منحنية تنظر إلى الأرض ويستغرب ماريو كذلك، ويقول إنه لا ينبغى أن يبالغ فى الأمر ويطيل من أمده، فالنبيذ مشروب أزلى فى هذه النواحى. يؤكد تروت أن الناس معتادون دائمًا على شرب النبيذ ولكنه نبيذ ردىء.

وإذا جربنا أن نعتق هذا النبيذ الردىء، فلتجرب هذا يا ماريو وسترى بنفسك النتيجة.

فى المساء، وبعد تناول العشاء، نجلس أنا وتروت حول مائدة مليئة بالأوراق. ندرس الكتب التى أهداها لى، ونتحقق من أننا أقمنا المصارف بطريقة صحيحة، بطول خطوط الميل، بحيث تجرى المياه دون أن تتسبب فى أضرار بالجذور. يقول الأهالى هنا إن الحصول على حقل كرم جيد، يستلزم أن يكون لدينا ليس فقط أرض جيدة الحرث، وإنما أيضًا زاوية تحسب مقدار التعرض للشمس. ثم سنغرس قضيب الكرمة وأوتاد الكستناء على رأس صف الأشجار، ثم الأسلاك الساندة، ثم يتحتم انقضاء ثلاثة أعوام قبل جنى بعض العنب. أما بالنسبة للنبيذ،...

أقول لتروت:

– الأمر يحتاج إلى وقت طويل للغاية يا تروت لعمل النبيذ، ولصبر لا حدود له.

– إنما أنتِ لديك صبر، وصبر طويل أيضًا.

من وقت لآخر، يكون تروت سيئ المزاج. يبتعد ويبقى بعيداً ليومين أو ثلاثة، ويعلل ذلك بما يسميه "شئونى فى فلورنسا" والتى يعود منها فى الغالب مكتئبًا عبوسًا. نحن لا نتحدث أبدًا عن أعماله، ولا عن زوجته. ونادرًا جداً ما يتحدث تروت عن ابنته، كما وإن كانت ابنة شخص آخر،

يتحدث عنها بتجرد لا أعرف إلى ماذا أعزوه بالتحديد، إلى ألمه أم إلى حنينه. وحينما أسأله، لا يتكلم عن هذا الموضوع بل ينغلق على نفسه كالقنفذ، ويبدو الموضوع وكأنه قد دفن لأيام وأيام. ثم، يعود ليصحو من جديد، دون أن يدرى أحد كيف؛ لأن تروت لابد وأنه أخفاه فى مكان ما بعيد، فهو هم وفكر لا يكاد يُرى ولكنه صار أمرًا يستحيل حله، لا بطرحه ومناقشته ولا باختفائه إلى الأبد. أحسب أن قوة العاطفة التى توحد بيننا تكمن فى كل هذه الأبواب المغلقة التى تفصل بيننا والتى لا نحاول أن نفتحها البتة.

لا يزال تروت نائمًا هذا الصباح ولم ينتبه إلى أننى تسللت من الفراش. الوقت مبكر جداً. أمس مارسنا الحب طوال الليل، تخلل ذلك فترات توقف قصيرة استسلمنا فيها للتعب والنعاس، ولكن كانت تكفى دعابة أو ملاطفة بسيطة واحدة لنبدأ من جديد. لا يهم أنه قد مرت حوالى عشرون سنة منذ لقائنا فى باريس. أقول لنفسى إن هناك أشخاصًا يعتبرون أن قوة المشاعر وعمقها تُقاس بطول الوقت ومروره البطىء وليس بسرعته.

أجمع ملابسى دون إحداث ضوضاء، أنزل إلى المطبخ وأعد لنفسى فنجان قهوة. نوڤيللا تركت كل شىء فى مكانه، مساء أمس. أفتح علبة البسكويت، وهو نوع مسطح لذيذ جداً تبرع فى عمله وأنا أكسره فى القهوة كى أخفف من مذاقها المر.

يجب أن أعبر قطاعًا من الحديقة، لم تعد الحديقة الواسعة على الطريقة الإنجليزية مثلما كان يعمل لدينا الجناينى، وإنما قد تطلق عليه أمى "دغلاً"، وهو مشبع بالندى والطل ويترك بقعًا على حذائى الطويل. أجد الفرسين البليدين فى انتظارى.

أريد أن أمتطى الفرس مونريجالى هذا الصباح؛ لأنه ينبغى أن يتحرك قليلاً. أقترب منه، ألاطفه ثم أمسح وجنتى على منخاره. يحنى مونريجالى رأسه؛ كى أستمر فى ملاطفته ومداعبته.

أفكر فى تروت الذى لا يزال نائمًا. وفجأة يتملكنى يقين، يقين مطلق بأن هذا هو أسعد أوقات حياتى كلها.

-٦-

كل شىء كسابق عهده

١

إنه مساء الأحد الموافق ٢ يونيو ١٩٤٦. طال النهار كثيراً؛ إذ يستمر النور الطبيعى حتى حوالى التاسعة مساءً. وصل الجميع اليوم فى فترة ما بين العصر والمساء.

قال أودونى وهو ينزل من السيارة:

– تبدو تلك التلال أكثر قرباً.

– وانظر لون السماء، أزرق بلون زهر القَضاب أو العِناقِية مثلما فى سانت موريس.

فى العصر، طلبت من نوڤيللا أن تعد القُراص المقلى فى الزيت وأن تضع الزهور فى الزهريات.

سألتنى نوڤيللا التى تساورها الشكوك:

– ما هو سبب الاحتفال، يا سيدتى الكونتيسة، هل هو الاقتراع؟

ولما لم أجبها، استنتجت بمفردها "أننا لا نحتفل بشىء على وجه الخصوص، مما هو أفضل".

بعد العشاء، بقينا أسفل فى حجرة الاستقبال نثرثر حتى وقت متأخر من الليل.

وقمنا أيضاً بالرهان.

اليوم، طُرح علينا السؤال العصيب: ملكية أم جمهورية؟ ولأول مرة ذهبت النساء للاقتراع، كلهن باستثناء نوڤيللا، التى رفضت أن تذهب لأن الأمر سواء، على حد قولها.

تريد نينا أن تشرب نخب هذه المسألة، وهى بالفعل ثملة بعض الشىء وتخطر كارلينو أنها طلبت تفصيل تايير خصيصاً لهذه المناسبة، ولونه بطبيعة الحال أزرق ملكى كاللون المنتشر فى عائلة ساڤوى؛ حتى يليق بالموقف...

من الواضح أننى ذهبت للإدلاء بصوتى لمجرد المتعة فى أن أكون هناك. لكننى لن أقول لكم لمن أعطيت صوتى. حاولوا أن تتكهنوا. إن ماريا جوزيه امرأة لطيفة جداً، أنيقة ومرحة ومرموقة. قد تصبح، أخيراً، ملكة ذات أناقة خاصة... ألا يبدو لكم هذا؟

هنا يقاطع أودونى فى شىء من العبث ويقول:

– أرأيتِ كم تبدو صورها التى يرسمها لها جيتا كاريل متألقة وجميلة؟

نعرف جميعًا أن نينا غير راضية عن صورة الوجه التى رسمها لها جيتا كاريل.

– إنها حقًا امرأة جميلة، أصيلة جدًا، لو امرأة أخرى مكانها لكانت قد وهنت واختفى جمالها تمامًا ومعها كل هؤلاء الأبناء واحد تلو الآخر... أما هى على العكس فقد احتفظت بقوام ممشوق.

يعقب أودونى بقوله:

كل هذا هباء، من المعروف أن الملك...

– يقاطعه كارلينو بنبرة حادة لاذعة:

– لا أفهم ماذا تقصد، يكاد الأمر يصل إلى حد الكارثة الحقيقية. للملك ولنا جميعًا. تخيلوا إن فاز الجمهوريون. يا لها من مصيبة. سيفجرون الثورة.

قاطعته نينا وجعلته يصمت إذ قالت:

– ما هذا الحديث عن الثورة، الثورة، يا كارلينو! يا لك من ميلودرامى، عندما يطيب لك الأمر. الحرب أيضًا كانت كارثة، ألا تعتقد ذلك؟ غير أنك كنت تقول إنها سوف تكون حربًا مجيدة، سريعة وبدون توابع أو تبعات. وإنها كانت لتصنع من إيطاليا

بلداً عظيمـًا، وملك بلادك لم يكن عند حسن الظن به... أليس كذلك؟

– إنه أيضًا ملكك، حتى يتم فرز الأصوات، ياعزيزتى. لا تحسبى أنك أفضل منا، لمجرد انضمامك إلى جماعة من المتمردين على الجبال، ونظراً لأننى أعرفك جيداً، أقول إنك ربما أمضيتِ أيضًا وقتًا ممتعًا معهم.

– لطالما كنت أحمق يا كارلينو. قبل الحرب وبعده.

يا له من إحساس مريح ومغرٍ أن يبقى شىء ما ثابتًا وسط هذا التغير العام الحاصل هنا وهناك! يشرع أودونى فى الضحك بصوت هادئ وفى النهاية نضحك كلنا. ثم ينهض واقفًا. وتحت ضوء الثريا، يبدو وأنه ممثل على خشبة المسرح. ينفث كارلينو غضبًا، يشعر أنه مستهدف، غير أن أودونى يقتصر على إخراج صفحة جريدة أجنبية يحتفظ بها مطوية بعناية فى محفظة نقوده. يرفع صوته ويترجم.

– سنحتاج إلى أعوام كثيرة حتى يتسنى لنا أن نحصى أمواتنا. يندر أن تكون هناك بيانات رسمية، مع ذلك نستطيع أن نقول، وفقًا لإحصاء تقريبى للغاية، إن القتلى قد بلغوا نحو خمسين مليونًا، يُضاف إليهم ملايين من المفقودين. لا توجد فى ذاكرة

التاريخ حرب سجلت هذا العدد الضخم من الخسائر البشرية والمدنية ما يقرب من الخمسين بالمئة من الإجمالى.

الهجوم بالطائرات، الترحيل الجماعى، العمليات الانتقامية والإبادة المستمرة فى معسكرات العمل والمعتقلات لم ترحم أحداً، لا النساء ولا الأطفال، لا العجائز ولا المرضى... ما رأيك يا كارلينو؟

سأله فى صوت خفيض.

ما رأينا جميعاً؟

المسئولية. ألم يخطر ببال أى أحد منا أننا قد نكون شركاء فى المسئولية؟

نلوذ كلنا بالصمت.

يحنى كارلينو رأسه، يرفع كتفيه وبالكاد يظهر على وجنتيه احمرار خفيف.

- كان كل شىء يبدو هكذا بسيطاً ومنطقياً.

من كان يقدر أن يتخيل هذا... كل أولئك الموتى، وكل هذه البشاعة. كيف كان بمقدورنا الاعتقاد بأن كل شىء حقيقى...

يفكر كل منا فى الشىء نفسه، تُرى ماذا ستكون نتيجة الاستفتاء؟!

فيما عدا أودونى، فالكل مقتنع أن إيطاليا ستبقى ملكية. فالجمهورية تناسب شعبًا عمليًا ومنظمًا، تناسب أممًا حديثة مثل أمريكا أو فرنسا.

أنا لا أعرف فيم أفكر، اللهم إلا فى أن عاهلنا الجديد - ڤيكتور إيمانويل الثالث تنحى عن العرش قبل بضعة أسابيع، فى الأول من مايو - يبدو عليه الفزع والتقشف. لكنهم يقولون "لديه وقت كاف، وقت كاف كى يبنى نفسه" وسيفعل، نأمل فى هذا، أما بالنسبة لى، فرأيى أن الملك أى ملك يجب عليه أن يكون قد تشكل بالفعل، وأن يكون لائقًا بالعرش الذى يعلوه يوم تنصيبه، على الرغم من أن تروت يذكرنى بأن يوم التتويج كانت إليزابيث الأولى والملكة ڤيكتوريا مجرد فتاتين ومع ذلك صنعتا مجد إنجلترا، فلنأمل أن يكون ملكنا أومبرتو من نفس هذه العجينة. أو على الأقل نأمل فيمن هم يحيطون به.

ذهبنا للنوم، جميعنا، ونحن مضطربون، ها هو ما سوف يحدث، من كثرة ما تحدثنا عمّا سوف يحدث، ومن كثرة ما شربنا، وفكرنا فى الحقيقة هذه السنين التى انقضت فى الحرب وفى التشويش، يتأرجح كل منا فى معتقداته وقناعاته، طبيعى أن يحدث هذا، فى حقيقة الأمر؛ فنحن لم نتلق تربية تسمح لنا بأن يكون لنا اهتمام وشغف بالسياسة أو بالمجتمع المدنى. فنحن بالأحرى خائفون أن تتغير الأوضاع، وأن تغدو

بلادنا دولة اشتراكية، كما يقول كارلينو. إن أفكارنا تلازمنا منذ الأزل بشكل غير مستقر، فلنسمها بالأحرى عادات وتقاليد ندافع عنها بكل حماس وشغف. نعرف أن نحافظ على الأشياء كما هى، ولا نعرف التغيير. نهتم أكثر بالخيول، وبالنبيذ، وبأن تتزوج الفتيات زيجات حسنة، هكذا سارت الأمور فى بيتى، وهكذا أتخيل أنه حدث أيضًا فى بيوت آخرين.

هذا ما يحدث لجيل، مثل جيلى، أن يضبط تردد المذياع ويشرب الكونياك، دون أن يعلم ماذا يخبئه له الغد.

يروح ويجىء أودونى فى حجرة الصالون، وهو يتجرع من كأسه رشفات قليلة. يبدو أنه مهموم يفكر. ثم ينفجر قائلاً من حين لآخر:

هذا تاريخ! هذه مسرحية! ومن أفضل المسرحيات! ها نحن هنا. كلنا أنفاسنا معلقة.

تُرى هل سنظل على حالنا ماركيزات وكونتات غداً أيضًا؟ أليس هذا أمراً فريداً؟

ربما نحن نغرق، مثل منكوبى الباخرة تيتانيك، نستغرق فى سماع الأوركسترا وهى تعزف بينما تغرق السفينة. يا لها من استعارة لا مثيل لها...! ونحن أيضًا، فى هذا الصالون الجميل، نثرثر وإذ ربما، بف!، فى خلال بضع ساعات سوف تتحول ألقابنا إلى كلمات عفا عليها الزمن، لا

تنفع إلا في قص الحكايات والحواديت للأطفال، وماذا سيكون مصير القط الذى يرتدى الحذاء طويل الرقبة، هل فكرتم فى مصير ذلك القط التعس وحده دون ماركيز كاراباس؟

بدأ كارلينو يتعصب:

– بحق الشيطان، يا أودونى، من ذا الذى يجرؤ أن يسلبنا ماركيز كاراباس؟ سوف يبقى حيًا أيما كانت نتيجة التصويت، على عكسك أنت، صدقنى.

انظر حولى، وأرى إيريس منهمكة فى ضفر شراشيب الشال الذى تضعه على ركبتيها، وكارلينو يدفئ الكونياك فى الكأس، أودونى يروح ويجىء أما نينا فتجلس القرفصاء فى ركن الأريكة. ليس أمامهم سوى تمضية يومين معًا فى الريف، فى ضيافتى، يركبون الخيل، يتنزهون، يثرثرون. هذا كل ما فى الأمر.

ألا يبدو لى الأمر أنا أيضًا، بسيطًا بدرجة عجيبة؟

أودونى على حق. قد تكون هذه آخر أمسية فى النظام الملكى. هل هذا يعنينى؟ أحاول جاهدة أن أفكر وألا أحكم حكمًا متحيزًا، تحت تأثير الذكريات والمخاوف، غير أننى لا أتمكن من المشاركة فى التوتر الجماعى كما أود. همى الوحيد، الذى أحتفظ به لنفسى، هو أنه إن لم تجف الأرض غدًا، بعد الأمطار التى هطلت أمس دون توقف، فلن أستطيع أن

أصطحب أصدقائى للقيام بنزهة. درست طريقًا جميلاً للقيام بهذه النزهة يستغرق ساعتين فى الأقل. لكننى لا أريد المخاطرة بالخيول على أرض زلقة.

أشعر ببعض الخزى من استخفافى بالأمر، تورينو هى مسقط رأسى، لا أنسى هذا. كيف لى أن أنسى هذا؟ لسنوات طوال كان والدى ثم من بعده ڤيللافورستا يرددان على مسامعى هذه العبارة:

– تورينو هى مهد العائلة.

كما لو كانت هذه الحقيقة جديرة بأن تزيد من معزة هذه المدينة.

إن زوجى وأبى هما من فقدا بصرهما؛ إذ لم يفهما أننى بالفعل كنت أحب تورينو بالقدر الكافى وليس بوصفها مهدًا لأىٍّ كان، كنت أحب طرقها الفسيحة المزينة بأشجار الدُلب والظلال تحت ممراتها المقوسة.

هل يجب علىَّ أن أشعر بارتباطى بتورينو لمجرد أن عائلة زوجى ڤيللافورستا تنتمى إليها؟ لمجرد أن لقبى وأنا فتاة غير متزوجة هو لقب صميم من تورينو مثل قطع الشوكولاتة الصغيرة ونبيذ الڤيرموت؟

يقول زوجى ڤيللافورستا، بينما أنا أغلق باب الشقة الكائنة بشارع أسيتا:

– أنتِ ولدتِ فى تورينو، وتنتمى إلى تورينو، فضلاً عن انتمائك إلىَّ. لا يمكنك الرحيل. فأنتِ لا تزالين زوجتى، لا تنسين هذا. لن

تنجحى فى تولى شئون المزرعة. ليست لديكِ المقدرة على ذلك. أنت لست مزارعة. والأرض ليست لعبة. سوف تغرقين فى الديون، ولن أكون أنا الشخص الذى ينتشلك منها، تذكرى هذا جيداً.

جاء حينها كى يرانى وأنا راحلة. كانت هناك سيارة تنتظرنى فى الشارع، محملة بكل أمتعتى وأغراضى؛ كى تقلنى إلى فلورنسا، ومن هناك إلى "المحمية".

السفر بالسيارة هى هدية متأخرة من والدتى.

تُرى، أقررت أنها رأتنى أعانى معاناة بالغة، أو أنه بلغ إلى مسامعها أن السيدة ڤيللافورستا الحالية هى عاهرة ترتدى ملابس ابنتها؟

أرسلتنى إلى "المحمية" مع سائق سيارتها، غير أن سيارتنا ليست جديدة، ولا سريعة، سوف تكون رحلة شاقة جداً. ليست هذه هى الكلمات الدقيقة التى يستخدمها زوجى وهو يسلم علىّ، إذ يبدو لى بالأحرى أنه قال:

– فلتذهبى إلى الجحيم.

وأينما كان هذا المكان، سأذهب إليه بكل سرور.

كل شيء يبدو لي اليوم أفضل من البقاء هنا، في "مهد العائلة".

حينما كنت طفلة، كان يوجد على البيانو الكبير صف من الصور ذات البراويز الفضية أو المخملية، والمزدانة بتاج في أعلاها. صور لأميرات حقيقيات يحملن على ذراعهن كلابًا صغيرة شعرها مجعد، وأمراء من الشباب ودوقات في الزي الرسمي، وتعبيرات وجوههم جادة، وتغلب عليهم جميعًا الكآبة والنحافة. كما لا أنسى أن جدتي وأمها كانتا وصيفتين في بلاط الملكة والعديد من الدوقات، كانتا تتبعانهن إلى ستريزا، وروما وأجلييي، وتحتملان تصرفاتهن وأهواءهن في صبر واستسلام، ومكافأة لهما، كان اسمهما يظهر في تقويم البلاط.

ما زلت أحتفظ في الحافظة الصغيرة المصنوعة من الجلد بالأقراط الزفير التي أهدتها لي الأميرة ماريا أديلايدي بمناسبة زواجي. وفي المراسم الدينية، التي تلي الزواج المدني بثلاثة أيام، كان هناك مجموعة من الشخصيات الملكية: سمو دوق جنوة تومازو وسمو دوق ودوقة بيستويا، ودوق برجامو والأميرة ماريا أديلايدي، كان شاهداي على الزواج هو دوق بيستويا الذي لم يرفع فرنشيسكو عينه من عليه طوال مدة حفل الاستقبال، أعتقد أنه كان يحسده على تفصيل بدلة الردنغوت المتقن. (ينتبه أنريكو ويسخر مني بصوت غير خفيض قائلاً:- يتهيأ لي أن عريسك يفضل محاسن دوق بيستويا على محاسنك).

أظن، فى الواقع، أن الحساب قد تم تسديده؛ فأجدادى حاربوا من أجل أفراد عائلة ساڤوى، لدرجة أن أجدهم لقى حتفه، أو تحول إلى مُقعد كسيح. كما أنهم دفعوا، دعمًا للمناوشات الملكية الصغيرة أو الكبيرة مع الجوار، والتى كانت لازمة لبناء مملكة وإقامتها.

وامتنانًا لجهوداتهم أُعطيت لهم إقطاعيات، واستتبع ذلك حقهم فى تطريز تاج الكونت وخياطته على بياضات حجرة النوم أو طبع شكل التاج على البطاقات الشخصية وإضافة اسم أحد المواقع الجغرافية إلى اللقب مثل اسم التا لانجا أو مونفيرّاتو.

ويأتى أولاد عم الملك إلى حفلات زواجنا وجنازاتنا. وأحيانًا تظهر أميرات القصر الملكى فى دعوات العشاء التى تقيمها والدتى، مما يخلق نوعًا من الارتباك فى تحديد الأماكن الملائمة يرجع لمسائل خاصة بآداب اللياقة والإتيكيت. فالشخصية الملكية تجلس عادة فى مكان صاحب المنزل المضيف، وبهذا الشكل يتعين إعادة ترتيب الأماكن على المائدة، تنفخ أمى ضجرًا؛ غير عارفة إن كانت تشعر بالإطراء لتلبية دعوتها، على حد تعبيرها، أم يضايقها هذا الاضطراب.

أما أنا، فقد أعطيت اسمى مونفيرّاتو ومونريجالى لجوادين من أكثر جيادى تعنتًا وعندًا وهما عندى منذ إقامتى هنا، وهما الآن أسفل في الإسطبل، جاهزان للركوب غدًا.

٢

تم ضبط المذياع منذ صباح اليوم. كلنا فى الانتظار. فى الممر الخارجى، أسمع وقع أقدام شخص ما يتحرك. لابد أنها نوڤيللا، التى تسند صينية الإفطار على الأرض، كما يفعلون فى الفنادق. فهى لم تعد تدخل إلى حجرتى؛ لأننى لا أنام بمفردى. يُسمع وقع أقدام أخرى أخف وأقل انتظاماً من وقع أقدام نوڤيللا.

تهمس نوڤيللا لأحدهم:

– شـــــه!

يُسمع صوت بكاء خفيف يتبعه اصطدام كما لو كان صوت وقوع شىء ما مبطن على الأرض. أغلب الظن أنها طفلة نوڤيللا التى يزيد عمرها عن سنة وهى تتبع أمها كظلها.

مرة أخرى تهمس نوڤيللا:

– شـــــه!

وتطيع الطفلة هذه المرة.

– كلهم نيام، فهم ليسوا مثلك، تستيقظين مع شروق الشمس.

تضحكان، الأم وابنتها، ثم تبتعد الخطوات. لست أدرى هل أحاول أن أستسلم للنوم مجدداً.

أتقلب فى الفراش.

لا أنجح في مواصلة النوم، يتسرب من بين مغالق الشباك ضوء شديد.

يصلنى صدى أصوات مختلفة بفعل المسافة، فربما هى نوڤيللا تصيح خلف طفلتها أو ربما تنادى ماريو ليشرب قهوته.

سنذهب لعمل نزهة على ظهر الجياد فى وقت لاحق. لا أريد أن أمكث ملتصقة بالمذياع طوال اليوم، ولا أنوى التنازل عن نزهة بالخيل فى الغابة مقابل أى شىء آخر فى الدنيا، فى يوم جميل مثل هذا، فى الهواء الذى يبشر بقدوم الصيف.

أما الآخرون، فليفعلوا ما يحلو لهم، إما أن ينتظروا الأخبار، ساعة بساعة، والمذياع يبث بلا هوادة. وإما أن يخرجوا معنا، فى اتجاه مونتيتى. حينما نصل إلى القمة، نلتفت ونرى سيينا بأكملها وسان چيمينيانو، وذلك النهر البعيد الذى يميل للزرقة وهو نهر ڤولتيرا. أقول لنفسى إن هذا هو معنى ما نتمتع به من امتيان؛ أن نكون قد بلغنا أعتاب النضوج دون حتى أن نعى أو ندرك، حتى هذه اللحظة، أننا كنا دومًا أصحاب امتيان.

لا أزال مستلقاة على الفراش. أرغب فى أن أمارس الحب. هكذا، دون مساحيق تجميل وشعرى غير ممشط، ولم يزل جسدى فاترًا بفعل النوم.

أضع رجلاً على رجل تحت الملاءة وأستدير لأنظر إليه، لكننى لا أنبس بكلمة. أشعر بقليل من الإحراج. إنه يوم سيذكره التاريخ، فسنعرف قريبًا ما نوعية النظام الذى اختاره الإيطاليون لبلادهم وأنا أرغب فقط فى أن تكون لى علاقة حميمية معه. كانت الأشياء الصغيرة هى موضع اختيارى دائمًا، كمن ينظر إلى تفاصيل اللوحات الجدرانية فحسب. يلاطفنى تروت فأتصلب. أشعر بتصلب وتوتر كل جزء فى جسدى، العضلات، الصدر، أبسط رجلىّ اللتين لا تزالان مختبئتين تحت الملاءة.

أسأله بصوت منخفض:

– ألا تعطنى قبلة؟

لا يجيبنى. ولكنه يستمر فى ملاطفتى وهو ينظر إلىّ.

فى الخارج، أرى قمم أشجار التفاح فى وضح الشمس، وأسمع أصوات الريف الصيفية، وصوت الدراسة الرتيب فى أحد الحقول.

أبقى بلا حراك، فلا أريده أن يكف عن ملاطفتى. إنه بارع فى أن يظهر كل شىء بسيطًا للغاية.

أحبس أنفاسى.

– أنتِ ترغبيننى لدرجة كبيرة، أليس كذلك؟

يسألنى ثم يميل نحوى. أبحث عن شىء أقوله.

شىء من هذا القبيل:

- بالتأكيد أرغب فيك. فهذا ليس اختيارًا. إنه يحدث فحسب.

ولكن على العكس لا أجد سوى الصمت على شفتى، مما يجعلنى أبدو امرأة متعثرة مرتبكة وليس امرأة مغرية كما أود أن أكون.

يقبلنى ثم يبتعد، يداعب شعرى، ينظر إلىَّ نظرة متفحصة ويقول:

- كنت أعلم. من المستحيل ألا أفطن إلى هذا. فأنتِ تتكلمين بعينيكِ.

٣

انتظرت طوال الصباح، قبل أن آخذ قرارى بفتح الرسالة التى أحضرها دينو إلىَّ.

تعرفت على الخط الذى أصبح مهزوزًا بعض الشىء، بعد مرور حوالى نصف قرن.

ثم استجمعت قواى.

قرأتها.

بعد سطور قليلة، أدركت أننى لم أستجمع قواى بالقدر الكافى.

تبدأ الرسالة هكذا "عزيزتى الغالية"، إنها كلمة مثل باقى الكلمات وإن كانت تبدو لى الآن وكأنها ضربة سوط.

عزيزتى الغالية،

هل من المسموح لى أن أناديكِ هكذا، بعد كل هذه السنين؟

لا أحب أن أثير اضطرابك، بخروجى عن الصمت كأحد الأشباح الكئيبة التى كانت تجعلك تقفزين من على مقعدك فى المسرح. إننى أشعر بخطئى بالفعل؛ لأننى أستفيد من السلام الروحى الذى قد تتمتعين به كى أطرح أمامك مسألة شخصية تتعلق بى.

سأنوه سريعًا عن التفاصيل؛ لقد كشفوا علىّ الأسبوع الماضى، بسبب بعض الأمراض التى وجدوا مشقة فى علاجها، ووجدوا بجسدى كل الأسقام الممكنة.

لا أشكو من شىء فأنا واعٍ وأعتمد على نفسى نسبيًا، ابنى إيمونى محامٍ بارع. توفيت يولى قبل عشر سنوات، وربما علمتِ أنتِ أيضًا، و، إن كنت لا أستطيع أن أقول إننى أستعجل اللحاق بها، فإننى لا أستطيع كذلك القول بأن فكرة الموت تصيبنى بالرعب.

باختصار لم يبق أمامى سوى بضعة شهور فى هذه الحياة، وأنا استسلمت للأمر الواقع. يمكننى أن أرحل فى هدوء، وأن أرتب أحوالى، وها هو الدافع من وراء كتابتى لهذه الرسالة.

أحب أن أؤكد أولاً وقبل كل شىء أنه إذا بدت بعض التعبيرات التى سوف أستخدمها فى خطابى لك لاذعة قاسية، فالأمر ليس كذلك. فبينما أنا أكتب، ينم وجهى بالتأكيد عن الطيبة كما هو حال قلبى أيضًا. بل أقول لكِ أكثر من ذلك، فحينما أجد الوقت الذى أكتب فيه رسالة لزوجتى الغريبة، فأنا أجد أيضًا ودومًا الوسيلة كى أشرد بعيداً عن همومى، لا تتعجبى، أرجوكِ، إن كانت هذه الجملة الأخيرة قد جعلتك تدركين أننى كتبت لكِ أكثر من رسالة، على مدار الخمسين عامًا. لم يمسك الجنون بعد، ليس بعد، فهذه هى الكلمات الوحيدة المكتوبة التى وصلتك منى. لكنها لا تعد ولا تُحصى الرسائل التى كتبتها لكِ فى فكرى، على مدار هذه السنين.

كانت كلماتها تتراوح من مرة لأخرى بين الغضب المرير أو الحنان والعطف أو الألم الحقيقى، أحيانًا كانت صفحات وصفحات من الاحتجاجات على الأسلوب الذى رحلتِ به، على الطريقة التى تركتنى بها، دون أن تعطينى أبداً، أبداً، فرصة لمناشدتك أو مناقشة الأمر وسماع دفاعى. قد يقول إيمونى إن الرسائل التى نفكر فيها دون أن نكتبها لا تساوى شيئًا، وربما يخطئ؛ لأنها غالبًا ما تمتص طاقة أكبر

من تلك الرسـائل التى تولد على الورق وعلى الورق تموت بمجـرد إرسـالها، فـالرسـائل التى كتبـتـها لكِ فى مخيلتى، امتصت ساعات وساعات كنت على العكس سأهدرها فى مشغوليات لا فائدة منها. أنتِ لا تعلمين، لكننى كتبت لكِ وأنا أسير على الرصيف، بينما كنت أشرب القـهـوة عند "بلاتى"، أو حـينمـا كنت أسـتـحم، أو فى الحـفل الراقص السنوى فى الأكاديمية الموسيقية، أو وأنا أستمع إلى حفل موسيقى.

الآن أيضًا، وأنا مضطر أن أبلغك بأشياء غير مستحبة، فالكلمات تنساب بسرعة رهيبة من قلمى، دونما أى تعثر، وهو ما قد لا يحدث، فى اعتقادى، إن لم أكن قد كتبت لكِ من قبل. أيكفيكِ هذا، كدليل على وفائى؟

ومع هذا أتطرق الآن إلى النقطة الأساسية.

بالطبع أنتِ تتذكرين أننا تزوجنا فى تورينو، فى أكتوبر ١٩٢٨، وربما لم تنسى أيضًا، فى اعتقادى، أنه بعد انفصالنا المفاجئ، قررنا بالاتفاق معًا، وقلما يحدث هذا، عدم إضفاء الصفة الرسمية على هذا الانفصال. مما يعنى، يا عزيزتى، أنكِ لا تزالين زوجتى شرعًا. اطمئنى، فقد بلغنا من العمر نحن الاثنان، ما يمنعنى من أن أقول لكِ هذا على سبيل التهديد، وإنما أقوله كملحوظة بسيطة. هذا يجعلك وريثتى الشرعية، على الأقل فى النصيب الذى لا يخص ابنى، بموجب القانون وبمحض إرادتى.

لا أطالب على الإطلاق بأى شىء تملكينه، إكرامًا للسماء؛ فأنتِ قد رحلتِ تاركة مجوهرات عائلتى على المكتب، وملابسك فى صوان الملابس، وكان يجدر بكِ أن تأخذى هذه الملابس، وخصوصًا ثوب السهرة من تصميم "سكياباريللى" الذى أهديته لكِ فى باريس. كنت تبدين فاتنة فى هذا الثوب الذى كان يضفى عليكِ نورًا وكأنك صورة عذراء ترجع إلى القرن الخامس عشر، أبدًا لم أركِ جميلة مثلما كنتِ وأنتِ ترتدين هذا الثوب، وغالبًا ما كنت أتخيلك هكذا، على الرغم من أننى أعرف أنك على العكس قضيتِ جانبًا كبيرًا من عمرك وأنتِ ترتدين بنطلونات الصيد والحذاء الجلدى ذا الرقبة الطويلة.

فى النهاية، دعينى أقول لكِ متملقًا دلالك، إن كان لا يزال باقيًا، إن هذا الرداء لم يكن يليق أبدًا بيولى كما كان لائقًا عليكِ حتى وإن كانت تقول إنها فى حياتها كلها ما لبست شيئًا أفخم ولا أبهى من هذا الثوب. حتى الولاعة الصغيرة التى حُفر عليها اسمك، وكانت بحق هدية شخصية!، تركتها بكل استنكار على مائدة الكونسولة عند المدخل. أتعرفين ماذا فعلت بها؟

هل كنتِ تعرفين، بالمناسبة، أن اسم زوجة عمدة ڤيرتشيللى، مثل اسمك ولذا أرسلت لها الولاعة كهدية بمناسبة عيد الميلاد، اعتقدت أننى طلبت حفر اسمها خصيصًا على الولاعة وتأثرت لذلك كثيرًا لدرجة أنها

جعلت زوجها والحاشية التى تتبعها يتركوننى وشأنى، فلا يزعجوننى بوجوب حضور هذه التجمعات الفاشستية الهزلية.

أحسب أننى لا أؤذى كرامتى الروحية، ولا مبادئك الأخلاقية إن رجوتك أن تتنازلى، كتابة، عن البقية القليلة المتبقية من ثروتى والتى تخصك شرعًا وقانونًا، لا أنوى الانحدار فى فظاظة مقارنة وضعك الاقتصادى بوضعى أنا؛ فكل واحد منا عاش حياته كما تراءى له، أو كما كان فى وسعه أن يعيش، وهو بالطبع ليس الشىء نفسه؛ لذلك فهو مسئول أمام نفسه وأمام الله القادر على كل شىء، غير أننى أعطى حسابًا أيضًا أمام إيمونى، والذى أصر على أن أدعوه فتاى على الرغم من بلوغه الأربعين من عمره، ولست فى حاجة لأن أقول لكِ إن، إيمونى، لم يأخذ من أمه سوى الطبع المرح الفرح والنقرة فى الذقن، وكل الباقى كان من المفترض أن يأخذه منى، وإن لم أستطع أنا أن أدير أملاكى بعناية وحرص، وأشعر بالخزى لهذا، فأنا أعتبر اليوم رسالتى لكِ من أكثر العقوبات إذلالاً ومهانة؛ لأنه، صدقينى، لم تمر لحظة واحدة فى حياتى كلها، شعرت فيها بعدم استحقاقى اللقب الذى أحمله. أرجوكِ أن تتحلى بشىء من الصبر والتسامح تجاه زوج انحدر فى هوة الازدراء، غير أننى أفطن، بعد كتابة هذه العبارة أنه لم يمر يوم واحد فى حياتك نظرتِ فيه بعين التقدير والاحترام لزوجك، كما أرجوكِ أن تصدقى أننى دُفِعت لهذا الطلب المخزى بمحض إرادتى فى عدم سلب إيمونى المزيد

من الأملاك، فضلاً عن تلك التى أنا بنفسى سرقتها وأهدرتها على مدار أعوام كثيرة قمت فيها بإدارة أموالى بهذيان وإسراف.

إيمونى ابن غير شرعى، وقد يذكر البعض هذه الحقيقة فى أيامنا هذه بشىء من الاحتقار. لم نتزوج أبدًا، أنا وأمه، كما هو واضح. لكن ربما لا تعلمين أنها كانت رفيقة حنونة محبة ومخلصة، تتمتع بعطف الأمومة كما كانت هادئة وذات شخصية دمثة لطيفة.

أكن حبًّا لا حدود له، مطلقًا وكاملاً لابنى هذا غير الشرعى، منذ اليوم الذى وضعته فيه الداية المولدة بين يدىّ، وبالنظر إلى وجهه، وجدت نفسى أفكر فى أننى أريد أن أمنح هذا الطفل الذى لا أعرّفه كل شىء، ليس فقط كل ما أملك، بل أى شىء يطلبه منى، أى غنى أو ثروة موجودة على الأرض، وكان يُبقى على عينيه مغمضتين، كمن لا يريد حتى أن يسمع أى شىء يتعلق بالنور، بالعالم وبالأسرة.

لا تعتبرى هذه الرسالة مجرد تخريف شخص مسن، أو، إن أردتِ، فافعلى، لكن احسبى هذا التخريف محمّلاً بالاحترام والولاء الذى أكنه لكِ بعد مرور كل هذا الوقت، وأرجوكِ أن تعتبرى هذا المكتوب بادرة تكريم تجاه حساسيتك كامرأة ذكية، فأنتِ واحدة من نساء قليلات يفهمن الكلمات المكتوبة بشكل غير مألوف عند العامة. هذا فضلاً عن أنكِ أنتِ نفسك لم تعتادى الأشياء المألوفة، منذ صباكِ وأنتِ تمقتين حفلات الشاى الراقصة؛ حيث كانوا يرغمونكم على تعلم رقصة الفالس

أو رقصة الكدريل. على العكس كنتِ تهرعين خلف كل ما هو غير تقليدى، وكنت تعرّفين نفسك بالسيدة الغريبة المميزة، ولكن سامحينى إن كنت الآن، ولمرة واحدة، أقول لكِ إن تلك خدع وحيل ممثلى أحد مسارح البلدة.

إن مكافحة التقاليد ومظاهر الرياء، كما كنتِ تسمينها أنتِ، كانت تأخذ طرقًا أخرى مختلفة ولا تزال. ففى تورينو، فى الثلاثينيات كانت الطرق التى كان من الممكن أن تُفتح أمامك لا نهائية ولا حصر لها، إن كنت تريدين أنتِ الخوض فيها بحق، فقد كنتِ شابة فى مقتبل العمر وجميلة وثرية وذكية. كنت تتظاهرين بأن لا والدك ولا أنا كنا نفهمك، وأنتِ تخطئين. كان والدك يفهمك جيداً، ولكن طبيعته الشخصية كانت تجعله يميل إلى مراقبة وملاحظة العاصفة من بعيد، بدلاً من أن يجد نفسه غارقًا فى لجتها. كنتِ ستصفين ذلك بأنه جبن، إنها لكلمة ضخمة، كان والدك رجلاً من القرن التاسع عشر يعيش ويتكيف مع القرن العشرين، بأحزانه وغوغائه، دون أن يكون له دراية به أو اعتياد عليه. لم يكن يعلم ماذا يعمل معكِ. وعلى وجهك الجميل كان يلاحظ تموج رياح تنذر بقدوم العاصفة، وكان يغير من طريقه حتى يقود السفينة إلى بر الأمان، كما يتعلم البحارة فى سلاح البحرية. كان يهديكِ فرسًا، يرسلك إلى جديك فى توسكانا، كان يتغاضى عن الأمر عندما يخطرونه أنك،

بدلاً من أن تذهبى على العشاء عند فلان الفلانى، كنتِ تتحدين المناخ السيئ لتقومى بنزهة على الجواد فى مونكاليرى، فى بيتشيتو أو أينما كنت تذهبين خفية. أما بالنسبة لى، فقد كانت غرابة أطوارك تثير فضولى، كنت أنظر إليكِ، كما يُنظر للخيول الصغيرة التى تبرهن على أنها ليست سهلة الانقياد بل مليئة بالطاقة وهى ممتعة للأنظار. كنت أنظر إليكِ وأفكر أنه فى يوم ما سوف أفهم، يوم ما سوف أروض هذه الجرأة الوقحة، وأن هذه المرأة غير الاعتيادية سوف تحلِّى حياتى. لم تسر الأمور على هذا النحو، فأنتِ لم تحلى حياتى، بل سممتها، كما فعلت أنا الشيء نفسه معكِ. متى تحولت الشمس إلى زفت قاتم، وأمسى بيتنا مثل بابل التى يتحدث عنها الكتاب المقدس، حيث لم نعد نستطيع أن يفهم كل منا كلمات الآخر؟

أرجو أن تغفرى لى هذا. إننى دمرت حياتك، بكل ما أوتيت من قوة وحرص شيطانى، والغريب فى الأمر أن كل شيء حدث بالصدفة. لم يكن لدىّ أية نيةِ أن أصبح كالسيف المصلت لا على رقبتك ولا على رقبة أى شخص آخر. لم يكن من طبعى. أتتذكرين أننى كنت أحب الخيول؟ كان هذا هو كل ما كنت أرغب فى عمله، الاعتناء بالخيول والحياة فى سلام. أنتِ أيضًا كان بودك أن تعيشى هكذا، غير أنكِ كنتِ تعتقدين أنه لبلوغ هذه الحياة، كان ينبغى عليكِ إسقاط حواجز كثيرة. ولكن أين كانت هذه الحواجز؟ ألم تنتبهى أبدًا أنكِ كنتِ تعتقدين أنكِ تعيشين تحت حصار،

على الرغم من أنه لم يكن حولك أى سور من أى نوع؟ انظرى للخلف، وتذكرى حقيقتك وأنتِ فتاة شابة، انظرى إلى محاربتك للتقاليد بهذه العيون الحكيمة التى تتحلين بها اليوم يقيناً. ماذا ترين؟

أيمكننى أن أقول لكِ أنا ماذا ترين؟

إنكِ ترين فتاة تصارع وتجاهد من أجل حماقات. تشعر بحدسها أن هناك من حولها شيئاً ما لابد من تغييره ولكنها كسولة للغاية حتى تمارس ذكاءها بالكامل؛ فهى تحب ما تتمتع به من مزايا ولا تستطيع أن تتخيل الاستغناء عنها.

عزيزتى، إن معركتك السابقة ليس لها قيمة تذكر. قد يمكننا أن نلخصها فى اثنين أو ثلاثة محاور رئيسية وهى عدم الخروج من البيت وعلى الوجه مساحيق تجميل أو ارتداء الملابس غير اللافتة للانتباه، أيما كانت المناسبة، وبالطبع رفضك أن تنامى معى فى نفس الفراش. اغفرى لى قساوتى، ولكننى وصلت لمرحلة من حياتى يجب فيها أن أصيب الهدف مباشرة (اعتبريها ضرورة طبيعية وبيولوچية). أرجوكِ، إذن، أن تقرئى رسالتى هذه بهدوء وحيادية، وأن تأخذى فى الحسبان أنكِ بينما تقرئين هذه الكلمات، أنا أنظر إليكِ بعيون ملؤها الحب والمودة، حتى وإن كانت نظرات أختلسها، فكما هو معروف دائماً عن منزل ڤيللافورستا الممانعة التى تصل إلى حد الكره والنفور من إظهار الحنان والعذوبة الكامنة فى القلب. لقد تعلمت أن أحرص جداً على قسوة الوجه

والتصرفات ومنذ صباى أبلغ راحتى فقط فى الوحدة والسكون. لذا كانت طبيعتى وتربيتى تفرضان علىّ إخفاء حبى ومشاعرى، ولكن هذا يرجع أيضًا إلى أن روحى وميولى الطبيعية تقتضيان تعبيرات ملائمة للأحاسيس التى أكنها لكِ. لم ترغبى أبدًا فى سبر أغوار عيوبى الكثيرة، لم تشئى حتى أن تفترضى مجرد الافتراض أنه كان بإمكانى أن أكون أفضل صديق وحليف وسند لكِ.

منذ اليوم نفسه الذى طرح فيه والدك اسمى عليكِ، غدوت فى نظرك العدو الذى يتعين هزيمته، بأسلحتك طبعًا ولقد قمت باختيارها بعناية، كما كانوا يفعلون قديمًا قبل الشروع فى المبارزة، حينما كان اختيار السلاح يعتمد على مهارة الخصم، وظروف المناخ والمواهب الخاصة لكل شخص. لم يكن هناك سبيل للمخاطرة وإلا فسيكون البقاء على قيد الحياة على المحك.

وبكل براعة ومن خلال الصمت وعدم الاكتراث والبرودة فى الأحاسيس أطحتِ بى أرضًا بالضربة القاضية. ما كان بوسعى أن أفعل أى شىء كى أعلن تمردى واحتياجى، بالشكل الذى تسمح به طبيعة متعالية حادة مثل طبيعتى.

ماذا تريدين؟ كان المبدأ الذى يسود علىّ آنذاك هو:

إمـــا الكل أو لا شىء على الإطلاق، وبين الكل أو اللا شىء على الإطلاق، أعرف اليوم أنه هناك درجات متفاوتة لا نهاية لها. أعرف أنه،

بدلاً من محاولة شق تحصيناتك المصفحة، كان الأجدر بى أن أكتفى وأرضى بالثغرات البسيطة التى كان من الممكن أن تتفتح أكثر مع عذوبة نظراتى لكِ، متى تعلمت أن أفصح عنها وأظهرها. لكن لا يمكن أن نطلب من جواد منهك القوى أن يفوز فى المسابقة الوطنية الكبرى، وأنا على يقين من اتفاقك معى حول قوة وتأثير هذه الصورة المجازية...

ربما قد يكون من السهل عليكِ اليوم أن تكتشفى أنه، بغض النظر عن الرأى القاتم والكاريكاتيرى الهزلى الذى كونته عنى، يوجد على العكس عقل وروح أقل تفاهة مما كنت تعتقدين. لكن، بالطبع، فات أوان هذا اليوم، بل إنه قد فات الأوان منذ أكثر من خمسين عامًا. ربما لا يكون من كرم الأخلاق أن أذكّرك الآن بتصرفاتك وسلوكك هذا، على الرغم من أننى أعتقد أن مواقفك السابقة حيالي كانت أقل كرمًا بكثير، كنت ترفضين أن تأخذى فى اعتبارك إمكانية، مجرد إمكانية، أن أكون رجلاً مختلفًا عن الشخص الذى كنتِ تتصورينه، وعن ذلك الشخص الذى كنتِ ترقبينه بكل نفور واشمئزاز حينما كان يقترب منكِ ليلاطفك ملامسًا وجنتك، أو ليعانقك بقوة. كم كان كبيرًا الاحتقار الذى رأيته فى عينيكِ الجميلتين، احتقار عميق لا حد له، ربما لا يماثل سوى كبريائى وغرورى المستتكر الذى كان يهدأ نوعًا ما، فقط نوعًا ما، حينما كنت أوجه إليكِ بعض الأفعال التى تنم عن شر وضيع. كنتِ تعتبرينها إهانات، الآن يمكننى أن أفسر لكِ برصانة وهدوء أنها كانت وسائل

دفاعية بسيطة. تراودنى رغبة فى الابتسام وأنا أفكر أن هذه الرسالة قد تسبب لكِ بعض الارتباك، لا أريد أن أقول بعض الاضطراب؛ إذ قد تبدو هذه مزاعم لا أساس لها، وهنا أختم قصة مشوارنا الشخصى. من يدرى؟ لعلنى أبدو لكِ، فجأة، نسخة مراجعة ومصححة من ذلك السفاح الوحشى الذى تشرف بالفعل بالزواج منكِ.

عيناكِ! كم تواترت عليهما أحداث مشحونة بنفاذ الفكر والإعتام، وعلى مدار أعوام تُعد على أصابع اليد الواحدة.

على اعتبار معاملتك لى فى الماضى، أنا لا أكن لكِ، ولا أعرف أن أكن لكِ، حتى إن أردت، أية بغضة أو حقد. تحفظك الجليدى الممزوج بالاحتقار وعدم الاكتراث تسبب فى جروح التأمت الآن بمرور الزمن. فالشيخوخة نافعة على الأقل فى أنها تخفف من حدة الخلافات القديمة.

أطلب صفحك عن الانطباع الذى قد يصل إليكِ بسبب بعض كلماتى القاسية فى هذا الخطاب الطويل. وأزداد إدراكًا أن الكلمات المكتوبة نادراً ما تنقل نعومة وحرارة العفو المرجو، حينما نطلبه أو نمنحه.

أتطلع بكل شغف أن تكتبى لى الرسالة التى أنتظرها، وألا ترفضى، بسبب كرهك لى، الطلب الذى طلبته منكِ حبًا فى ابنى، فالحياة

غالبًا ما تضطرنا إلى حلول وسط فيما يخص مشاعرنا وأحاسيسنا، ولا محالة أنكِ أدركتِ هذا أنتِ أيضًا أثناء حياتك فى الريف. وتبدو هذه الحلول غير محتملة الوقوع حتى فى الروايات المسلسلة. وهذا الحل الوسط الذى أرجوه منكِ هو واحد من بين تلك الحلول.

أعتمد على ذكائك فى الحكم على كلمات رسالتى.

أُقبل يدك.

فرنشيسكو

٤

فكرت مليًا وطويلاً.

نمت نومًا متقطعًا وهذا الصباح أعانى من ألم فى الرأس. تحضر لى لاسانتا قرصين من ساريدون وتطلب منى أن آخذهما على مسافة بضع ساعات، إلا أننى أعرف دواء أكثر فاعلية. أنادى على دينو وأخبره ألا يقلق إن عاد ولم يجدنى جالسة على مكتبى، فأنا لم أهرب، وسوف نقوم بعمل الحسابات فى وقت لاحق. دائمًا ما يردد على مسامعى ساخرًا "لا داعى للعجلة، فهناك دائمًا متسع من الوقت للدفع". أما أنا فأذهب عند المحامى ريكورسى.

تحسنت حالته، وعاد نشيطًا ومرحًا كسابق عهده. مر جيرانه عليه لتحيته وأحضروا له بعض الحلوى من مدينة لوكى، لا تعجبه، على حد تعبيره البسيط: "ولكن الشيء الجميل أنهم فكروا فىّ".

لا وقت لدىّ للمجاملات وأقول له هذا صراحة، يلزمنى رأى مهنى متخصص. ينظر إلىّ، مندهشًا، وهو يبتسم ابتسامة مخيفة: ربما تكون قد مرت عشرة أعوام لم يستشره فيها أحد. أمد يدى له برسالة، كتبتها على عجالة على ورق مربعات من الكراسة، وكتبتها بالقلم الجاف. لا أعرف الكتابة على الآلة الكاتبة ولست أريد أن يعرف أى شخص آخر، فيما عدا المحامى ريكورسى، ما هو مكتوب بالرسالة.

– اسمع، يا متر، وانظر إن كنت قد تصرفت حسنًا، لا أدرى إن كان هذا ما يجب عمله، إن كان يتحتم علىّ أن أوقع أمامك كشاهد، أم لا، إن كان يجب علىّ أن أذهب للموثق، خلاصة القول لا أعلم. قل لى أنت من فضلك.

– كيف؟ ماذا تريدين أن تعرفى؟ تكلمى من فضلك.

– اقرأ لو سمحت. هنا مكتوب ما هو الشيء الذى يؤول، وإلى من يؤول.

يقول ريكورسى وهو غير مصدق:

– ما المقصود؟ هل هذه وصية؟

ثم يستطرد قائلاً بكل فضول:

– حضرتك؟!

ثم يبتسم ابتسامة عجوز خرف.

– هيا، لا تهزأ كثيراً من الأمر. على الأقل، حاول حضرتك أن تأخذ الموضوع مأخذ الجد، وحتى أنا لا أعرف لماذا فعلت هذا.

– ربما فعلتِ هذا بسبب السن. اغفرى لى، ولكن أحلى سنين العمر قد انقضت بالنسبة لى ولكِ.

أوجه إليه نظرة صاعقة.

– لا تؤاخذينى. من يدرى لماذا أسمح لنفسى بحرية الخوض فى بعض الأمور...

– بالضبط، من يدرى لماذا تسمح لنفسك بهذا.

أتظاهر بأنتى لم أر إشارته لى بالجلوس. أريد أن أضع نهاية سريعة لهذا الأمر. يلقى ريكورسى بنظره على محتوى خطابى، ثم ينظر إلىّ مباشرة ويقول:

– كيف هذا! وأنا الذى كنت أعتقد... كلنا كنا نعتقد... لا تؤاخذينى، لكن...

– حضرة المحامى، لقد مضى وقت طويل حقًا على عدم ممارستك المحاماة! لقد نسيت حتى القواعد الأساسية لآداب وأخلاقيات المهنة، والآن تصل إلى درجة التعقيب... هل أصابك الجنون؟

تحول وجه ريكورسى إلى اللون الأحمر القرمزى، لدرجة أننى للحظة تخيلت أنه سيصيبه أذى، ولكنه تمالك نفسه وأكد لى أنه سيتولى الأمر برمته، حتى لا يكون هناك لبس أو سوء فهم بخصوص ما أريد أو ما لا أريد أن أفعله. تبادلنا التحية، بشىء من البرود. وعلى الباب قال لى ريكورسى محاولاً التغلب على حرجه:

– سامحينى من فضلك... لقد خاننى الذوق العام وأصول المهنة...

كل ما فى الأمر أننى كنت أعتقد... كنا كلنا نعتقد... نظرًا لحبك لـ دينو... أقصد أن أقول... "المحمية"...

هذا المحامى ريكورسى لديه المقدرة على إثارة غيظى وغضبى أكثر من أى شخص آخر.

– لا. ليس الأمر هكذا. "المحمية" ملكى. أكثر من أى شىء آخر، صدقنى. لقد وصلت هنا وأنا أناهز الثلاثين من عمرى، ومن وقتها لم أترك هذا المكان أبدًا، أترى هذه التلال، والغابات وحقول الكروم؟ سبق أن قلت لك إنها ملكى، إنها أكثر من كونها ملكًا لى، إنها أنا.

– كيف؟

– انظر بانتباه، يا حضرة المحامى. حسنًا، إنها أنا التى تنظر إليها، وليست منظرًا طبيعيًا. أنا هى هذه التلال، وهذا البيت والبرج، والبئر وأشجار الزيتون. أنا هى الكرم والنبيذ فى الزجاجات الموضوعة فى القبو.

يستند ريكورسى على قائمة الباب، كما لو كان يريد الاحتماء من برد هذا الصباح القارس.

يسألنى بلهجة نائحة تقارب التوسل:

– ألا تريدين قليلاً من القهوة؟

تحت فتحتى الأنف، يلمع وميض ضوء وكأنه على وشك أن يصاب بالبرد، وفجأة أشعر بالشفقة عليه، فى شيخوخته هذه ووحدته وأسلوبه المجامل المتذلل وكأنه مستضعف خانع. لماذا لا يطردنى، ويتخلص من وقاحتى ولهجتى الحادة الخشنة، كما أستحق؟ ها هى، معجزة ريكورسى، إنه عاش حياته كلها مثل غواص فى غواصته، يحميه من شرور العالم فلتر غير قابل للاختراق يخفف صوت كل ما لا يرغب فى سماعه، ويغشى كل ما لا يرغب فى رؤيته، ويضعف الحواس ويبطئ من حدة الانفعالات.

أقول له:

– نعم، أشرب قهوة بكل سرور، لكن دعنى أنا أحضرها.

خطابى موضوع على مكتبه غير المنظم. يشير إليه ريكورسى قائلاً:

– هل أنتِ واثقة؟

أجيبه:

– أتعرف، يا حضرة المحامى، أنه حينما أتيت إلى هنا بمفردى...

أود أن أحكى لـ ريكورسى عن شقيقى الذى كان يتمتع بعيون سوداء وضحكة مرحة لم يُسمع صداها أبداً فى بيتنا. أود أن أحكى له عن ذلك الألم الذى لم ننجح أبداً فى إخراجه خارجًا، لا أحد منا كان يستطيع ذلك، لم يكن من المسموح إظهار أية انفعالات أو أحاسيس، حتى بعد أيام قليلة من مراسم الدفن الرمزية؛ إذ كان قد وصل من أفريقيا بعد شهور كثيرة من وفاته؛ لاستيفاء إجراءات بيروقراطية وأمور أخرى، على متن باخرة شحن إنجليزية، كانت تحمل طرود بضاعة من القطن المصرى، وجوز الهند وبضائع أخرى قادمة من المستعمرات الإنجليزية، لم يكن من المسموح البكاء أمام الناس، ولا حتى إظهار احمرار العينين.

لو كان يفهم، لشرحت له أن كل الدموع، وليس فقط التى أذرفها من أجل أنريكو، و التى لا تُحدث تجويفًا فى الوجنتين، تذهب إلى مكان آخر، تحفر بداخلك، فى أعماق نفسك مثل بعض الأنهار، بل على

العكس، فهى تجرى فى قنواتها بقوة وعنف تحرق وتستنزف وتستهلك القلب والعقل مثل فاكهة الكاكا غير الناضجة.

-... كان يوم أحد. كان أدو، المهتم بشئون المزرعة آنذاك قد صعد إلى قمة البرج ليدق الجرس. كانت هذه طريقته كى يخبرنى بمقدار سعادته بوصول سيد إلى "المحمية" أخيراً. كنت قادمة من تورينو، على متن سيارة غير مريحة بصحبة كومة من الأمتعة ومن المخاوف، يعلونى التراب بفعل طريق فى غاية السوء، قلما كان مسفلتًا. كنت ميتة أكثر من كونى حية، يفزعنى ظلى. كان كل شىء من حولى يعجبنى، كنت أفكر أن هذا المكان يوجد هنا من أجلى، دائمًا ما كان موجوداً من أجلى، كنت أعتقد أننى أشعر تجاه هذه الأماكن بنفس الجاذبية غير المفسرة التى يشعر بها المرء تجاه محبوبه، وصدقنى أنا أعرف عما أتحدث.

- لكننا هنا كنا نموت جوعاً، يا كونتيسة، وإن اتجهنا نحو الجنوب، تجاه الساحل، فى ماريمّا، كان الناس يموتون من الملاريا.

- انظر يا ريكورسى، لقد تقدم بى العمر وشخت سريعًا، تسرب قرن كامل من بين أصابعى فى نفخة. بالنظر إلى الوراء، يبدو لى أن عمرى لم يتجاوز العشرين حتى أمس الأول. ولكن على العكس عمرى يزيد عن الثمانين سنة، على الرغم من أن الجميع يتظاهرون بعدم التفكير فى هذا. وكما يُقال فى لغة كرة القدم،

نحن لاعبون احتياطيون، حضرتك وأنا، فى انتظار الخروج وليس اللعب. يتعين علىّ أن أقول لك، مع هذا، وبكل صراحة، إن التغيير الأعظم، وغير المتوقع على الإطلاق، هو ذلك التغيير الذى حدث هنا. هل تتذكر كيف كانت "المحمية"؟ انظر إليها الآن. منظر بديع. أحيانًا كثيرة فكرت أننى لن أنجح أبدًا فى مهمتى؛ فالعمل شاق جدًا جدًا، عمل خشن، يتطلب تضحيات لا حد لها. وعلى العكس... فى النهاية كنت أشتم رائحة الهواء، مثل كلب صيد. كنت أشاهد كيف يغير ضوء الشمس الألوان، وأستمع إلى كل الأصوات المختبئة فى السكون؛ فهى كثيرة للغاية، هلا عرفت؟ لا يمكن أن تصدق كم عددها. أكثر من روائح النبيذ الطيبة.

حينما أشرع فى الحديث من جديد، بعد وضع ماكينة القهوة على النار، يحدق فىّ ريكورسى.

– أتعتقد أننى غير واعية إلى هذا الحد حتى لا أنتبه بعد مضى وقت طويل أن دينو أيضًا يشاركنى حبى "للمحظورة"؟ أتعتقد أننى لا أدرى، وأن المياه البيضاء (الكتاركت) قد أظلمت ذكائى أيضًا، فضلاً عن البصر؟ أنت تخطئ. أنا أعرف ذلك جيدًا، وأفضل منك. أنا أعرف كل شىء عن دينو. كل شىء.

يفرك ريكورسى يديه ويقاطعنى:

- سامحينى إن سألتك هذا السؤال، لكن لماذا لم تذهبى للبحث عن السعادة فى مكان آخر، وكنتِ تقدرين على ذلك؟

- ريكورسى، إن السعادة والرضا يتلخصان فى حماقات ويرضيان بحماقات ويعتمدان على حماقات... و... إنها مسألة ميول طبيعية واستعداد مثل الميل الطبيعى للموسيقى... أو للعثور على المشروم الثمين بين أشجار السنديان مثلك. هذا كل ما فى الأمر. تولَّ الأمر بحيث تجعل رغباتى تُحترم، واستخدم كل التفاصيل الدقيقة التى تراها مناسبة. أريد تقسيم "المحمية" عند وادى سانتا ديلفينا، وأن يكون حوالى مائتى هكتار ملكًا لـ دينو، وتوابعها من العزب والأراضى، ومائة هكتار لـ إيمونى ڤيللافورستا، والذى لم أره أبدًا شخصيًا. ضع كل القيود والشروط التى تراها ضرورية، أنا أعطيتك كارتًا أبيض للتصرف بكل حرية، على ألا يستطيع ڤيللافورستا أن يبيع أرضى الزراعية لآخرين، فيما عدا دينو نفسه أو أبناءه من بعده. من الضرورى أن يكون هناك شرط أو مانع يسمح بذلك، لا مفر من التصرف هكذا.

لكن...

ياحضرة المحامى، لقد أدركت أنه يوجد احتمال – لا أقول يقينًا – ولكن احتمال أن أكون قد تسببت فى أضرار كثيرة، ونحن

نتقدم فى العمر ومع الشيخوخة نلين ولا أستطيع أن أنعم بالسلام والسكينة.

- ليتك تعرفين مقدار الظلم والقسوة التى رأيت الناس يمارسونها خلال خمسين عاماً من مزاولتى للمهنة. صدقينى حضرتك، غالباً ما تُقترف بحسن نية.

يتمتم ريكورسى بصوت منخفض، وينظر حوله كما لو كان لا يعرف أين يجب أن يستقر بصره.

- ماذا دهاك يا حضرة المحامى؟ لا تجعل منه أمراً شخصيًا. فأنت تمدنى بعون مهنى، أظن أنها مهنتك. فماذا يقلقك؟ السيد ڤيللافورستا؟ إنه زوجى، كما تعلم. لابد أنه ورد عليك حالات زواج كارثية، أتخيل هذا. لم يحالف زواجى الحظ، وأنت تعلم هذا. فماذا إذن يثير قلقك؟ هل هو ڤيللافورستا من يثير ذعرك؟ هيا، إنه ليس إلا سيداً كهلاً، مستكيناً فى بيته فى تورينو، ولم يره أحد خلال خمسين عاماً. على الأقل حتى أول أمس.

ارتعد ريكورسى واحمر وجهه.

- ما الأمر، يا حضرة المحامى، هل لى أن أعرف؟

- لا شىء على الإطلاق، لا شىء على الإطلاق. هل أنتِ متأكدة أنه لم يظهر البتة طوال هذه المدة؟

- متأكدة يا حضرة المحامى، بل على يقين تام.

- خمسون عامًا زمن طويل. لعل زوجك حاول... لا أحد يستطيع أن يجزم بشىء... ولم ينجح...

لا أعرف كيف أشرح لـ ريكورسى حقيقة ما أشعر به حينما أغلق عينى وأرى ڤيللافورستا أمامى ساكنًا لا يتحرك، وأنا أخبره أننى ماضية.

ينظر ڤيللافورستا فى ساعة جيبه، هديتى له بمناسبة الخطوبة، ولا يقول سوى هذه الكلمات:

- إنها السادسة والنصف بالفعل. لقد تأخرت. هل هناك المزيد من الأمور التى تستدعى المناقشة؟

- أعتقد أننى سأرحل من تورينو. أفكر فى الانتقال إلى "المحمية". إنه، فى رأيى، أنسب شىء أفعله.

- يسألنى فرنشيسكو متهكمًا بينما يقبل يدى لتحيتى:

- أنسب شىء تفعلينه؟

وعلى باب البيت، يرفع ياقة البالطو، ويلتفت لينظر إلىّ. لا أرغب فى أن أروى لريكورسى هذه التفاصيل. حينئذ أقول له إنه ربما أتصرف لأسباب ودوافع مختلفة تمامًا.

على العكس تمامًا، أنا لست بواهنة ضعيفة لا حول ولا قوة لى؛ فأنا لا أزال أشعر بجسارة الأسد، بل بوحشيته، ومن خلال هذه الهبة والمنحة غير المستحقة أريد أن أبرهن لشخص ما أنه أخطأ فى حقى، مرة، مائة مرة، ألف مرة، وأنه لم يفهم أى شىء عنى، عن كيف كنت، لا شىء البتة. أو...

-- أترك لحضرتك الاختيار فى أن تعتقد كيفما شئت يا حضرة المحامى. ولكن لا تأخذ فى تقصى الأسباب والتحرى عنها، اكتفِ بالنتائج والآثار المترتبة عليها. ها أنذا أسلم بموجب هذا المكتوب شيئًا ما لشخص كان قد طلبه منى، قبل وقت طويل مضى.

يرقبنى ريكورسى، وقد امتُقع وجهه، ثم يبادر بعمل شىء لم يفعله أبدًا طوال سنين كثيرة؛ إذ يقترب منى، ويمسك بيدى ويضمها ويشد عليها بين يديه.

أنا أكره التأثر، أى نوع من التأثر، وبالتالى أهرب، منتزعة يدى من قبضة يد ريكورسى وأرتدى المعطف دون حتى أن أستدير لتحيته. يبدو لى أننى أراه، من ورائى، وقد ارتبك وقطب جبينه وهو يرى يده شبه معلقة فى الهواء لا يدرى إن كان عليه أن يتبعنى أم يتركنى أذهب، ومع ذلك لا أتوقف ولا أنطق بكلمة.

بعد خروجى من عنده، وبينما أنا أقود سيارتى ببطء وأصعد منحنيات الطريق للعودة إلى المنزل، أدرك أن ألم الرأس قد زال، وهذا معناه أننى أستطيع، وبطاقة لا بأس بها، أن أتفرغ للترتيبات الأخيرة الخاصة بحفل الاستقبال الذى أقيمه. توقف المطر لتوه وتحول لون السماء إلى لون داكن كما فى لوحة تصور القرن السابع عشر. بينما أقود السيارة وبينما أهبط من سيارتى المرسيدس وأتجه ناحية المنزل، أشعر بأننى خفيفة وهشة وشفافة كما لو كنت بأجنحة بدلاً من الذراعين ويذهنى أفكار مرحة كتلك التى تتمتع بها فتاة صغيرة.

أركض نحو المنزل لأكتب رسالة.

-٧-

الحفل

١

ينحنى تروت علىَّ. يلامس بأحد أصابعه جبهتى وأنفى وكتفى بخفة كما رأيته يفعل وهو يكتشف إحدى اللوحات التى يتيم بها ويمرر سبابته على سطحها كى يحس بطبقات الطلاء والدهان، فيتوصل إلى أى رتق أو إعادة طلاء مما لا يُرى بالعين المجردة. يتبع نفس الطريقة معى وبإصبعه الخفيفة، بينما لا أزال عارية وفاترة، يساير جانب وجهى، يحصرنى فى صورة خيالية ويقتطعنى خارج نطاق حجرة نومنا. أمسك بوجهه بين يدى. عظام وجهه رقيقة، وقسماته دقيقة، وحاجباه الشديدا التقوس يمنحانه نظرة عالقة، كنظرة دهشة شديدة. تظهر عليه علامات الزمن وأراها متمثلة فى التجاعيد الصغيرة حول عينيه، وتشقق الشفاه وعلامة غائرة فى جبهته تبدأ من بين الحاجبين وحتى بداية الأنف، وكأنها علامة بالقلم أكثر من كونها تجعيدة حقيقية. أجد نفسى فى هذه التجاعيد، كما وإن كنت أشاهد نفسى فى المرآة. أنتظر طفلاً، أعرف هذا الخبر منذ أسبوعين ولكننى لم أمتلك الشجاعة كى أخبره.

– هل أنت سعيد معى؟

تروت لا يجيب، بل يبدأ من جديد فى تحديد إطار وجهى بأصابعه، ويداعب بطنى ويقبلها. أسأله مجدداً، يساورنى قليل من القلق:

– هل أنت سعيد بأنك وجدتنى ثانية؟

– وجدتك ثانية؟ يسألنى تروت وهو يرفع رأسه وينظر إلىَّ، مندهشاً. ويكرر قائلاً:

– وجدتك ثانية؟ أنا لم أفقدك أبداً. فأنتِ كنتِ دائماً معى.

أنا الآن التى أنظر إليه فى استغراب. ماذا يقصد بقوله هذا؟ أتركنى أنتظر كل هذه السنين، عالمًا أننى لن أتحرك أبداً، مثل الحجر أو العمود الذى يدل على الأبعاد بالأميال عند منعطف الطريق، والذى التفت من حوله، على مدار السنين، عربات نقل اللبن والتبن، ثم سيارات الألفا روميو الزرقاء لصاحبها الكونت مارتينى وعربات الچيب الأمريكية وحافلات الألمان واليوم السيارة النقل الصغيرة الخاصة بماريو والأوتوبيسات المتجهة إلى فلورنسا؟

انتبه تروت إلى نظرة الاستغراب فى عينى، وهو يضمنى قريباً منه: يعانقنى بشدة وبقوة حتى يجعلنى أحبس أنفاسى، ثم يهمس فى أذنى:

– إننى فقدت أشياء أخرى، لكن لم أفقدك أنتِ. هيا، ارتدى ملابسك. لننزل عند ضيوفنا؛ فهم ينتظروننا.

ينقل المذياع هذه الكلمات:- لقد قال شعب إيطاليا كلمته.

يريد أن يقول فقط إننا ذهبنا كلنا تقريباً للإدلاء بأصواتنا.

صوت المعلق على الأخبار عال وحاد ولابد أنه تنقصه المفردات والتعبيرات الملائمة؛ إذ أنه كرر لأكثر من عشر مرات هذه العبارة "إن نسبة التصويت تبرهن على نضج الشعب الإيطالى السياسى ووعيه"، فبعد نصف ساعة من تكرار هذه الكلمات، نفقد صبرنا جميعنا ونغلق المذياع. لقد ذهبنا للإدلاء بأصواتنا أمس الأول فقط. وإن كنا قد قمنا كلنا "بواجبنا"، فالأمر يستلزم على الأقل نصف أسبوع لإحصاء كل الأصوات.

فلنذهب فى نزهة على ظهر الجياد إذن.

يتفق ضيوفى معى فى هذا الرأى.

ذهب ماريو إلى سيينا، وسوف يقضى هناك اليوم كله. عهدت إليه نوڤيللا بابنتها؛ لأنها مشغولة بالطهى لنا.

أما بالنسبة لتروت، فهذا الصباح أيضًا، صباح يوم الثلاثاء، بدلاً من أن يأتى معنا للقيام بنزهة على الجياد، فإنه يفضل البقاء والقيام ببعض الأمور المنزلية التى لا أعلمها، فأراه يبتعد بصندوق العدة ويختفى ناحية الجراچ. لا يرتدى ملابس سيد المنزل الأنيقة، ولا يتوقف للحديث مع الضيوف، بل إنه يجد أعذارًا وحججًا مستمرة كى يبقى وحده. لست

أدرى إن كان الأمر عبارة عن لياقة ورهافة حس، فأثناء الليل ينام معى، غير أن الليل يُعد منطقة حرة. فى الصباح، يفضل الثرثرة مع ماريو ونوڤيللا ويقضى ساعات طوال عند حقل الكرم.

يؤسفنى عدم مجيئه ولكننى لا أستسلم. أذهب وراءه وألح حتى يلحق بنا، على الأقل فيما بعد. لكن تروت يقول لى إنه سيذهب فى وقت لاحق لزيارة ذلك المحامى الذى ينجح دائمًا فى تعكير صفو مزاجه.

وبسؤالى عن السبب، يرفع كتفيه ثم يطبع قبلة على وجنتى ويبتسم ويقول:

– اذهبى أنتِ واستمتعى بوقتك.

يعتقد أودونى أنه ينبغى علىَّ أن أزيد فى إلحاحى وأجعله يغير رأيه، فاليوم السماء صافية جداً. غير أن أودونى لا يعرف أن تروت ليس من أولئك الذين يغيرون رأيهم بسهولة.

٢

يتعين علىَّ أن أقوم بنزهة فى الغابة، ولكننى أشعر ببعض القشعريرة. لا أريد أن أمرض، فأنا قد رتبت ونظمت لإقامة حفل.

قررت أن أدعو زوجى أيضًا كتابةً. أكتب سطورًا قليلة، لطيفة مهذبة دون خشونة.

أحسب أن كلاً منا يدين للآخر ببعض التوضيحات.

لا أرى ڤيللافورستا منذ قبل الحرب، فأنا لا أعتبرها زيارة ذلك العناق السريع الذى تبادلناه وقت جنازة أبى، حالما كانت عيون المدينة بأكملها موجهة نحونا تراقبنا وترصدنا، ويتخيل الجميع عاهرة "تشيريه" اللافتة للانتباه ذات الشفاه المصطبغة التى أخذت مكانى. لم يتكبد فرنشيسكو مشقة الحرب كثيراً؛ فهو لم يحارب ولم يختبئ فى الغابات على حد علمى.

بالكثير، أزعجوه وأثاروا الارتباك فى مواعيده بسبب حظر التجوال، وربما أوصدوا أبواب أماكن لقاءاته المفضلة؛ إذ أحرقوا النادى واضطر أن يلعب الورق فى بيت أحد أصدقائه. نما إلى علمى أنه أبداً ما رحل من منزلنا، وإنما مكث على الأكثر فى القبو أو فى ريڤيلياسكو، أثناء أوقات القصف العنيف، كان القانون يتيح له أن يبقى فى أمان ويرعى مصالحه؛ لأنه كان يندرج تحت فئة "الأبناء الوحيدين الذين يعولون أمهات أرامل" (على الرغم من أن حماتى إيرينى لا توحى أبداً، لأى شخص، لأى شخص فعلاً، أنها امرأة ضعيفة تتشح بالسواد).

أما فيما يتعلق بى، فكل مرة، طوال هذه السنوات، وجدت نفسى مرغمة على العودة إلى تورينو إما لدواعى عزاء وجنازات لا يمكن تأجيلها أو إمهالها، وإما لشئون ميراث أو تقسيم التركات، كنت دائماً ما أحاول جاهدة أن أتجنب أى لقاء محتمل.

لا تزال رسالة ڤيللافورستا هناك على المكتب حيث تركتها مفتوحة منذ بضعة أيام، وأراها كلما ألتفت يمينًا أو يسارًا، كل تلك الأوراق الصلبة ذات الأطراف المسننة، وهل يمكن ألا يكون هكذا ورق الرسائل الذى يستخدمه ڤيللافورستا؟، كما لو كانت طلقة إنذار وتعنيف حاد، ومع ذلك لا أقرر أن أضعها فى المظروف وإيداعها أحد الأدراج أو تمزيقها، فلنقل إننى لا أرغب فى أن أمسك بها بيدى، لا أرغب فى أن أكون مضطرة ومجبرة على التذكر.

فأنا أغوص بالفعل فى الذكريات. لقد انكسرت حواف الذاكرة وبالكاد أطفو على السطح وقد تزايد إنهاكى وتعبى. وبين الحين والآخر، أغطس برأسى لأسفل.

تتكهن لاسانتا بالأمر.

لا أدرى كيف تنتبه أحيانًا للتو واللحظة إلى أن هناك شيئًا ما لا يسير على ما يرام، وفى سرعة السرعوب، تعمل ما ينبغى عمله، تنادى ابنها بأى عذر وتتركه يجرى ويتسكع من حولى. بيتى كله، بالنسبة لذلك الطفل، هو عبارة عن قلعة ساحرة، مليئة بالأماكن الغامضة والمفاجآت، طيور محنطة، رؤوس خنازير برية ذات أنياب مصفرة غير أنها لا تزال مرعبة، مفاتيح ضخمة من البرونز لا أدرى طبيعة الأقفال التى تفتحها، وحتى أن هناك سيفين مقبضهما من الفضة معلقين فى كأس على

الحائط، ويندس تومازو فى كل مكان وتعيدنى ضحكاته إلى الأرض التى نعيش عليها. أسأله:

– ما الهدية التى تريدها على عيد الميلاد؟

يرد رداً جاهزاً:

– بندقية تحت الماء.

بندقية على عيد الميلاد؟ هل أنت متأكد؟ لا تحسب أنه يمكنك الصيد فى عيد الميلاد.

يجيبنى:

– لا أحد يدرى، من الأفضل أن يكون لدىّ بندقية.

٣

نحن ثمانية أشخاص. نينا، حفيدها، إيريس وكارلينو، أودونى وتروت، ثم ريكورسى وأنا. سنصبح تسعة إن تسلم ڤيللافورستا دعوتى فى الوقت المناسب وقبلها.

أخرجنا خارجًا منضدة مستديرة حيث يمكن لعشرة أشخاص الجلوس على راحتهم. أعتقد أننى سأستخدم الشمعدانات الفضية التى

أحضرها أبى من بيرو وورثتها عنه، ليست جميلة ولكنها عالية بدرجة تكفى لحمل الإكليل الصغير المصنوع من الأوراق والصنوبر الذى تنتهى لاسانتا من ضفره. لم تقم أبدًا بضفر تاج، ومع ذلك تعلمت سريعًا بحق، بمجرد أن كشفت لها عن الحيل التى أستخدمها. على أية حال، أعتقد أن لاسانتا تعتبر أن ضفر التيجان لهو علامة أكيدة لا ريب فيها على هطلى، فهى على الأرجح لا تفهم المقصود، فيمكننى الاتصال ببائع الورد فى المدينة وطلب دستتين من الورود، أو، وهذا أفضل، أن أعهد إليه بالشمعدانات، على أن يجهزها هو ثم يعيدها إلى منزلى، قبل الدعوة بساعتين، بعد أن يكون قد أعد تشكيلة جميلة ورائعة من الورود. بالطبع، لن أقوم أبدًا بعمل شىء من هذا القبيل، فالفرق بين باقات الزهور الفخمة تلك وبين أوراق البلوط الأخضر المتواضعة التى أعدها أنا بنفسى يساوى العالم بأسره.

جارى العمل فى الجراچ، حيث ركب دينو محورًا على حامل ومرر لمبتين صغيرتين للحصول على قدر من الضوء. أحب أن أضع تاجًا من الزهور على باب المدخل أيضًا، فأوراق البلوط الأخضر والسنديان والفلين مبهجة جدًا. يجىء دينو ويروح فى صمت، فهو دائمًا أبدًا مزدحم بالأعمال، يفحص سخان المياه حتى لا يحدث به سدد مرة أخرى، كما كان الحال فى الخريف الماضى، يتأكد أن البيت لا ينقصه شىء، الخشب للمدافئ، لمبات، فدائمًا ما يحدث عطب بها فى اللحظة

الأخيرة، ويأتى ليتحقق من أننى لا أحتاج لشىء، وهل يلزم سلك حديد آخر أو مقصات أخرى أو دلو مياه آخر.

قررت أن نأكل الديوك البرية التى يصطادها دينو، والتى تمتلئ بها الثلاجة، سنقدم بطبيعة الحال النبيذ والزيت اللذين ننتجهما، والخنازير الصغيرة والبيض والخضروات والكستناء. والخلاصة، أن هذه الأرض تعد جنة وبها كل ما يلزمنى حتى وإن أردت أن أجهز لوليمة ملكية.

قامت لاسانتا بتقديم طاقم النساء الذى يعمل معها، «مساعداتى»، كما يحلو لها أن تدعوهن بكل فخر. وهى ابنة خالها، امرأة قوية البنيان، ذات وجنات حمراء وتدعى چيما، وأوليتا، ابنة چيما، وهى فتاة بديعة كان من المفروض أن تعمل كعارضة أزياء بميلانو بدلاً من أن تبقى ملازمة لأمها لا تفارقها.

- اعرفى أن ابنتك هذه رائعة الجمال.

- لا تحدثينى عن هذا، فحالتها ميئوس منها. تقضى طوال يومها أمام المرآة ولا تأكل أى شىء مما أطهوه وتقول إنه يؤذيها! انظرى إليها، تبدو نحيلة كالعصا، وإن كنت أقر وأعترف بجمالها فهى بحق جميلة، ولكن كل الفتيات جميلات وهن فى الخامسة عشرة من عمرهن.

– لا أعتقد أن كل الفتيات جميلات يا چيما. إن أوليتا باهرة، وهى ليست نحيلة. دعينى أقول لكِ إنها تعرف مصلحتها.

– لست أدرى. فإن كان هذا هو رأيك ربما صدقت. هل سيكفى كيلو من الكستناء أم أجهز كمية أكبر؟

تقوم لاسانتا بالتفتيش على نضارة الزهور فى الزهريات داخل كل غرفة وعلى نظافة البياضات، ثم تقسم وتوزع المشتروات فى المطبخ، من يقطع البصل إلى شرائح ومن يقشر أبا فروة، وترسل چيما ودينو وأوليتا وواحدة اسمها دولوريس، ليست من البرازيل وإنما من كاريچى وكل حروف الــ c فى كلماتها تنطقها مثل حرف الهاء وهى مخصصة لتنظيف الفضيات.

أصبح اليوم أى شخص يلمع الفضيات، هذا إن كانت هناك فضيات أصلاً، ولكن حينما كنت طفلة، كان عالم المنزل يحكمه قواعد صارمة؛ فالخادمات يلمِّعن النحاس والخشب، ويمسحن الأرض بالشمع، وينفضن السجاجيد ويلمعن بالريشة فى كل مكان. أما الخدم فمهمتهم تلميع الفضيات، وزجاج النوافذ والجلد؛ أى الحقائب وأحذية سيد البيت. كانت القمصان تُكوى فى الخارج، وكان وجهاء القوم قبل الحرب يرسلون قمصانهم إلى برلين أو، للحصول على خدمة أسرع، إلى الڤاتيكان إن كانت لهم معارف هناك حيث يوجد مكوجيات ماهرات، مدربات جيداً على كى مفارش الهيكل وملابس الكهنوت.

كان المطبخ عالمًا وحده. محظوراً دخول الأغراب فيه. لا أمى ولا جدتى كانتا تطآنه بقدميهما، وحتى السيدة وودروف كانت تدخله عن غير رغبة منها، حينما كانت مضطرة أن تأتى لتأخذنا من المطبخ، لما كنا ندخله لنأكل السكر من خزانة الأطعمة، كان أنچيلو هو الذى يعد قوائم الطعام الأسبوعية وقوائم حفلات الاستقبال المهمة طبقًا لتعليمات وإرشادات والدتى بصفة عامة. كان هو الذى يقرر نوعية أطعمة الخدم؛ ففى العادة كانت أنواعًا دسمة من الشوربة، والبطاطس، وقطع من لحم الخنزير مرة أو مرتين أسبوعيًا، وكثيراً من الأطعمة التى كان يُعاد استخدامها وتقدم لنا نحن أيضًا على موائدنا.

كانت أمى تشرح لأبى فى صبر، أثناء الأعوام العجاف،، وهى تنتظر إليه وكأن أمامها طفلاً غبيًا قائلة:

– التوفير الحقيقى هو أن يكون عندك طباخ مثل أنچيلو، يعرف إعادة تدوير المتبقى من الطعام الفائض واستخدامه، وطهى الكفتة، والسوفليه، والميرينج، والصلصة الهولندية.

كانت الميرينج والسوفليه والصلصة الهولندية بالنسبة لأمى هى "الطعام الاقتصادى" لأنها أطعمة تُجهز من الفائض من اللحم والبيض المخفوق.

٤

أمس ذهبت إلى سيينا لشراء شيء ما من الصيدلية.

أراد دينو أن يصحبنى بسيارته.

لا يروق لى أن أُعامَل كسيدة عجوز، حاولت مرارًا وتكرارًا أن أرفض عرضه، ثم أننى أكره ركوب سيارته الكبيرة غير المريحة التى يفخر بها كثيراً.

أمقت أن يعتبرنى أحد شيئًا هشًا، وهذا هو الإحساس الذى أشعر به حينما يرمقنى دينو ولاسانتا بهذه النظرات المتألمة المغتمة. يبدو أنهما هناك، وقد تجمد نظرهما وتسمر على ذراعىّ وساقىّ يقلقان من أن أقع على الأرض فتتفتت عظامى لأنهما على يقين من أن مرض هشاشة العظام قد أصابنى أنا أيضًا على الرغم من نزهاتى الصباحية وعلى الرغم من أننى لا أزال أتسلق السلم المؤدى لسطح المنزل، إن اقتضت الضرورة. بالطبع، خفف دينو من ملاحقته الدؤوبة المثابرة لى، وأصبح يقضى وقتًا أطول فى البيت يصلح ما يحتاج تصليحًا هنا أو هناك. لكن أحيانًا لا أستطيع أن أقول له لا، وأن أتخلص من اهتمامه الزائد بى. أسخر منه، أنتهره، وأقول له إنه لديه بالفعل زوجة وابن وأراض زراعية عليه أن يعتنى بها وأظن أن هذا كله يكفى. حينئذ ينظر إلىَّ مبهوتًا، بل مُفاجَأً ويقول لى فى استنكار خفيف:

– ماذا تقولين، كلها أمور فى مقدورى الاهتمام بها!

هكذا هو منذ أن كان طفلاً، فهو دائم الجدية، دائم التأنيب لنفسه، لا يسمح لنفسه بقدر ولو قليل من المزاح والسخرية، مأخوذ تمامًا بمهامه ومسئولياته. كان يرشق بالمقلاع بتركيز شديد وكأنه لاعب شطرنج، تمامًا كما يفعل اليوم مع الأرض، فهو يدير ثلاثمائة هكتار من الأرض الزراعية وكأنه يدير العالم بأسره.

لما هبطت من السيارة، كان دينو يريد أن يرافقنى ولكننى جعلته يتجمد فى مكانه بنظرة واحدة لم يتحرك بعدها.

بمجرد أن دخلت الصيدلية، تراجعت للخلف، فقد تغير كل شىء بالداخل. الطاولة الخشبية العريضة اختفت وحل محلها حامل مطلى باللون الرمادى وكأننا فى مستشفى. على الأرفف اختفى ذلك العدد الذى لا حصر له من الأدراج والأدراج الصغيرة ذات المقابض الصغيرة من الصينى الأبيض، وصف البرطمانات الزجاجية الزرقاء أو الشفافة، بعضها بالسدادة الفل والبعض الآخر عليه غطاء من الصفيح وبعضها أيضًا مصنوع تمامًا من الخزف ولونها سماوى، ومجموعة المدقات، المصطفة جيدًا فى نظام تبدأ من الكبير إلى الصغير، والموازين الصغيرة... أين اختفت الموازين الصغيرة وموازين الجرامات، والصف

المنظم من الكرتون الرفيع مثل خبز المناولة الذى يُستخدم فى غلق علب الدواء البودرة التى سبق تعبيرها؟ من كان يتوقع ثورة مماثلة؟ وفى وقت قصير هكذا... قلت هذا كله للصيدلى، وأظهرت احتجاجى، هل من المعقول أن يغفل الإنسان للحظة واحدة فيتغير كل شىء، لم نعد نفهم أى شىء، امنحونا وقتًا على الأقل كى نتعود على هذا التغيير، على الأشياء المستحدثة التى تتلاحق دون هوادة، ثم ما الداعى لتحديث وتجديد الصيدلية القديمة؛ لقد كانت جميلة، جميلة بالفعل، كما كانت عليه، ولكن متى قمتم بتجديدها؟

أجابنى الصيدلى وقد بدا عليه الضجر:

– فى يناير القادم يكون قد مر ثلاثون عامًا على تجديدها.

ثم أضاف دون تغيير نبرة صوته:

– مُرينى.

أحسست أننى أموت.

– لا أريد شيئًا على الإطلاق.

ثم خرجت مسرعة، حتى تخف حدة سخونة وجهى من كثرة الإحراج. دلفت داخل العربة وأنا مرتبكة مذهولة، فى حال أسوأ من تومازو عندما يتسبب فى مصيبة دون قصد.

سألني دينو:

– ماذا هنالك، ماذا أصاب حضرتك؟

أجبته:

– لا شيء، لا شيء.

لم أفصح له عن الأمر إلى أن وصلنا البيت. ثم، دعوته للدخول واحتساء فنجان شاى معى، حينها فقط استجمعت شجاعتي وحكيت له عما جرى فى الصيدلية. بكل التفاصيل.

بقى صامتًا، إلى أن قلت له:

– الواقع أننى أصبحت كهلة يا دينو وأجد مشقة فى التذكر.

ابتسم آنذاك، بعينيه فقط.

– ماذا تقولين؟ حضرتك الوحيدة، من بين كل معارفى، التى تتمتعين بذهن متقد ونشط.

هذا هو دينو، ينجح دائمًا فى تعزيتى. غير أننى لم أقل له إن واقعة الصيدلية ما هى إلا نقطة فى محيط، حيث إنه منذ فترة تتشابك وتتداخل خيوط الماضى والحاضر فى ذاكرتى، وذكريات نُسيت؛ لأنها تعود إلى ستين عامًا مضت، أجدها حية يقظة فى ذاكرتى وكأنها حدثت هذا

الصباح أو صباح أمس. أود لو نظمت أفكارى فى عقلى كما أفعل مع جواربى ومناديلى الصغيرة.

لم أعد أركب الخيل منذ أعوام طوال وكذلك توقفت عن شرب الكونياك وعن التدخين. وإذا أنهكت نفسى كثيراً أثناء اليوم، يصبح الليل جحيمًا والملاءات خانقة والأغطية ثقيلة تتحرك من مكانها أو تقع على الأرض. حتى الوسادة المصنوعة من الريش تتحول إلى شوال أُقلبه مئات المرات حتى أجد جانبًا باردًا يطفئ سخونة وجنتىَّ.

لا يعرف الشباب ولا يدرى نعمة ورفاهية أن تنام ليلتك نومًا هادئًا عميقًا.

-٨-

رؤى وإعلانات

١

ندرت رحلات تروت إلى فلورنسا بصورة كبيرة. أتكهن بما تفكر فيه نينا، إيريس وكارلينو هذا الذى لا يمكن التعامل معه والذى وصل إلى حد أن يقول لى:

– أنتِ لا تعلمين أى شىء عنه، وأحضرته إلى منزلك. انتشرت أناس غريبة كثيرة هنا وهناك بعد الحرب ألا تقرئين الجرائد؟ مغامرون، مخادعون، ناس لم يرها أحد من قبل، وما كنا لنعرفها ونتردد عليها أبدًا، وماذا لو كان جاسوسًا؟

أجبته أنه، مع كل الارتباك السياسى الذى نشهده حاليًا والعالم كله يعج وينقلب رأسًا على عقب كحالته الآن، قد يكون من الأفضل له أن يتفكر ويتساءل عن شىء آخر، بدلاً من التحرى عن طبائع أصدقائى. ومع ذلك، علىّ أن أعترف أن تروت أحيانًا ما يكون شديد التباعد.

لا أفصح عن هذا لأى شخص.

كما لو كان غامضًا ليس له شخصية. رخواً تقريبًا. كواحد يترك نفسه للأحداث تحمله وتحركه، بدلاً من أن يقودها هو. ففى كل مرة أكون فيها على وشك أن أقول له إننى أنتظر طفلاً منه، تراودنى مخاوف لا حصر لها. كيف يكون رد فعله؟ هل سيتقبل الخبر بحنان وتفهم، شغوفًا بأن يجد حلاً مشرّفًا لنا نحن الاثنان، فلا أنسى أننا لا نزال متزوجين، أم سيغضب ويثور؟ كيف سأخبر كل الناس من حولى؟ وكيف سأخبر أمى؟

تثير حيرتى لامبالاته وعدم اكتراثه الهادئ الرصين. كما يقلقنى بالقدر نفسه سكوته المفاجئ، ربما يريد أن ينتزعنى من بعض الأفكار فحسب، حتى لا يتسبب فى أى هم لى.

بالتأكيد هذا هو السبب الذى يجعلنا نتجاهل مواجهة بعض الموضوعات مثل طريقة سير أعماله. وهو يفضل أن يعمل فى المزرعة أو يمتطى الخيل، على أن يهتم بتمشيط توسكانا لحساب تلك الشخصية الأمريكية المهمة التى لا تزال تدفع له راتبًا. أتساءل كم يلزم من وقت حتى يمل الأمريكى من بطء تروت فى القيام بمهامه ويمنع عنه الامتياز الشهرى الذى يتيح له العيش بكرامة.

جاء عندنا هذا الصباح، المحامى ريكورسى، وهو شاب ماهر ذو أنف مدبب كالنسر ويميل إلى محاكاة الطبقة الراقية، جاء عندنا بعد أن كان تروت قد زاره أمس. قال إن لديه صفقة من أجله. أتخيل أن يكون

هذا المحامى المغمور الفاشل يعرف سيدة عجوزاً يعتزم أن يجردها من اللوحات ومن تحفها الفضية الثمينة فى مقابل بعض النقد.

ظل كل من تروت وريكورسى داخل غرفة المكتبة لما يقارب نصف ساعة أو أكثر. وحينما هم ريكورسى بالانصراف، كانت تبدو عليه علامات الرضا كمن أنجز الصفقة. أما تروت على العكس فكان سيئ المزاج طوال اليوم. اقتربت منه وحاولت مداعبته وملاطفته. نهض واقفاً وذهب ليتمشى قليلاً فى الحديقة، بمفرده. لم أره ثائراً إلى هذا الحد أبداً من قبل.

٢

عدت إلى المنزل مبكراً هذا الصباح من نزهتى مع الكلاب، وبمحاذاة درب حقل البندق وجدت ثعلباً ميتاً.

لم تكف الكلاب عن الدوران من حوله، غير عارفة ماذا تفعل به، هل تشتمّه أم تبتعد عنه؟؛ فقد كانت، فى اعتقادى، تشعر بشىء ما مروع ومفزع.

يقولون إن الحيوانات أيضاً تخاف من الموت، حينما يتعلق الأمر بموت عنيف وغير طبيعى، ومن المرجح أن هذا الثعلب، وهو صغير ويبدو من مظهره أنه قوى، قد مات بسبب وجبة مسممة تسببت فى نزيف

داخلى حاد وآلام رهيبة، خلاصة القول أن الكلاب كانت تشتمّ فيه رائحة الرعب. لفترة طويلة تملأ رائحة الخوف الهواء والأرض وأوراق الأشجار الجافة، والمسك الذى يكسو لحاء الأشجار.

كنت أعلم جيداً أنه، إن عاجلاً أو آجلاً، ستكون الغلبة لغريزة كلاب الصيد، وأنها كانت سوف تقترب من الثعلب، داسّة منخارها فى كل مكان ولعلها تلعق شيئًا ما خطرًا فى تلك النواحى؛ حيث من الممكن أن يكون الثعلب المسكين قد وجد وجْبته المسمومة. على أية حال، تأثر جمال الصباح بهذه الحادثة وكان من الأجدى العودة واستدعاء الكلاب وتركها تجرى بالقرب من البيت، فى الأمان.

لم أكد أرتدى المعطف الواقى والقفازات الصوفية حتى رن جرس التليفون. من الصعب أن يرن جرس التليفون فى وقت مبكر هكذا. تخيلت على الفور أن الأمر يتعلق بمكالمة خاصة.

من يدرى، قلت لنفسى، من يدرى فأنا أنتظر ضيوفًا. وقمت بإرسال دعوات. ربما يكون هناك شخص لن يستطيع المجىء. وربما يكون هناك شخص سوف يأتى. قد يكون دكتور سكورى البشع، يتحدث ليخبرنى بخبر غير سار ("لقد مات فلان، أو فلان الفلانى").

أمسكت بسماعة التليفون وبيدى القفاز، سمعت صوتًا خشنًا، خفيضاً يقول:

- ألو.

- أهلاً، فرنشيسكو، كيف حالك؟

لم نلتق منذ عشرات السنوات، ويرغب فرنشيسكو فى زيارتى، على حد قوله بالضبط، إذ استخدم بالفعل لفظ "يرغب"، إلا أنه لن يبقى حتى حفل العشاء. هناك دوافع لا يمكن تأجيلها تدعوه لأن يعود سريعًا إلى تورينو، ولكن يمكنه أن يكون هنا غداً وقت تناول الشاى، هذا إن لم يكن قد فاجأنا بموعد مجيئه.

أسأله قائلة:

- غداً؟ ودون أن أنتظر إضافة منه أجيبه:

- حسنًا. فى حوالى الخامسة.

أوافق لأنه فاجأنى.

بعد أن أضع سماعة التليفون، أسأل نفسى هل أنا أصبحت غبية إلى هذا الحد، أغضب جداً مع نفسى، وفى الحال أتصل بدينو ولاسانتا حتى يأتيا سريعًا، فهناك غرفة أخرى يجب تجهيزها، ولابد من القيام بمشتروات لحفل الغد، ينبغى أن أقدم لفرنشيسكو ما يأكله حتى وإن كان شيئًا بسيطًا وغير معد مسبقًا بعناية، أتصل أيضًا بريكورسى، وأعلم جيداً أننى لن أنجح فى أن أجعله يترك الفراش؛ لأنه يعانى من

الأرق الشديد شأنه فى ذلك شأن القطط بل أسوأ، لا يصدق ريكورسى ما سمعه بأذنه وتسيطر عليه حالة من الإثارة المزعجة بحق:

– ماذا؟ زوجك؟ المقيم فى تورينو؟

أذهب لإخراج البياضات من الخوان لتحضير غرفة النوم، ومناشف الضيوف وغطاء آخر يوضع فى نهاية الفراش.

بعد حوالى نصف ساعة، تصل لاسانتا أخيراً وتسألنى فى ضجر:

– هل سدت المدفأة من جديد؟

أجيبها:

– لا، فهى تعمل بصورة جيدة جداً.

تسألنى فى ريبة:

– لماذا إذن تلتفين بكل هذه الملابس؟

أفطن إلى أننى لا أزال بكامل ملابسى، المعطف والقفازات والقبعة الصوفية. أشرع فى الضحك، وتضحك لاسانتا هى أيضاً.

بالتأكيد إنها تفكر فى أننى أصبحت شاردة أو أن هذا الخبر قد أصابنى بالدوار، فهى خائفة من أن أفقد ذاكرتى فى يوم من الأيام، وأقرأ هذا الخوف فى عينيها.

أما أنا فأضحك من شدة التوتر والعصبية، فقد أدركت أننى أشعر بالفضول، بل ربما بالرعب من لقاء زوجى من جديد.

٣

أجلس على مائدة الطعام، سواء فى فصل الصيف أو فى فصل الشتاء، فى تمام الثانية عشرة والنصف ظهراً.

إنها مسألة عادة، اكتسبتها منذ الطفولة، منذ أن كانت زوجة المارشال المصنوعة من البرونز، والتى أحتفظ بها حتى الآن على خزانة الأدراج، تدق دقات الساعات بصوت لا يكاد يُسمع لو لم نكن معتادين عليه ومتأهبين له. فى تلك الساعة، كنا نقف أنا وأنريكو بالفعل منذ بضع دقائق بجوار باب صالة الطعام، فى انتظار وصول أبى وأمى. أما السيدة وودروف، فكانت تختار دائماً هذه اللحظة كى تصلح لى الشريط الحريرى الذى يحكم الضفيرة، فتعيد ربط العقدة والفيونكة أو تضبطها.

بالطبع، كانت تراجع على نظافة أيدينا وأظافرنا.

كان أبى وأمى يجلسان على رأس المائدة، الواحد فى مقابل الآخر، سعيدين، فى رأيى، بالنظر إلى بعضهما بعضاً. كنا أنا وأخى نجلس جنباً إلى جنب، وأمامنا وجه السيدة وودروف المدبب، التى كانت توجه

إلينا، بين الحين والآخر، نظرات حادة، أعتقد أنها من دواعى المهنة، أكثر من كونها لضرورة معينة. كنا ننتظر فى صمت أن يبدأ والدانا الحديث ونستمع، كان يبدو لنا آنذاك أن الكثير مما يقولانه هى أمور خاصة بالفعل، مع أنها كانت تتعلق بمحادثات تافهة بشأن أمور منزلية، أو آراء واعتبارات اجتماعية عامة.

كان صوت أمى يشبه الغناء الذى تتعاقب فيه النبرات العالية والمنخفضة، مما يجعله محببًا جدًا ومستساغًا للأذن. أحيانًا، كان والداى يتحدثان بالإنجليزية، كظرف منهما تجاه السيدة وودروف (وهى إيماءة لطيفة ولكن لا داعى لها، من وجهة نظرنا أنا وأنريكو؛ حيث إن السيدة وودروف صارت تفهم الإيطالية والفرنسية بشكل جيد جدًا، على الرغم من أنها كانت تتظاهر بعكس ذلك، دون أن يدرى أحد لماذا).

فى أحيان نادرة كانت السيدة وودروف تعبر عن رأى ما، ودائمًا ما كنا نشعر بأنها لا تعير ما نقوله أى اهتمام. كان أبى يعتبر هذا السلوك شكلاً من أشكال قلة الذوق وعدم اللياقة. أما أمى فكانت ترد بأن الأمر عكس ذلك تمامًا؛ إذ هو إعلان رفيع الذوق عن طبيعة بريطانية مهذبة فائقة الاحترام تجاه حرية المبدأ لدرجة اعتبار حتى المشاركة الصامتة فى محادثة ما تدخلاً غير مقبول.

كانت صالة الطعام تلك هى أقل الحجرات التى تعجبنى؛ إذ كانت مظلمة، وينبغى إضاءة لمبتين متماثلتين طوال الوقت، لمبتين عاليتين،

مزدانتين بورود وزهور تيوليب متضافرة من السيراميك كنت أراها بشعة (لكن أمي كانت تقول، وكأنها تبرر نفسها:- "آه، نعم، إنهما تعودان إلى مطلع القرن العشرين").

كنت أحسد ابنة عمي ليتيتسيا، "الطفلة المتمردة"، كما تسميها أمي، إذ كانت تسحرني البساطة الحديثة التي تتميز بها شقتها الكائنة في شارع كورسو ڤيتوريو إيمانويلي، والنوافذ التي تنبعث منها الشمس والضوء، وذلك البساط الناعم تحت مائدة الطعام التي لم تكن مغطاة بأي مفرش.

أما في بيتي، فعلى العكس، كانت المقاعد غير مريحة، صلبة ومستقيمة الظهر، وهي عبارة عن مزيج من الخشب المطلي وقش وارد ڤيينا يوخز الظهر، وكانت المائدة عالية جداً، والضوء المنبعث من اللمبات المزينة بالزهور لونه أصفر يثير الكآبة. علاوة على ذلك، كان ينبغي ترك الأنوار كلها مضاءة على الدوام؛ لأن أمي كانت قد ابتكرت ستارة من النباتات أمام قوس النافذة مما سد الفتحة التي يتسلل منها النور بما في ذلك فصل الصيف أيضاً.

كانت السيدة وودروف تقول إن غرفة المائدة جميلة مساءً، حينما تُضاء الشموع. عندئذ كانت الستائر المخملية ونخيل الزينة، والشمعدانات المصنوعة من البرونز المذهب، كل هذا كان يعيد إنتاج أحد ميادين العصر الكلاسيكي الحديث التي تتميز بالعمدان والمسلات التي

تعود بالأذهان إلى مصر القديمة وتنعكس صورتها على بلاط زجاجى كالمرآة. هى إذن مجموعة من الصور والرسوم والتماثيل المتجانسة التى تحاكى ميدان كونكورد (كان أبى يدمدم: "ذلك الميدان، فى رأيى، ثقيل على النفس بفعل تلك المقصلة، وكان الأجدر بكم أن تعتبروه مثيراً للقشعريرة ومنفراً")، أكان يمكن ألا يثير كل هذا دهشة طفلة فى التاسعة أو العاشرة من عمرها؟

كانت الشموع، والصوانى الكريستالية الصغيرة ذات الطوابق المتعددة التى كانت أمى تملؤها بالحلوى وقدلع الشيكولاتة الصغيرة بالحلوى وقطع المسكر وكذلك التماثيل البرونزية التى تقوم مقام الشمعدانات، كل هذا كان يُرى فى ذلك الميدان الاعتبارى المتخيل. كنت أتفق تمامًا مع السيدة وودروف على أن هذا الميدان كان له سحر خاص.

أنا وأنريكو غالبًا ما كنا نتجسس على الاستعدادات التى تسبق أى حفل عشاء، كنا ممنوعين من حضور هذه الحفلات، وعلى الأكثر كنا نأكل ما يفيض من الطعام فى اليوم التالى، حينما يكون السوفليه قد صار عبارة عن قطاع رفيع مطاطى أصفر اللون وقد ساحت القشطة المخفوقة كالثلج، لكننا كنا مجرد أطفال، وكانت تلك الامتيازات تنتمى لعالم الكبار.

كنا قد استسلمنا واعتدنا على عدم المناقشة أو الجدال؛ لأن هذه هى القواعد. كان يُسمح لنا بالبقاء فى غرفة الطعام مساء يوم ٢٤ ديسمبر فقط.

كانت قائمة الطعام عشية يوم عيد الميلاد تدعو للكآبة، فهى عبارة عن حساء الخضراوات الذى يطفو على سطحه قطعتان أو ثلاث من لحم الضأن غير الدسم وسمكة مسلوقة، توضع بأكملها على المائدة، بجلدها وذيلها والعين البيضاء التى كانت تثير رعبنا، ولكن أسوأ ما فى الموضوع هو باقة البقدونس التى تبزغ من فم السمكة، غير أن ضوء الشموع المذهب ورعشة الشعلات كانت تضفى جواً من البهجة على غرفة الطعام فتبدو مختلفة، وكنا نرى بريق الصوانى متعددة الطوابق المليئة بالفاكهة والحلوى المسكرة المجففة التى كنا سنأكلها فى اليوم التالى.

حتى ستائر المخمل الحمراء، الكئيبة صباحًا، كانت تصير مختلفة، مثل ستار مسرح وكشأن الستار كانت تَعِد بعجائب لا يتخيلها أحد.

تحضر العمات وأبناء العمات ولما كانت الأمسية هى عشية عيد الميلاد، فقد كنا نأكل فى التاسعة والنصف بدلاً من تمام الثامنة كالعادة. كان من الضرورى، على حد قول أنزيكو، مد الأمسية وإطالتها؛ لأننا كنا نذهب كلنا بعد ذلك إلى قداس العيد، فى منتصف الليل، بما فى ذلك الأطفال.

إن تذكر تلك السنوات واستعادتها من حين لآخر يجدد شبابى؛ فتدريب الذاكرة يكافئنا ويفاجئنا على حين غرة، بذكرى ما لم نكن حتى ندرى أننا فقدناها، فيثير فينا ذلك رضا من نوع خاص. بينما فى أحيان أخرى يكون هذا الرجوع بالذاكرة للوراء غير مطمئن بالمرة، وليس مسليًا، يتهيأ لى أننى تهت فى مغارة تحت الأرض مليئة بالممرات الضيقة شديدة الانحدار والخطورة وكهوف كالمتاهات لا أعرفها، وشقوق من الممكن أن أنزلق فيها. هذا يحدث لى الآن، عندما انظر للأمام وأدرك أنه لم يعد هناك وجود لطريق، حينئذ ألتفت للوراء وأجد أنه ليس من طريق أيضًا.



رأيته من النافذة.

وصل فى تمام الساعة الخامسة عصرًا، لا يزال ڤيللافورستا يملك هذا الحس القديم الذى يتسم بالدقة السويسرية، أرى سيارة غامقة تتوقف عند قمة المطلع، ويقفز منها شاب، يفتح شنطة السيارة الخلفية ويُخرج منها حقيبة صغيرة، بينما ينزل ببطء من الباب الآخر، سيد طويل القامة جداً ومستقيم، يرتدى معطفًا واقيًا داكن اللون وقبعة من اللِباد.

يتبادل الشاب والرجل العجوز بضع كلمات وبالكاد يلمس العجوز كتف الرجل الذى يركب السيارة محيياً إياه تحية سريعة خاطفة.

لا أستطيع أن أجزم، من هذه المسافة البعيدة، إن كان ڤيللافورستا قد جعل ابنه يصحبه حتى هنا، وأنه صرفه سريعًا حتى لا يضطر أن يشعر بالإحراج وهو يقدمه لى، أو أنه مجرد سائق قام ڤيللافورستا باستئجار سيارته من سيينا. قد يدفعنى الفضول لأن أفتح النافذة وأدعوهما للدخول إلى البيت هما الاثنين، لكن تحفظى المترفع نوعًا والذى لم ينفصل عنى منذ صباى، وشيئًا من الكرامة وعزه النفس، التى ربما تُفهَم على نحو سيئ، كل هذا يمنعنى من أن أرفع صوتى منادية على إنسان لا أعرفه من النافذة. أرى ڤيللافورستا من وراء الستارة التى أختبئ خلفها، وهو يجتاز بخطوات بطيئة كل الفناء، وكذلك الكلاب التى تنبح عليه، ولكنه لا يتزعزع لأنه يحب الحيوانات وعلى دراية كاملة بطبائع الكلب، أسمع باب الدخول يُغلق وصوت دينو وهو يطلب من ضيفى التفضل بالجلوس في حجرة الاستقبال. وفيما يدوى وقع أقدام دينو على درجات السلم، تونك، تونك، تونك، تمامًا كوقع خطوات والده، أبتعد عن النافذة لأضع قليلاً من أحمر الشفاه، وأحمر الخدود على وجنتىّ. أعتقد أنه ينبغى أن أخجل من هذا التجميل الفانى التافه، ولكن جلدى أصبح الآن رمادى اللون، ذابلاً لدرجة كبيرة. يدق دينو بلطف على الباب وأنا شاكرة له لأنه لم يقل:

- زوجك ينتظرك فى حجرة الاستقبال.

وإنما قال ببساطة:

- إنهم فى انتظارك فى الدور السفلى.

أجيبه:

- وهو كذلك.

حسنًا.

آخذ نفسًا عميقًا، وأنتصب. فى بطء أشرع فى هبوط درجات السلم بانتباه، واحدة تلو الأخرى.

٥

قدمت له شايًا وقطع البسكويت، ولكنه لم يكلف خاطره حتى النظر إليها. سمعنا صوتًا عند الباب ثم ظهرت لاسانتا وشعرها غير مرتب، كما لو كانت قد خرجت من المنزل وهى تركض.

- مساء الخير. اسمحا لى، لعل السيد الكونت يرغب فى قليل من الشاى.

أقول لها:

– لا، لا يرغب فى شرب الشاى.

– كما يريد. الآن أذهب إلى المطبخ لأحضر شيئًا ما للعشاء.

تدلف لاسانتا إلى المطبخ، ثم تعود إلى حجرة الاستقبال بعد أن تحوم قليلاً هنا وهناك.

– كنت أفكر... معذرة لقطع حديثكما... لقد نسيت أن أقول لكِ، إننى أريد أن أستدعى ڤيرى.

– ومن يكون؟

– ڤيرى، ابن چيرڤازو، الشاب الذى يصلح الغسالات.

يبادرها ڤيللافورستا قائلاً:

– الفتى.

– هو بالضبط. لابد أن يأتى لعمل صيانة. منذ يومين تتسرب المياه من الغسالة، قليل من المياه، ولكن إن ساءت الأمور أكثر...

أومئ بالإيجاب. تسحب لاسانتا دليل التليفونات من على الرف وتعود إلى المطبخ.

نسمعها وهى تتصل. انظر إلى الساعة وأتساءل بعد كم دقيقة ستعود. خمس دقائق. خمس بالضبط.

– سأعد شوربة الـــ ستراتشاتيللا وقطعتين من لحم السكالوب لهذا المساء... سوف يأتى الفتى يوم الأربعاء، حوالى الساعة العاشرة صباحاً.

تعود لاسانتا إلى المطبخ. ومن نافذة حجرة الصالون أرى دينو، وبيـــده المقص يقطع الوردة المتـــسلقـــة. أصلى فى قلبى ألا يفطن ڤيللافورستا إلى دينو، فمن ذا الذى يقطع الأغصان والورد فى شهر نوفمبر، بينما قد حل الظلام تقريباً؟

يرن جرس التليفون. إنه ريكورسى، يقول إنه فى حال أحسن وإنه يود أن يقوم بنزهة ولما كان الجو قد أصبح بارداً وبدأ الظلام يهبط بالفعل، فبدلاً من الذهاب إلى سيينا، يمكنه أن يمر علىّ فى البيت ليتبادل أطراف الحديث معى.

إن قدوم ڤيللافورستا يخلق نوعاً من الحراك على نطاق واسع. فأى عذر يصلح فى سبيل إمكانية رمقه بنظرة.

تظهر لاسانتا من جديد فى حجرة الصالون كى تخبرنى بأن دينو نسى أن يشترى لها البيض؛ لذا فهى لن تتمكن من إعداد شوربة الـــ ستراتشاتيللا.

– لا يهم. أى حساء يمكن أن يفى بالغرض جيداً جداً، أليس كذلك؟

أوجه كلامى لـــ فرنشيسكو الذى يبتسم ويقول:

- بل على العكس، هذا أفضل.

تومئ لاسانتا وتعود إلى المطبخ.

تُرى هل ستبقى فى المطبخ لمدة طويلة؟

انتبه ڤيللافورستا إلى أن دينو وهو مشغول بقطع الورد خارج المنزل وقد رآه من النافذة.

يبتسم ويقول:

- تأخر الجناينى الذى يعمل عندك فى قطع النباتات هذا الخريف.

- إنه ليس الجناينى، إنه دينو. يقوم بعمل كل شىء، وإن لم يكن موجوداً هنا، لصار الوضع كارثيًا. إنه بمثابة يدى اليمنى، بل يدىَّ الاثنتين.

- نعم، أتخيل. هذا المكان جميل بحق.

- نعم.

إنه مجرد تبادل عبارات تافهة ومعتادة.

من الصعب تجاذب أطراف الحديث، بعد فترة زمنية طويلة. من الصعب عدم الكذب، من الصعب أن نقول إننا فى أروع حال، بينما آخر

مرة تقابلنا فيها كنا شباباً وعلى قدر من الجمال، من الصعب تحديد طبيعة توجه الحديث. رسمى بما يتناسب مع الوضع؟ أم حميمى، يتسم بالعاطفة وبالتفاهم التقريبى المشترك؟ هل ينبغى أن تُحفظ فيه المسافات؟ أم يكون حديثًا يميل للحزن والشجن واسترجاع الذكريات؟

لا نتمكن من أن نحسم أمرنا، نحن الاثنان.

نبقى فى صمتنا نتدارس أمرنا.

لماذا لم تعد لاسانتا تدخل حجرة الاستقبال، بحق الجحيم، ما هذا التحفظ والحذر المفاجئ؟

ولماذا تأخر هكذا ريكورسى فى الوصول؟

لقد تقدم فرنشيسكو فى السن كثيراً وظهرت عليه علامات الشيخوخة. يرتدى سترة قديمة أكبر من مقاسه. يُفهم من أول نظرة طبيعة المرض الذى أصابه. يبدو عليه الإعياء. أسأله إن كان يرغب فى أن يستريح قليلاً قبل العشاء. أمامنا متسع من الوقت للحديث فى وقت لاحق، ربما غداً، حينما يزول انفعال هذا اللقاء.

- أشكرك. لا بأس هكذا، كم الساعة الآن؟

- الساعة تقريبًا الخامسة والنصف.

- لقد اصطحبنى ابنى إلى هنا.

– آه.

– كان ذاهباً إلى فلورنسا من أجل العمل، لم يقطع مسافة كبيرة حتى يرافقنى إلى هنا.

– لا. على الأكثر ثلاثة أرباع الساعة. ربما يكون قد وصل بالفعل الآن إلى فلورنسا. هل هو من الشباب الذين يقودون بسرعة؟

– إلى حد ما. لكنه حريص وحذر.

– حسناً.

– وأنتِ؟

– أنا، ماذا؟

– أنتِ لم ترزقى بأولاد، أليس كذلك؟

– نعم.

– لم يكن لكِ حظ فى الإنجاب، أم...

ڤيللافورستا هو الوحيد الذى يستطيع أن يطرح أسئلة طائشة غير حكيمة من هذا النوع. تدهور به الحال كثيراً، غير أن طبعه أبداً لم يتغير.

أقول له:

- كل واحد منا يسأل سؤالاً.

يبتسم.

- ابنك متزوج؟

- نعم، ولديَّ أيضًا حفيدة. اسمها كاترين. لديها ثماني سنوات وهي في غاية الذكاء وتحب الحيوانات لدرجة الجنون، لدرجة أنها تريد أن تعمل طبيبة بيطرية عندما تكبر. تحب الكلاب بصفة خاصة. أريد أن أهديها هذا العام بمناسبة عيد الميلاد كلب لبرادور، لقد وعدتها بذلك. أمها تعترض ولكنها سوف تتعود على وجود الكلب.

يقطع حديثنا صوت عربة تقف أمام البوابة. يدخل ريكورسي مبتسمًا. يظل واقفًا ينظر إلى ڤيللافورستا، ويتفحصه، وألمح في عيني فرنشيسكو بريقًا من الاهتمام. يتحرق المحامي رغبة في طرح بعض الأسئلة عليه، غير أن فرنشيسكو بطبعه سريع البديهة ولا ينوي على الإطلاق أن يجعل أحدًا يدفعه إلى محادثة شخصية، معلقًا أنه قد حل بالفعل فصل الخريف في إقليم بيمونتي، ونحن هنا متأخرون عنهم بحوالي شهر، فعلى سبيل المثال، هنا تقطع الورود في هذا التوقيت، يقول هذا وعلى فمه ابتسامة صغيرة مشيرًا إلى دينو، هناك في الخارج،

وليس مثل الشمال إذ يحدث هذا بين نهاية سبتمبر ومنتصف أكتوبر؛ لذا، فهو يريد أن يعرف متى يكون حصاد العنب هنا؛ لأنه في مونفيراًتو...

يلوى ريكورسى شفتيه لأسفل معبراً عن خيبة أمله؛ إذ اتخذ الحوار منعطفاً تافهاً خالياً تماماً من أى اهتمام، فلا يهمه أي شيء سواء قطف الورود أو حصاد العنب فى شهر سبتمبر أو أكتوبر، فهذا السيد البيمونتيزى لن يسمح بأن ينال منه أحد ولو بقدر قليل، كان الأجدر تأجيل مقابلته للغد، فلا داعى للاستعجال.

لا ينصرف ريكورسى سوى فى السادسة والنصف. يُقبل يدى وهو يحيينى بطريقة احتفالية أكثر من المعتاد، لدرجة أننى أكاد أتوقع أن يدق بكعب حذائه على الأرض مثل العسكرى وهو لا يُخفى إحباطه وخيبة أمله. مسكين ريكورسى، إنه لا يزال منتصباً كالعمود أمامى وأمام فرنشيسكو، لا يعتزم الرحيل بل يوجه إلىَّ نظرات تنم عن قلقه.

عينا ڤيللافورستا تلمعان بوميض من السخرية كنت قد نسيته. يرتجف ريكورسى أكثر من المعتاد، ربما بسبب خجله.

فجأة ينتابنى إحساس أن ڤيللافورستا وريكورسى يعرفان بعضهما بالفعل، وأدرك أنه إحساس غريب جداً لا يصدقه عقل. من الواضح جداً أن زيارة فرنشيسكو قد قلبت كيانى أنا أيضاً.

أعلم أن المحامى يتمنى فى قرارة نفسه أن أدعوه على العشاء، لكن من الأفضل أن ينسى الأمر، ليس هذا ممكنًا هذا المساء.

أشاهده وهو يبتعد وأنا على يقين من أننى، بينما أنا أضحك، يدور بفكر المحامى أن ڤيللافورستا هذا شخصية لا يُستهان بها، يمكر ويكيد، والجميع هنا يحاولون أن يتخيلوه منذ نصف قرن وأن يعرفوا أى نوع من الناس هو، أما هو فماذا يفعل؟ يقضى العصر يتحدث عن الوقت وعن البرد وعن الأيام التى تزداد قصرًا بشكل سريع، وكلها أشياء يعلمها جيدًا الطفل الصغير.

٦

يسأل ضيوفى عن تروت. أبحث عنه أنا أيضًا، ولا أجده لا فى الجراچ، حيث يُغلق على نفسه فى أغلب الأحيان ويقوم ببعض الأعمال المنزلية باستخدام أدوات ما، ولا فى المخزن، ولا حتى فى القبو. بالصدفة، فقط لأننى قررت أن أذهب كى أناقش قائمة طعام هذا المساء، أجده فى المطبخ، يتأمل ما تقوم به نوڤيللا مشاركًا فى صمت.

تمتلك نوڤيللا أصابع صغيرة ماهرة، مثل مخالب الكابوريا البحرية، رفيعة وسريعة، تلف بها شريطًا من العجين وتقطعه مربعات يبلغ حجمها سنتيمترات قليلة. فى قلب المربع تضع خليطًا من أعشاب الحقل ونبات

البيتا الجبلية وجبنة ريكوتو، بحجم عين الجمل وبحركة من أصابعها تحكم إغلاق المربع وتغمسه فى الدقيق وتضعه جانبًا. يراقب تروت فى ذهول وهو مفتون مثل الأطفال أمام حيل الحواة. تمتلك نوڤيللا يدين موهوبتين فى عمل المعكرونة، كما يقول ماريو، يدين فاترتين درجة حرارتهما ثابتة لا تتغير، مما يضفى نعومة على العجين ويجعله مرنًا كالحرير. يسخر منها تروت، الذى نجح فى جعلها تحبه، ويطلب منها أن يرى يدها السحرية هذه، أما هى ففى سعادة تمد راحة يدها الطرية، الوردية والمتسخة بالدقيق المبعثر هنا وهناك. ينحنى تروت ويقبل يدها بوقار كما فى مسرح الأوبرا. لا تغضب نوڤيللا من هذا، بل على العكس، تضحك ضحكة رنانة وتتراجع مهددة إياه بإصبع السبابة:

- إن لم تعقل، فسوف أعد لك حساء القط، احذر، أنا جادة وسأعده لك بالفعل.

تروت أيضًا يضحك، ولا يتوقفان عن الضحك أبدًا؛ لأن تعبيرات وجهها تُضحكه وبالعكس.

٧

تناولنا أنا وڤيللافورستا عشاءنا فى الثامنة مساءً. معكرونة صغيرة مطهوة فى الماء، سيئة للغاية، وقطع سكالوب من لحم الديك. علق فرنشيسكو على أنواع الطعام قائلاً دونما سخرية أو مزاح:

– طعام مستشفيات، شكراً على تقديركم لى.

تحدثنا عن أمور كثيرة حديثًا طيبًا. حديثًا طيبًا بما يدعو للريبة والشك. خلت كلمات فرنشيسكو تمامًا من أى حنق أو حدة، بل إنه كان يستخدم من حين لآخر تعبيرات تنم عن مودة ومحبة. أحكى له عن كيفية إدارة الأرض الزراعية (الأبعدية)، وعن الصعوبات المستمرة، وعن مقدار الخبرة والشغف والحظ المطلوب لإنتاج نبيذ طيب. يصغى ڤيللافورستا باهتمام، ويطرح أسئلة، ويبادر بالنصح. يحكى لى هو عن مرضه ببساطة، ويقول إنه يحزنه أنه لم يعد يقدر أن يحتسى ولو كوبًا واحداً من النبيذ، ثم ننتقل إلى الحديث عن أمور أخرى، عن الأصدقاء المشتركين بيننا، وعن موضوعات الساعة.

أسأله ثانية عن ابنه.

يتملكنى الفضول لمعرفة المزيد عنه، وعن إيمونى.

يُخرج ڤيللافورستا من جيبه صورة قديمة بالية، أراه فيها وهو يسند يده على كتف صبى أشقر طويل القامة وإلى جانبه توجد امرأة ما.

أسأله:

– هل هى يولى؟

– نعم، يوم تخرّج إيمونى.

فى الصورة، لا يظهر على يولى أى مظهر من مظاهر جمال الغانية كما كنت أتخيل. فهى امرأة فى منتصف العمر، ضخمة بعض الشىء تبتسم فى رضا وسعادة. ألمح ميدانًا خلفهما به أبنية حديثة لكننى لا أعرفه. يا إلهى، كم أنا سعيدة لعدم كونى أنا السيدة الموجودة بتلك الصورة. كم أنا سعيدة لأننى غيرت طريق حياتى.

أصوب نظرى إلى عينى ڤيللافورستا وأقول:

– بعد الحرب، عشت هنا مع رجل لبضعة شهور.

أتوقع أن يقول شيئًا ما، ولكنه يظل صامتًا. أرانى مضطرة أن أستطرد كى يعرف أنه لدىّ أنا أيضًا ذكريات، حتى وإن كنت لا أحمل معى صورة تدل على ذلك.

– ثم... انتهت القصة.

– وماذا بعد ذلك؟

دائمًا ما يطرح ڤيللافورستا أسئلة أجد أنه من المحرج الرد عليها. أصب لنفسى كوب نبيذ آخر، حتى أملأ لحظة الصمت.

ها هو ڤيللافورستا يبتسم لى ابتسامة ماكرة ويسألنى من جديد:

– وماذا بعد ذلك؟

– بعد ماذا؟

– أخبرينى كم رجل عرفتِ من بعده.

– لماذا تسألنى عن هذا؟

– ولماذا لا تجيبين على سؤالى؟

– لماذا علىَّ أن أجيب؟

– ولم لا؟

هذا صحيح. لماذا لا أجيب على سؤاله؟

لكم أن تتصوروا.

الحقيقة أبسط من البساطة.

– لا أحد. فبعد تروت لم يكن هناك وجود لشخص آخر.

هل من المعقول أن يشحب وجه ڤيلَلافورستا؟ ومع ذلك، هكذا بدا لى.

الآن نشعر نحن الاثنان بالحرج. اضمحل سحر الأمسية. ندرك كلانا أنه حان الوقت كى نذهب للنوم، قبل أن تأخذ المحادثة منعطفًا أكثر حميمية.

أصطحب ڤيللافورستا إلى غرفته. أعدت له لاسانتا الفراش، وأغلقت مصراع النافذة وأسدلت الستائر وملأت التِرمُس على الكومودينو بالمياه الباردة.

– أريد أن أسألك أنا سؤالاً يا فرنشيسكو.

– كلى آذان صاغية.

– أستجيبنى بأمانة؟

– نعم.

– أعطنى كلمة شرف منك.

– لكِ ما تريدين.

– هل أنا دمرت حياتك بحق؟

– أيوجد شىء يمكنه بحق أن يدمر حياة شخص ما؟

– لا تتلاعب بالألفاظ. أجبنى.

يتردد فرنشيسكو وبالكاد يهز رأسه.

– لقد نجحتِ؛ فهذا المكان غاية فى الجمال. أرض زراعية أضاعها شخص ما فى اللعب، كانت هى طوق النجاة بالنسبة لكِ، وقد تكون نائبة من نوائب الدهر لشخص آخر.

– هل أحببتنى فعلاً كل هذا الحب؟

– لقد كنتِ سعيدة هنا، أليس كذلك؟

– كنت وحيدة.

– يؤسفنى هذا.

يستند فرنشيسكو على قائمة الباب.

– أشعر ببعض التعب والإعياء. بالتأكيد بفعل رحلة السفر. إن أذنتِ لى، أود أن أستريح.

– طابت ليلتك. أراك غداً.

– نعم، إلى الغد.

٨

إيطاليا جمهورية.

انتهى فرز الأصوات.

أذاع المذياع الخبر.

يرن جرس التليفون، إنها أمي التى لا تقوى على التحدث من شدة انفعالها. إنها ثائرة جداً. أتركها تنفس عما بداخلها، أحس بتنهداتها

وأكاد أتصور أنها ترغب فى البكاء، فمع تقدمها فى السن زادت لديها لحظات الضعف هذه، ثم تتمالك نفسها وأستمع إلى وابل من الكلمات الغاضبة من عينة: خونة، ثوريين، محتالين، متلونين ومرائين، ثم تختتم حديثها قائلة:

"كان شيئًا متوقعًا".

ثم تنتهى المكالمة. أتخيل أنها وضعت السماعة كى تبدأ فى الاتصال بصديقاتها متبعة النهج نفسه فى الحديث.

يبدو الهدوء على ضيوفى نينا وأودونى والآخرين، لست أعلم إن كانوا قد استسلموا للأمر الواقع أم أصابتهم الحيرة. كما لو كانت كل المناقشات التى دارت بيننا فى الأيام الماضية تعود إلى أزمنة أخرى، سحيقة.

لقد طوى التاريخ الصفحة، وغدا عالمنا، الذى خبرناه وعرفناه، ينتمى إلى الماضى. أتساءل، هل هذا معناه أننا نحن أيضًا أصبحنا ننتمى إلى الماضى؟ إنه لإحساس غريب، بمثابة شق وانفصال لا يتسبب لا فى ألم ولا فى شعور حقيقى بالحنين. إن المشهد يتغير، وسوف تنشأ عادات جديدة ومراسم جديدة. تحضرنى تلك الحيلة التى رأيتها ذات مساء فى أحد المسارح؛ إذ كانت هناك منضدة مجهزة بالأطباق والأكواب، يقترب منها الحاوى ويمسك بيده طرف المفرش و، بحركة

مباغتة، يسحبه من على المنضدة. شىء لا يصدقه عقل، لم يعد المفرش على المنضدة وإنما يمسك به الحاوى بكل فخر، وكأنه علم، بينما بقيت على المنضدة كل الأطباق والأكواب سليمة كما هى، دون حتى أن تتحرك ولو لمليمتر واحد. هكذا حالنا، ونحن جالسون تحت التعريشة، نستمتع بشمس شهر يونيو وفى الخلفية صوت طنين نحلة، وعلى وجوهنا ابتسامة، تدل على استرخائنا وحسن أخلاقنا.

ينقصنا وجود تروت فقط.

أطلب من أودونى أن يذهب ليبحث عنه؛ فغالبًا ما يختفى تروت عن الأنظار فى هذه الأيام.

لا أدرى متى فطنت إلى ذلك. فى البداية، كانت هى الأحلام التى نبهتنى. إذ كنت أستيقظ ليلاً غارقة فى بحر من العرق، وأنا فى حالة من الرعب والفزع، كان ينتابنى إحساس بأننى أرتعش، لكننى كنت أتوهم فحسب.

كان تروت ينام نومًا ثقيلاً ولم يكن يستيقظ أبدًا على الرغم من الكوابيس التى كنت أحلم بها. كنت أحسب أننى صحت، أو بكيت بصوت عال.

فى الصباح، كنت أحاول أن أنسى تلك الأحلام ساعية إلى لمسة حنان أو عطف من تروت.

وحينما أهدأ، كنت أغضب من نفسى. فلا ينبغى أن أترك نفسى هكذا، فأنا أُظهر طبعًا رومانسيًا ما كنت أعرف أنه بداخلى.

كانت أمى تقول على الدوام:

– الحساسية المفرطة تدمر الأعصاب، فأنتِ تفكرين أكثر من اللازم، وتتخيلين أكثر من اللازم.

كنت أيضًا أقول لنفسى إن علاقتى بـــ تروت لا تزال فى مهدها. وهى بالفعل حديثة العهد لدرجة أننى فى كل يوم كنت أكتشف ملامح لم أكن أعرفها؛ على سبيل المثال، حياءه من أن يحدثنى عن نفسه.

كان يقول لى:

– أنا بطبعى أهرب من هذه المواقف، يا حبيبتى، حاولى أن تفهمى.

أو كان يقول لى:

– لا شىء يهم فى ماضىَّ، صدقينى.

كنت أدرك جيداً أن هناك بعض جوانب من طباع تروت تجرحنى والبعض الآخر يثير غضبى.

فهل كانت البرودة التى تبزغ على السطح فجأة، على سبيل المثال، هى خصلة من خصاله أم هى رد فعل طبيعى للظروف المعاكسة التى

أدت به إلى ضياع ماله وإنهاء كل علاقة له مع أسرته؟ هل هو سلوك يخصنى به أنا فقط دون سواى؟ أم هى علامة أكيدة على طبع مبهم، غير حاسم، ودليل على ما تعانيه نفسه من اضطرابات؟

أحيانًا أفكر أنه كان يتحتم علىَّ أن أفهم قبل ذلك بوقت طويل، قبل نشوب الحرب، وقبل أن ألقاه ثانية فى بانسيون ننينى، حينما، لم يكف معطفى لحمايتى من البرد الرطب الذى كان آتيًا من النهر ونحن نتنزه على نهر البو. ألم أتعرف عليه فى بيت أحد الدبلوماسيين الألمان؟ ألم يكن يسافر ويرتحل عبر كل أنحاء أوروبا، وله علاقات فى كل العواصم؟

فى عصر اليوم نفسه الذى صرنا فيه متحابين، كان تروت قد وعدنى بأن يكتب لى ويراسلنى. وعلى العكس، لم يرسل لى أى شىء، ولا حتى بضع كلمات تحية.

كنت أقول لنفسى إن لديه زوجة وابنة وأعمال مهمة بالتأكيد. وأنا أيضًا لا أزال امرأة متزوجة، على الرغم من أننى أعيش بمفردى.

من الضرورى التحلى ببعض التحفظ، «فالتعبير الواضح الجلى أكثر من اللازم عن أحاسيس الحب ليس من طبعنا»، هذا ما كانت ستقوله جدتى.

ومع ذلك، فعند رحيله، وعدنى تروت بشىء ما.

وبين المتحابين لا سبيل لعدم احترام الوعود.

ولا حتى إن فصلت بينهما الحروب. أليس كذلك؟

سوف أتصل بك: سوف أكتب لكِ. لقد احتفظت برقم تليفونك فى حافظة النقود والأوراق. انظرى. إنه هنا. أترينه؟

يُفقد ذلك الحدس الفورى، ويضيع بين الوقائع والأحداث الأخرى، أنساه، هل أختار بإرادتى أن أنساه؟، وبعد ذلك بأعوام كثيرة، ما كنت قد أدركته حينئذ بشكل مشوش وغير أكيد يتخذ الآن شكلاً حاسمًا لا رجعة فيه.

هل كان يسرق أوراقًا ومستندات ويختلسها؟ هل كان ينقل أخبارًا؟ هل كان يأخذ أموالاً من الألمان أم من الروس أم من الأمريكان أم من الإنجليز؟ هل كان منحازًا للجانب الصحيح أم للجانب الآخر المعادى؟ هل كان يقوم بهذا بدافع الشغف أم بدافع الملل أم على سبيل التسلية؟

من الغريب أن يحدث هذا لى أنا، وبالفعل يتهيأ لى أننى أسمع ابتسامة جدتى المتكلفة، وأكاد أتخيلها وهى تقول لى إن هذه هى النتيجة التى وصلت إليها لأننى طاوعت طبعى القلوق وغير الواثق بشكل مخيف وخضت فى كل هذه الحماقات بعد أن فقدت تمامًا كل قدرتى على التفكير المتعقل.

نتناول أنا وفرنشيسكو طعام الإفطار هذا الصباح فى صالون البرج الصغير. وهو عبارة عن حجرة مربعة، حوائطها مبطنة بالكتب، الموضوعة فى غير نظام، والمتكومة إلى جانب علب من القصدير أو الصفيح ومجلات، وخصوصًا مجلة "حديقة الزهور" التى أملك كل أعدادها.

فرشت لاسانتا على عربة الشاى المصنوعة من خشب الكرز مفرشًا صغيرًا باهت اللون، قصيرًا جدًا من الجوانب، يتدلى بشكل بائس فى الفراغ.

وضعت على العربة الشاى وشرائح رفيعة من الخبز المحمص المقرمش، ومربى توت، أعدها أنا كل سنة فى شهر سبتمبر، وإبريق قهوة باللبن لفرنشيسكو. الزبدة لها مذاق زنِخ بعض الشىء.

لا أتذمر، يبتسم ڤيللافورستا بينما يجلس على المائدة؛ لأننى لم أنس ماذا يتناول فى فطوره.

أود أن أشرح له أنه ليس اهتمامًا من جانبى أخصه به هو فقط؛ فأنا لم أركز كى أتذكر ماذا كان يتناول فى وجبة الإفطار أكثر من نصف قرن مضى، كل ما فى الأمر أننى غالبًا ما أنسى ما فعلته وما قلته قبل أسبوع، بينما أتذكر على نحو رائع كل ما يتعلق بالماضى

السحيق. أما فرنشيسكو فيرمقني بنظرة ودودة عطوفة فوجئت بها وللأمانة أشعرتني بالحرج. أقترح عليه أن يرافقني حتى أعلى هضبة مونتيتي؛ فهي نزهة غير متعبة بدرجة كبيرة ومن أعلى يُرى منزلي جيداً والمنظر الخيالي الذي يحيط به.

يوافق فرنشيسكو ويقول:

– بهذه الطريقة أفهم.

يقول هذا بنبرة جادة ممزوجة بشبه ابتسامة تكاد تظهر على شفتيه، فلا أفهم إن كان يسخر مني أم يتكلم عن جد.

– نعم، بهذه الطريقة أفهم روعة جمال هذا المكان، وكيف كنتِ محظوظة في امتلاكه. إن "كيانتي" هي بالفعل أرض مباركة قادرة على منح السلام لقلبك.

يأتي دينو ليقلنا بسيارته. فكرت أنه من الأصلح أن نقطع على الأقل جانبًا من الطريق بالسيارة؛ إذ يبدو أن فرنشيسكو يعاني من رجليه. لقد أصبح نحيلاً بحق، مثله مثل كل كبار السن. وأقول لنفسي: إذن، لست أنا الوحيدة التي تقدم بها العمر.

ونحن على قمة الهضبة بمفردنا؛ لأن دينو كان ينتظرنا في أسفل الهضبة، بدأت أشرح لڤيللافورستا أسماء المدن الصغيرة التي تصطف على جانب الطريق العمومي، ومن هم أصحاب الڤيللات التي تقبع على

التلال وتمتاز بالمداخل الواسعة التى تزينها أشجار السرو، وأبين له حدود أرض "المحمية"، ومكان كرمى وحقل أشجار الزيتون والغابة الكثيفة الأشجار فى بعض الأماكن لدرجة يصعب معها الدخول، وأحكى له كيف يزداد عدد الأجانب، الإنجليز والأمريكان والألمان، والذين يقدرون ويحبون هذا الريف بصورة فائقة.

يعلق فرنشيسكو قائلاً:

– إنهم يجدون المقابل.

– نعم، هذا حقيقي، يجدون المقابل وهو ما يستمتعون به من أيام مضيئة دافئة وبالهواء العليل غير العاصف، والشتاء الذى، على الرغم من سقوط بعض الثلج أو الجليد خلال شهرى يناير وفبراير، لا يصبح أبداً ثقيلاً على النفس، أو لأنهم يجدون ما يعوضهم، وبكلمات بسيطة للغاية، لا ينقصهم طوال السنة الـ "تايمز" أو الـ "هيرالد تريبو" أو الـ "فرانكفورت الـچيمين" وغيرها من الجرائد التى يبيعها بائع الجرائد فى سان چوستو.

تجهز لنا لاسانتا غذاءً خفيفًا فى الثانية عشرة والنصف ظهراً، عبارة عن شرائح من الخبز بالزبد وشرائح من اللحم المشوى. نتحدث بلا تكلف عن أمور شتى، بروح طيبة، ونروى حكايات ونوادر طريفة،

فالحديث الاجتماعى فن لم ننسه وهو يتيح لنا أن نظل فى حدود العموميات.

من الواضح أننا لا نزال نشعر بالحاجة فى أن يدافع كل منا عن نفسه حتى بعد مضى كل هذا الوقت.

فمن الخارج يبدو زواجنا مستقراً طويل العمر، مبنيًا على الاحترام المتبادل.

ونحن - الاثنين - نعلم تمامًا، ولا مجال لأن ننسى في يوم من الأيام ما سرى بيننا من كره وبغضة شديدة واحتقار لا يخمد. فنحن، في الظاهر، مسنان رق طبعهما بفعل السنين، ولكن إن فتش أحد في أعماق قلبينا، لوجد نفس مقدار الاستياء والخوف الذى أحسته امرأة لم تتعد العشرين من عمرها وقد تزوجت لتوها من شاب في الخامسة والعشرين، يطلب منها وهو شارد أن تخلع قميصها، بينما ينظر نحو النافذة ويشعل سيجاراً فى غرفة النوم.

والآن، يعلم كلاهما، الآن وهما مسنان، ماذا كانت حقيقة الأمر. تلك اللا مبالاة لم تكن شيئًا البتة. لا شىء على الإطلاق.

فقط قليل من الخجل مع قليل من الخوف، وكبرياء لا حد له.

لا مبالاة مصطنعة نخفى وراءها الإحساس بالخوف.

الأمر فى منتهى البساطة.

الآن كلاهما يعلم أن مظاهر القسوة اللاذعة تلك كانت غير مقصودة تماماً مثل قسوة الأطفال البريئة.

الآن قد يكون بإمكانهما معالجة الأمور، ولكنهما يعرفان أنه لا وقت لديهما ولا رغبة لفعل ذلك. لقد أفسد كل منهما حياة الآخر، بإتقان يستحق الإعجاب. بالطبع لا تشفع تلك المعرفة لا فى التقريب بينهما ولا حتى فى عزائهما.

وهما عاجزان عن التخلص من الاستياء الذى يكمن فى أعماق النفس، وإن جردهما أحد ما من ذلك الإحساس أيضاً، لضاعا بحق.

١٠

ذهب ڤيللافورستا كى يرتاح قليلاً بعد الغذاء. وبما أننى لم أره يخرج من حجرته بعد ساعتين، أرسلت لاسانتا كى تطمئن عليه. لم أكن مخطئة فى إحساسى؛ إذ أن ڤيللافورستا لم يكن على ما يرام أثناء العصر.

انتظرت قليلاً قبل أن أتصل بالطبيب، فربما الأمر لا يتعدى بعض الإنهاك أو التعب. ولكن، بعد مرور ساعتين، بدأ يزداد شحوباً وبدا لى أنه يجد صعوبة فى التنفس.

اتصلت هاتفياً بالدكتور سكاورى فى السادسة إلا الربع مساءً.

– لماذا لم تتصلى بى قبل الآن؟

هكذا هى طريقة الدكتور سكاورى البشع، فهو يتكلم وكأنه ينبح. هذه هى طبيعته. غير أنه، فى هذه المرة، بدا لى قلقًا بحق حينما قام بالكشف عليه، أراد أن يفعل ذلك فى حضورى أنا أيضاً، ولم يبد لى أن فرنشيسكو فى حالة متدهورة إلى هذا الحد. لو لم تكن وجنتاه قد أصبحتا غائرتين نحو الداخل بشكل مفرط وغير طبيعى، لحسبت أنه فقد بعضاً من وزنه فقط لا غير.

لا يريد فرنشيسكو أن أتصل بابنه، يقول إن هذه الطفرة فى الضغط وهذه الأزمات المفاجئة صارت الآن عادية. أجلس بجانبه، أقرأ له الجريدة وأحياناً أسخر منه:

– من كان يقول إننى كنت سأجلس على رأس سريرك كى أؤنسك؟

أما هو فيقول:

– من يرانا من الخارج يعتقد أننا نقوم بإعلان عن مرور نصف قرن على زواجنا .

كنت أريد أن أخبر فرنشيسكو بقرارى بشأن التنازل عن أية مزاعم بخصوص أملاكه، وأن أترك جزءاً من الأرض الزراعية لإيمونى.

أنا على يقين من أن الخبر قد يرفع من روحه المعنوية، غير أن سكاورى قال إننى يجب أن أجعله يتجنب أى نوع من الانفعال؛ لأن قلب فرنشيسكو ضعيف لا يحتمل وجسده قد أنهكه المرض والعقاقير.

– ماذا تقول يا دكتور، اشرح لى جيداً لو تفضلت.

– انظرى، أنا آسف ولكن الأمور لا تسير على خير ما يرام. لقد أعطيته مسكنًا خفيفًا حتى يرتاح وينام قليلاً. لكن اتصلى بابنه حتى لا تتحملى المسئولية بمفردك. اسمعى نصيحتى. توقعى كل شىء، وأيضاً توقعى الأسوأ. فهو بالأحرى ضعيف.

– لا يريد ڤيللافورستا أن نستدعى ابنه.

– اتصلى أنتِ به. لقد قلت لكِ، لو كنت مكانك لاتصلت به.

يرحل سكورى ولكنه سوف يعود هذا المساء فى حوالى العاشرة. تعد لى لاسانتا فنجانًا من الشاى وتذهب إلى الصيدلية؛ كى تبتاع الدواء الذى كتبه الطبيب فى الروشتة.

نعس فرنشيسكو، أشعر بوخزة عطف وحنان وأنا أرى كيف أنه قبل أن يأوى إلى الفراش مساء أمس، ثنى بنطاله جيداً وأتقن وضع السترة على ظهر المقعد. عندما كنا نعيش سوياً، كان يترك كل شىء فى غير مكانه وفى عدم نظام.

حقيبته الجلدية موضوعة على المنضدة ولم تجد لاسانتا وقتًا لتفريغها. من الممكن أن أقوم أنا بذلك، وأعلق له البدلة فى الخوان، فإذا بقيت مثنية هكذا فسوف تصبح مليئة بالكسرات.

على ظهر الحقيبة، يوجد كتاب ومجلة عن الساعات وحافظة أوراق من الجلد الأحمر القانى. لا أزال أتذكر هذه الحافظة التى كنت قد اشتريتها من فلورنسا من محل بينيدر وذلك لإهدائها له فى أول عيد ميلاد لنا معًا. لطيف منه أنه احتفظ بها.

طلبت حينئذ من المحل أن يطبع الأرقام بالنار على حزام الحافظة وأعجبته كثيرًا وقتها.

أفتحها لمجرد الفضول.

بها أربع أو خمس صور فوتوغرافية لـــ يولى وإيمونى. بها صورة لى، التُقطت فى باريس، وأنا أرتدى قبعة تشبه الجرس تصل إلى عينىّ ومعطفًا يصل إلى حد العُرقوب. آخذ مجلة "ساعات للتجميع"، والكتاب وأضعهما فوق الكومودينو.

يهوى ڤيللافورستا جمع الساعات منذ أن كنا نعيش سويًا ومنذ ذلك الحين كان يقوم بمسح شامل لمحلات الصياغ الصغيرة المغمورة المتواجدة فى المدن الصغيرة، وبائعى الأنتيكات (العاديات) وبيوت شقيقات الجدة بحثًا عن عينات من الساعات نادرة ولعلها أيضًا ثمينة.

ألقى نظرة أيضًا على الكتاب، وهو كتاب موجز يعود لبداية القرن، تجليده على نظام الفن الحديث ولا يزال بحال جيدة، عنوانه: "حيل ودهاء المولع بالتجميع"، إعداد شخص يدعى الجرنون موريى. موجز السيد موريى له خصائص أخرى كذلك؛ فهو يحتوى على مجموعة من الصور الكاريكاتيرية التى توضح بعض الحوادث المزعجة التى يمكن أن يقع فيها هاوى التجميع غير الحذر، وكذلك عرضًا يتسم بالدعابة عن الأخطاء العشرة الأكثر شيوعًا التى يمكن أن يرتكبها الطامح الذى يسعى لاصطياد كل ما هو نادر ولكنه ربما يكون غير ذى خبرة وحنكة.

لا أشعر بأى حرج وأنا أتصفح الكتيب، ولا يدور بخاطرى أننى مخطئة فى حق ڤيللافورستا أو أننى أتجاوز حدود خصوصياته. بل على العكس، يتهيأ لى أننى أكتشف بعض جوانب من طبعه كنت أجهلها، أو لم أعد أتذكرها، وأننى أجد أن الولع المستمر بالساعات العتيقة هواية تثير الاهتمام مثل الميل لنوع معين من القراءة.

هناك أيضًا رسالة تُركت بين صفحات الكتاب، انزلقت من يدى وسقطت على الأرض. أنا أيضًا غالبًا ما أستخدم بطاقات، وكروت معايدة وكل ما لا أريد عادة أن أتخلص منه فى سلة المهملات ولا حتى الاحتفاظ به، أستخدمه كعلامة للدلالة على الصفحات.

لا تراودنى الرغبة فى قراءة الرسالة ولو للحظة واحدة، ولكنها وقعت على الأرض وينبغى أن ألتقطها، حركة فى منتهى البساطة، أليس

كذلك؟ وبينما أنا ألتقطها لا سبيل أمامى كى أتجنب ملاحظة الختم الأسود على المظروف والمكتوب عليه بحروف كبيرة: فلورنسا - السكة الحديد (حركة بسيطة لا يمكن الرجوع فيها).

وأعلى المظروف مطبوع بشكل جلىّ الكتابة التالية:

مكتب محاماة فيسبوتشى ريكورسى، المحامى بيترو چيسبوتشى والمحامى چوزيبى ريكورسى.

فى الوقت الذى كانت فيه صناعة السينما لا تزال فنًا صامتًا، كانت ستظهر ترجمة على الشريط تتلو الكلمات الآتية:

"هل هى سخرية القدر؟ أم هى صدفة تثير التهكم والضحك؟"

كان المرسل إليه هو زوجى.

أجلس حتى لا أقع أرضًا.

تلف بى الغرفة وتدور مثلما يحدث فى تعاقب الأشياء والأشخاص بشكل سريع.

-٩-

أحمر قرمزى

١

السيد الفاضل الكونت ڤيللافورستا

لدى مكتب المحاماة باربيريس وكوارنتا.

١٦ شارع بلينيي

تورينو

فلورنسا، فى ٥ أبريل ١٩٤٦

حضرة سيادة الكونت الموقر،

استلمت اليوم خطابكم المؤرخ ٢٢ مارس وسأبادر بالرد على سيادتك فى أقرب وقت ممكن. بناء على اقتراحات سيادتك، فقد رأيت أنه من الضرورى أن أراجع وأفحص شخصياً كافة المعلومات الواردة إلىّ بشأن "ضيف" الكونتيسة الحالى فى "المحمية".

وكما تعلم سيادتك بالفعل، فتلك الأخبار، للأسف، ليست أخباراً مطمئنة. فالمعلومات التى أفادكم بها فى الماضى السيد بوريكى، والذى

أعرب له مجدداً، من خلال سيادتك، عن تحياتى لوفرة التفاصيل التى تمكن من جمعها بكل حذر وتكتم ودقتها، هذه المعلومات قد ثبتت لدىّ بعد أن قمت بمضاهاتها بالمعلومات التى حصلت عليها. نحن بالطبع لسنا أمام فرد محل ثقة، وحضرتك تعلم هذا جيداً، بقدر ما نحن بصدد شخصية لا تتحلى بأية مبادئ راسخة بل هى تميل إلى الخداع والتحايل، الذى يستهدف فى الغالب السيدات، ويرمى دائمًا وفى النهاية إلى التحصل على المال. ولما كان السيد المهذب محل التحقيق لا يمتلك المال، ومع هذا يظهر استحسانه الفائق لما يترتب على امتلاك المال من امتيازات ومميزات، ولا يمكن أن ألوم سيادتك إن كان هذا الفكر يتسبب فى شعورك بالقلق، أيها الكونت العزيز. هذا ويتعين علىَّ أن أؤكد لسيادتك أننى لا أعتبر سلوك هذا السيد المنتحل لشخصية أخرى هو نتاج المصلحة والجشع فحسب؛ بل إنه يتعين علىَّ أن أقر وأعترف أنه لأكثر من مرة بلغتنى أخبار، هذا بخلاف ملاحظاتى الشخصية، تفيد بمقدار الحب المتبادل بين الكونتيسة وضيفها الأجنبى، هذا الحب الذى وُصِف بأنه قوى وثابت لا يتغير؛ فهو يحيطها بكل عناية ويقولون إن الابتسامة لا تبرح عينَى الكونتيسة الجميلتين.

اغفر لى الصراحة والعشم الواضحين فى بعض تعليقاتى، ولكن الثقة التى تمنحنى إياها منذ بضع سنوات، قد شجعتنى على ذلك، كما يحدث فى أغلب الأحيان.

تندر الأخبار حول زواجه الأول، و، وفقًا لما لدينا من معلومات، الزواج الوحيد الذى عقده السيد الفرنسى الإيطالى والنمساوى (يا له من تشوش ولخبطة).

الأخبار التى وصلتنى ليست مبشرة على الإطلاق، فبعد أن بذر أموال الزوجة، أرسلها من جديد إلى مدينة بوردو بفرنسا هى وابنته التى لا يتعدى عمرها بضع سنوات. لم أتمكن من معرفة المزيد من المعلومات.

وبناءً على طلب سيادتك، فقد بادرت بتحديد موعد مع ضيف قرينتكم. وأنا أوافق سيادتك الرأى فى أن الضائقة المالية التى يعانى منها تعد فى صالحنا.

سوف أتحقق من الأمر وسأتحرى الدقة.

فى انتظار لقائكم شخصياً، أرجو أن تتقبلوا أخلص تحياتى.

محاميك المخلص ريكورسي

لا أخطر المحامى.

بالتأكيد سوف أجده فى منزله. فهو لا يخرج أبداً بعد غروب الشمس، على عكس الخفاش راتا ڤولويرا؛ هذا هو اسم الخفاش وفقًا للهجة إقليم بيمونتى.

أركن السيارة أمام البوابة وأرى ضوء التلفاز من بين مصراع حجرة الصالون. يلف الظلام المكان؛ إذ لا وجود للقمر بعد، وإن لم أنتبه لخطواتى قد أتعثر وأسقط.

أتساءل عن ماهية التعبير الذى ينبغى أن يكسو وجهى.

فأنا لست مكتئبة على الإطلاق، ولا حتى مضطربة أو ثائرة. لا أشعر بأى إحباط أو خيبة أمل. أحاول أن أحلل نوعية الإحساس الذى أشعر به.

تبلغ المسافة بين السيارة وباب بيت ريكورسى حوالى عشرين أو ثلاثين متراً على أقصى تقدير. تقريبًا أربعون خطوة. إذن الفترة التى تستغرقها أربعون خطوة هى ما لدىّ من وقت حتى أقرر ما هو الإحساس الذى يختلج ويغلى بداخلى. الشىء الغريب والمضحك هو أننى أجهل الإجابة؛ فأنا لست قادرة على فك رموز نفسى. أنا متوترة، هذا

حقيقى، غير أننى بالنظر إلى داخلى، يا له من تعبير أحمق أن أقول "النظر إلى داخلى"، لا أرى أى شىء على الإطلاق. صفر مطلق.

كم كان الأمر بسيطًا. لم يتعد ربع الساعة. قمت برن الجرس، انتظرت إلى أن فُتح لى الباب، دخلت بيته ودون أن أخلع سترتى، سألته:

- ألا تريد أن تحكى لى شيئًا ياحضرة المحامى؟

فغر المحامى عينيه السوداوين، ودس يديه فى جيوب الــ روب دو شومبر، وبلل شفتيه قائلاً:

- حسنًا.

كنت رابطة الجأش، هادئة وصامتة تمامًا. راودنى ظن مباغت ففكرت أنه، إذا بدأت أستجوب ريكورسى، قد يعود إلى طبيعته كمحامى ويجد ألف عذر وعذر كى يتحاشى الأسئلة أو يجيب عليها إجابات مراوغة.

علمتنى حياتى وحدى أن الصمت ثقيل ومزعج، وأنه يمثل للبعض شيئًا لا يحتمل، وريكورسى هو واحد من هؤلاء. بالفعل، بدت عليه فى الحال علامات معينة تنم عن ضيقه ومعاناته، فهو ينفخ ويصدر صوتًا بلسانه كالقرْق. ثم يكرر مجدداً، ولكن هذه المرة اختلفت نغمة صوته كمن عقد عزمه بالفعل على أن يحكى كل شىء لأنه تلمس طريقه بما فيه

الكافية، دعونى أفسرها على هذا النحو، ولم يعد يدرى كيف يحل هذه المشكلة.

- حسنًا.

أستمر فى صمتى،

وللمرة الثالثة يكرر:

- حسنًا.

ثم يشرع أخيرًا فى رواية الأحداث. الانفعال والحرج أوقعاه فى ورطة، وبدلاً من ثرثرته المعتادة، يصدر عنه حديث غير مترابط، مفكك لا أول له ولا آخر. يحكى عن مؤتمر محلفين فى فلورنسا؛ حيث تعرّف على محامٍ شهير من تورينو، يقول عنه إنه أمير المنتدى، وقد قام بمراسلته فى وقت لاحق وجعله على اتصال بزوجى. يتكلم عن مخاوف ڤيللافورستا، وعن وصولى إلى "المحمية" بمفردى وما كنت أبدو عليه من ضعف وضياع لدرجة أن الجميع، الجميع بالفعل كانوا يشعرون بالرغبة فى حمايتى...

- اسمع يا ريكورسى. دعنا نتناول الموضوع بالترتيب. أود أن أفهم بصورة أفضل. ماذا طلب زوجى منك؟ ومتى، بالضبط؟ هل تتذكر التاريخ؟

يصطبغ صوتى بنبرة انفعال لا يمكننى أن أتحكم فيها.

يتحدث ريكورسى ببطء قائلاً:

– صدقينى، لست أعلم، ولا أتذكر الأمور بشكل واضح، ثم إننى متعب. دعينى أستريح، حضرتك تعاملينا بشدة وعنف ونحن نتركك على حريتك لأننا نكن لكِ كل محبة وود. لا أعرف إن كان زوجك قد أخطأ حيالك أم قدم لكِ خدمة من خلالى. أما بالنسبة لى، فقد كان الأمر يتعلق بمهمة مهنية مثلها مثل أى مهمة أخرى.

– لماذا؟ متى كان ذلك، فى أى فترة زمنية؟ قل لى لو سمحت كيف سارت الأمور. أرجوك.

– إن كنت بالفعل تحرصين على هذا، فسوف أمدك بأوراق ومستندات حفظتها عندى فى الأرشيف.

ويضحك هذا العجوز المجنون ضحكة عصبية تصيبنى بالغثيان.

ويستطرد قائلاً:

– أنا لا ألقى بأى شىء، مفهوم طبعًا، فأنا محامى.

– أعطنى هذه الأوراق الآن لو سمحت.

– الساعة الآن الثامنة مساءً.

- إن تكرمت، أعطنى تلك الأوراق.

بدت على ريكورسى إيماءة تنم عن عدم الموافقة ثم نفخ وقال:

- حسناً. كما تريدين. تفضلى بالجلوس، حتى أبحث لكِ عن هذه الأوراق. حضرتك عنيدة بالفعل كالبغل، اعذرينى لاستخدامى هذا التشبيه. مثل البغل.

لا يتأخر كثيراً ويعود إلى حجرة الاستقبال حاملاً تحت كتفه حافظة ملفات من القماش الرمادى، معقودة بشريط رفيع. يبدو عليه الانزعاج والتكدر، لابد أنه تسلق كى يصل إلى الرفوف الأخيرة فى المكتبة، وقد ارتخى حزام "الروب دو شامبر" فأصبح يميل باعوجاج مما يسمح برؤية بيچاما من قماش القطن الناعم لونها أزرق سماوى.

- تفضلى. هنا تجدين كل شىء، الخطابات التحضيرية التى أرسلتها وأصول خطابات الكونت. يوجد أيضاً صورة من التقرير الذى أعده الشرطى السابق، لا أتذكر اسمه، الذى جنده زوجك.

- بوركى.

- نعم، هو بالتحديد. بوركى. هل أخبرك زوجك؟ كم هى قوية ذاكرتك.

- زوجى لم يخبرنى بأى شىء.

- كيف هذا؟

- لا شىء إطلاقًا. ولا كلمة واحدة.

قال ريكورسى كلمة واحدة فقط:

- يا إلهى.

اتجه نحو الباب وأنا أشعر بريكورسى يرتعد خلف ظهرى، ربما يعتقد أنه خان سرًا خطيرًا، وأنه لم يتمسك بمبادئه ومبادئ المهنة، وأنه طعن أيضًا ڤيللافورستا فى ظهره، فضلاً عن غدره بى قبل أربعين عامًا مضت.

أسمعه يصرخ من خلفى وأنا على مسافة بعيدة منه:

- لكن... كيف عرفتِ؟

٣

أخبر لاسانتا أننى لست جائعة وأننى سوف آوى إلى الفراش.

تقول لاسانتا وهى قلقة:

- تأوين إلى الفراش؟ والدكتور سكاورى الذى سيعود فى العاشرة؟ ومن سيبقى مع سيدى الكونت؟

– استدعى دينو لو سمحتِ؛ فأنا بحاجة إليه.

ذهبت لاسانتا كى تتصل به وهى تهز رأسها. ينتابها القلق من أن أمرض أنا أيضاً فتتحول "المحمية" إلى محجر صحى.

بعد ذلك بقليل أسمع صوت دينو. يدق على باب غرفتى كى يسألنى عن حالتى. أقول له إننى بخير، بل فى أفضل حال، كل ما فى الأمر أننى مرهقة بعض الشىء.

أسمعه وهو يتصل بـــ سكاورى ويبلغه بأخبار ڤيللافورستا ويجلس فى الصالون حتى لا يتركنى وحدى. عزيزى دينو.

فى ملف ريكورسى يوجد مكاتبات وخطابات عديدة، ما بين أصول وصور. أنغمس فى المقعد الوثير وأبدأ فى القراءة.

٤

تورينو، فى ٩ مارس ١٩٣٩

السيد المحامى الفاضل،

لقد سمحت لنفسى، معتمداً على تأييدك وعلى خبرتك واختصاصك، أن أعطى اسمك لصديق عزيز ذائع الصيت هو الكونت ڤيللافورستا الذى كان يطلب رأيى ومساعدتى بشأن مسألة حساسة سيكتب لك عنها هو بنفسه.

ولما كنت، بعد لقائنا السريع الذى لا يُنسى بمدينة فلورنسا فى يونيو الماضى، قد أخذت انطباعًا عنك أنك لست فقط محاميًا شابًا وواعدًا، وإنما أيضًا شابًا معتادًا على الحركة والعمل والاختلاط بالناس وكذلك أيضًا ذا حكم صائب وجلى، لا تؤاخذنى على عدم تكلفى فى الحديث معك، فلك أن تعتبر أننى فى خلال خمسة عقود من مزاولتى المهنة قد تعلمت كيف أُقيّم من يحاورنى من أول نظرة.

سوف يكتب لك الكونت باسمى ومن الآن يمكننى أن أؤكد لك مسبقًا أن ما سوف تقدمه له من خدمات سوف يدر عليك ربحًا كبيرًا فى قضية عادلة ولكنها شائكة ينبغى تناولها بمنتهى الحيطة والتكتم. لقد أكدت لڤيللافورستا أنه سيجد فى شخصك، أيها العزيز ريكورسى، كل ما يحتاجه من تكتم وحرص وأى دعم آخر يراه ضروريًا لحالته.

وأنا متيقن تمامًا من أنك سوف تقدم العون الثمين والمشورة الحكيمة للصديق ڤيللافورستا.

وسوف أكون إلى جانبك فى أى وقت تحتاجنى فيه فى المستقبل.

المحامي جويدو باربيرس

تورينو، في ١٥ مارس ١٩٣٩

سيادة المحامى الموقر،

لقد تفضل الصديق باربيرس وأعطانى اسم سيادتك ولا أتردد الآن فى أن أكتب لك بخصوص مسألة حساسة أوليها اهتماماً كبيراً.

أدخل على الفور فى صميم الموضوع، لقد عقدنا العزم أنا وزوجتى، بالاتفاق فيما بيننا أن نفصل بين طبائعنا الهائجة، على الأقل بصفة مؤقتة. كان كلانا يرى أن علاقتنا الزوجية، بدلاً من أن تتميز بالاحترام والرعاية المتبادلة، تتأرجح بالأحرى فى اتجاه الغضب العام المستمر والمتبادل بيننا، والذى تحول إلى معاناة حقيقية بعد حوالى عشر سنوات من الحياة المشتركة.

أنا بطبيعتى متفائل وأعتبر أن المصاعب والعقبات التى اعترضت زواجى نشأت عن حداثة سن زوجتى حينما تزوجتها، وعن فيض طبعها الجياش وتربيتها التى لا تتناسب مع العصر الحاضر والتى تلقتها من والد حنون عطوف ولكنه مستبد. كل هذا خلق من زوجتى امرأة، لا تزال حتى اليوم وهى على أعتاب الثلاثين من عمرها، تفتقر إلى العقل الراجح بدرجة تثير التعجب ولا حول لها ولا قوة، بل هى هوائية تماماً مثل جحش أصيل، تميل إلى التعنت والعناد وإلى الحماسة المندفعة والتصرفات غير المحسوبة. ربما تكون قد أدركت، يا سيادة المحامى الموقر، أننى أتحدث إليكم بصراحة شديدة كما لو كنت أتحدث مع

صديق لى، وأعتقد أننى أفعل الصواب؛ إذ إن اسمكم قد أشار به علىّ بالتحديد صديق عزيز وحكيم من أقدم أصدقائى.

سوف أقول لك ما أريده من سيادتك. لقد قررت زوجتى أن تنتقل للعيش، بصفة مؤقتة على ما أرجو، فى أرض زراعية ملك لها على أبواب مدينة سيينا؛ حيث لا أستطيع ولا أرغب أنا فى الانتقال إلى هناك.

أعترف لك أننى كنت أفضّل بما لا يُقاس ألا تبرح تورينو... لكننى أوفر عليك بعض التفاصيل التى يؤسفني تكرارها بمقدار ما يؤسفنى تذكرها.

يقولون لى إن كل زيجة تواجه أوقات عسر وأوقات يسر، ومنحنيات ومبررات تجعل منها زيجة وحيدة من نوعها لا تتكرر، على الرغم من أن لى رأيًا مغايرًا تمامًا وأعترف بذلك بكل صراحة؛ لأننى أعتقد أن صروف الحياة تتشابه بكل تفاهة فيما بينها، وثقتى ويقينى كبير فى "صوت الشعب" الذى يعزينى ويريحنى آخذًا شكل الأصدقاء والأهل والمستشارين، أريد أن أؤمن وأصدق فى أن قرينتى العنيدة الغريبة الأطوار سوف تعود فى يوم من الأيام لتشغل المكانة التى خصصها لها الله وحبى لها.

انتظارًا لبلوغ حياة جديدة، فى المستقبل القريب نعيشها سويًا فى مزيد من السلام والمودة بالمقارنة بما جرى بيننا حتى الآن، فأنا لا أرغب

فى أن ترتكب زوجتى أية حماقات، ولا أن تقع فريسة سهلة لمغامرين عابرين ولا أن تفقد ذاتها وميراثها سعياً وراء أفكار كاذبة وأوهام.

قال لى المحامى باربيرس إنه يظن على ما يتذكر أنك على الرغم من ممارستك المهنة فى فلورنسا، لم تترك مسكنك فى ضواحى سيينا؛ أى أنك لست ببعيد عن أرض "المحمية".

وبناء عليه، أطلب منك، من هذا الموقع الجغرافى المميز أن تلاحظ وتراقب زوجتى بكل احتراز وتكتم، وتكون عينك عليها تحرسها وترعاها كما يفعل الأخ الأكبر أو الوصى. أتصور أنه فى مجتمع محدود مثل مدينة سيينا، لن يكون من الصعب عليك أن تلقى نظرة عابرة، عابرة فى الظاهر فقط، على "المحمية". يقينى أننى شرحت لك باستفاضة ووضوح وأنا أثق فى احتراسك وتحفظك الشديد.

فى حالة الضرورة، يمكنك الاتصال بى من خلال مكتب المحامى باربيرس.

فرنشيسكو روكا دي ڤيللافورستا

فلورنسا، فى ٢٨ مارس ١٩٣٩

سيدى الكونت الموقر،

لقد انقضى وقت أكثر من المعتاد قبل أن أجيب على رسالتكم الكريمة بتاريخ ١٥ الشهر الجارى وأعترف لكم أنه كان يتعين علىّ أن أفكر فى الأمر ملياً.

على الرغم من التقدير الذى يكنه ويحمله راع متواضع لمهنة المحاماة مثلى لزميل لامع مثل المحامى باربيرس الذى شرفنى باقتراح اسمى عليكم، ومع ذلك شعرت بضرورة أن أسأل نفسى عن إمكانية تنفيذ ما تطلبانه منى سيادتك والمحامى باربيرس.

من واقع طبيعتى وتربيتى أمقت وأبغض كل أشكال المراقبة والرقابة والوشاية. ليس فقط حيال أصدقاء، أيها الكونت الموقر، وإنما أيضًا حيال المحامين.

وإن بدوت صريحًا إلى هذه الدرجة، كما قد تسمى وقاحتى على أقصى تقدير، فهذا لأننى أريد أن تعلم من هو الشخص الذى سوف تتعامل معه فى المستقبل. هأنذا قد وصلت إلى النتيجة وبالتأكيد حضرتك فهمت أننى أقبل المهمة. لكننى أقبلها فقط لأننى فطنت فى رسالة سيادتك إلى ما لم تكتبه فيها وهو هذا الإحساس بالأسى والألم الإنسانى الحقيقى. لقد تكهنت من كلام سيادتك الذى يتخفى وراء صلافة مهذبة، تكهنت بوجود ارتباط ما وثيق ومودة مثابرة وإن كانت غير جلية واضحة، وعليه فقد استنتجت، وأرجو ألا أكون مخطئًا، أن مخاوف سيادتك مشروعة ولها أساس متين من الصحة.

اصفح عن حدتى وقسوة كلامى، فليس من محامٍ واحد يرغب فى أن يقوم بدور الواشى أو الحارس الشرس ولا حتى الوصى السرى من على بُعد تجاه شخص لا يكاد يعرفه وتجاوز بمراحل سن الوصاية أو الحضانة، فما تطلبه منى سيادتك، إن لم أنتبه أنا إلى ما بين السطور،

يتخذ طابع المراقبة البوليسية وليس العناية الودودة المحبة. كان كافيًا بالنسبة لى أن ألمح الكونتيسة بصورة خاطفة، ولدى سيادتك كامل الحق فى أن محيط مدينة سيينا محدود للغاية، حتى أتكهن بذلك الطبع العاصف الذى تحدثتم عنه. أعى جيداً المخاطر التى تحيق بها، فالكونتيسة تتمتع بجاذبية وجمال ملحوظ وتبدو أصغر سنًا من عمرها الحقيقى، ولنقل إننى أقبل التكليف والمهمة المسندة إلىّ بشرط واحد، وهو عدم وجوب ممارسة رقابة ملحة ولا يتعين علىّ أن أرسل لسيادتك تقارير شهرية بما تفعله زوجتك؛ فهذا فى رأيى أمر مهين لسيادتك ولزوجتك ولى أنا شخصياً. سوف تقتصر مهمتى، كما تقول سيادتك، على ملاحظتها بشكل ودى يهدف إلى الخير والصالح، وأيضًا بشكل يقظ دون أن أضطر إلى التحول إلى مؤرخ يستفيض فى تسجيل كل تفاصيل حياتها. هذا بطبيعة الحال باستثناء وقوع أحداث مفاجئة أو مقلقة يتحتم علىّ معرفتها. فى هذه الحالة، سوف تجدنى أزودك بالمعلومات على عجل وفى حينها.

لا أنوى ولا أرغب فى القيام بأكثر من ذلك وبكامل وعيى وإدراكى.

أنتظر ردكم الكريم.

ولكم منى فائق الاحترام والتقدير.

المحامي چوزيبي ريكورسي.

تورينو، في ١٥ أبريل ١٩٣٩

سيادة المحامى الموقر،

أشكركم على كتابكم بتاريخ ٢٨ مارس الماضى و، على الرغم من أننى أعترف بتوقعى مزيداً من التعاون الدوب المطرد، فأنا أقر برضاى عن اتفاقنا هذا.

بالطبع، أنا على ثقة من أننا سنتفق سوياً بالتراضى على أتعابكم التى لم نتناولها بالحديث حتى الآن.

ولما كانت حراستك ويقظتك الودودة التى تحدثتم عنها هى كل ما نجحت مقدرتى البلاغية فى إقناعك بالحصول عليه، فلا يسعنى إلا الرضا والقبول. ولا أعلم بحق لمن ألجأ كى أحصل على المزيد من الخدمات، لست أدرى إن كنت أسبب لكم ضيقًا إذا ما قلت إننى، كنت أرجو أن أؤثر فى شخصكم بشكل أكبر عند إبلاغكم بحالتى التعسة البائسة.

إذن، لم يبق أمامى إلا أن أرجو لكم عملاً طيبًا، وعند هذا الحد، لا أعلم إن كان لزامًا علىّ أن أتمنى وصول أخبار سريعة منكم (ولكن فى هذه الحالة يُفترض أن يكون سلوك زوجتى مثيراً للقلق والمخاوف) أم أتمنى ألا تصلنى أبداً أى أخبار منكم (لكننى لست أحسب أنها طريقة مهذبة أختم بها رسالتى).

أرأيتم؟ إن اقتراحكم قد خلق بالفعل بعض المشاكل.

ڤيللافورستا

فلورنسا، في ١٨ أبريل ١٩٣٩

كونت ڤيللافورستا المحترم،

آلمنى وكان من دواعى أسفى أن أكتب لكم عن عدم استطاعتى القيام بالمهمة التى كلفتمونى بها بالطريقة والأسلوب الذى كنتم تطمحون فيه.

لم أكن لأستطيع أن أحقق لكم رغباتكم مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بتقدير ولو متواضع لذاتى ولمبادئ مهنتى. على أية حال، وجدت الطريقة التى أعرف بها ما يحدث فى "المحمية" من خلال إحدى معارفى، وهى تيريزا باراتا، ابنة عم أدو من الدرجة الثانية، وهو، كما تعلمون سيادتكم بالفعل، القائم بأعمال الأرض الزراعية التى تمتلكها زوجتكم. من حين لآخر تذهب تيريزا إلى هناك كى تساعد فى بعض الشئون، حينما يكون هناك ما ينبغى رتقه أو سراويل تحتاج إلى إجراء بعض التعديلات عليها، وهى فضولية حاذقة وتحب معرفة أمور الغير.

لن أكون ملحاً ولا متعجلاً مع الآنسة باراتا؛ لأننى أخشى الألسنة الطويلة (وهى رذيلة قديمة منتشرة فى بلدتنا هذه).

سأوافيكم بالأخبار أولاً بأول، لا تشك فى هذا، بمجرد أن أرى الوقت ملائماً.

أرجو من سيادتك أن تُذكرِ المحامى باربيرس بشخصى.

لكم منى وافر الاحترام والتقدير.

المحامى چوزيبى ريكورسى

سان بياچو، فى ٢٠ سبتمبر ١٩٣٩

سيادة الكونت الموقر،

لقد انقضت شهور عدة منذ آخر رسالة بعثت بها اليكم فى أبريل الماضى، وأثناء هذه الشهور لاحظت كيف أن زوجتكم تعد امرأة تتمتع بقدرة عالية وقدر كبير من رباطة الجأش. لا يخيفها العمل ولا التعب الجسدى، فهذا هو موسم حصاد العنب فى هذه النواحى، وصدقنى سيادتك، أنه لا يمكن أن يرتجل أحد فى مجال زراعة العنب.

ومع هذا، لم ينثن عزم الكونتيسة أبداً، ولا حتى أمام فن صناعة النبيذ، الذى لا تعلم الكونتيسة عنه أى شىء على الإطلاق. ولكنها وثقت بالكامل وبمرونة مدهشة، كما تروى لى الآنسة باراتا التى سبق أن نوهت عنها، فى خبرة واختصاص أدو، وهو رجل مهذب متحفظ وعبوس تمكنت زوجتكم من استرضائه فى لمح البصر.

أما فيما يتعلق بأى تعقيب آخر بشأن سلوك الكونتيسة الشخصى، فأنا لست مخولاً بذكره لسبب بسيط وهو غياب تفاصيل قابلة للنقد وتستحق ذكرها.

يبدو أن قرينتكم عاقدة العزم على أن تحول "المحمية" إلى أرض زراعية منتجة وتدر ربحًا، وهى لهذا تكرس كل وقتها بشغف وطاقة كبيرة.

يذكرون لى أن الكونتيسة، إذا ما استثنينا بعض الأوقات التى تقضيها فى الحفلات الاجتماعية التى تُقام فى مدينتى سيينا وفلورنسا، تقضى وقتها فى ركوب الخيل، وهى هوايتها الوحيدة والنشاط الذى تكرس له كل ما تجده من وقت فراغ فى يومها المزدحم بالأعمال.

ليس لدىَّ ما أقوله لكم أكثر من ذلك.

أنتهز الفرصة كى أعبر لكم عن خالص تحياتى.

المحامى چوزيبى ريكورسى

تورينو، فى ٣٠ سبتمبر ١٩٣٩

حضرة المحامى المحترم،

أشكر لكم الاهتمام بإرسال هذه الأخبار المطمئنة عن زوجتى.

لا أخفيك مقدار دهشتى عندما علمت بالدور الجديد الذى تلعبه زوجتى، حقًا إنه من الصعب أن تعرف شخصًا معرفة تامة وثيقة.

كنت أظن أننى فقدت رفيقة رقيقة رفيعة المستوى فحسب وهأنذا أدرك الآن ما لحق بى من مصيبتين حسبتها مصيبة واحدة؛ لأن ما كنت أقدره على أنه جمال صالونات فقط كان يخفى فى واقع الأمر مواصفات المحاسب وخصال المزارع المثابر الدءوب وسماته!

لا أخفيك أيضًا أننى، فى السنوات الخمس الأخيرة، فقدت أموالاً طائلة بسبب الأرض، وبسبب أشجار الكروم الملعونة التى أصابها مرض غريب من أمراض ما وراء جبال الألب مما أدى إلى جفافها بالتمام، وهى أموال أكثر بكثير مما فقدته فى السباقات واللعب!

إن لم تكن هذه هى "نيميزى" آلهة الانتقام عند الإغريق فماذا تكون إذن...

أشكرك من قلبى يا حضرة المحامى.

ڤيللافورستا

فلورنسا، فى ٣ فبراير ١٩٤٠

سيادة الكونت،

لدىّ القليل جدًا لأكتبه لكم.

كل أسبوع يمر، تبرهن الكونتيسة على نكران الذات أكثر بكثير مما كان الجميع يتوقع من سيدة غريبة آتية من المدينة.

وأنا أحسب أن الأرض بدأت تعطيها ثمارها، ولولا الأوضاع السياسية فى أوروبا التى تثير قلقنا جميعًا، لا أبالغ إن قلت لكم إننا هنا، نتمتع بحالة معنوية ممتازة وروح عالية متفائلة.

وافر احترامى وتقديرى.

المحامى چوزيبى ريكورسى

فلورنسا، فى ١٢ يونيو ١٩٤٠

سيادة الكونت،

أكتب لكم على الرغم من حالة الاضطراب التى تثيرها الأخبار الأخيرة.

إنه لمرعب ورهيب مجرد التفكير فى أننا بلد يخوض حرباً.

أحسب أنه من المحتمل، بل من الأكيد استدعائى للحرب.

فى ظل هذه الظروف، أجدنى مضطراً إلى قطع مراسلاتنا وكذا الحماية الودودة، ولنسمها هكذا، التى قمت بها تجاه زوجتكم فى السنة الأخيرة.

نسمع من جهات متعددة أن هذه الحرب سوف تكون قصيرة ونتائجها أكيدة. وعلى أمل أن يتحقق هذا، وأتمنى ألا يكون أملاً واهماً، أعتقد أنني بلا شك سوف أقوم بمسئولياتى كاملة تجاه ما كلفتمونى به، بمجرد أن تنتهى الحرب.

مع أخلص تحيات الصداقة والاحترام.

المحامى چوزيبى ريكورسى

سان بياچو، فى ٩ مايو ١٩٤٥

سيادة الكونت الموقر،

لا تعلم سيادتك كم أرجو أن أجدكم بصحة جيدة وحالة معنوية سعيدة. لقد علمت أخباركم من صهر المحامى باربيرس المحامى كوارنتا، بعد أن قدمت له تعازىَّ فى فقدان المرحوم حماه الذى وافته المنية فجأة.

قال لى المحامى كوارنتا آنذاك إنه لم يتم استدعاؤك للحرب لأنك أُعفيت بفضل علاقاتك الاجتماعية وبفضل مبالغ مالية كبيرة وسخية قدمتها لصالح القضية التحررية الليبرالية.

هذا هو ما يحدث أثناء المصائب الكبيرة، مقابل معارف تخجل منهم، هناك معارف أخرى تفتخر وتتباهى بهم.

لم أحظ بنفس ما قُدر لكم لأننى استُدعيت للحرب وإن كان لفترة وجيزة تركت مع ذلك جراحات عميقة، ليس فقط من الناحية المجازية. فمنطقة البطن تزينها اثنتان وخمسون غرزة. لقد رأيت أنواع البشاعة والتراچيديا كافة. خلال هذه السنوات، حاولت الاحتفاظ بحالتى المعنوية مرتفعة راجيًا أنه، إن عاجلاً أو آجلاً، سوف يرجع كل شىء إلى ما كان عليه قبلاً، وأننى سوف أعود إلى المحكمة وأوراقى تحت ذراعى، وأحتسى فنجانًا من القهوة فى المقهى على ناصية شارع بورچو أونيسانتى.

كانت خطيئتى هى سذاجتى. لن يعود أى شىء على الإطلاق إلى سابق عهده، وأنا لا أقصد بهذا مدينتنا الجميلة فلورنسا، المليئة بالحفر السوداء والحطام، وإنما أقصد ما شاهدناه وعانينا منه.

الأمر يحتاج إلى وقت كى يستأنف الروتين اليومى إيقاعه، وكى نجد شقة جديدة نفتتح بها من جديد مكتب المحاماة الخاص بى، إذ قد تحطم العقار الكائن بشارع كيروبينى، وعندها سوف نبدأ من جديد الحياة المعتادة. هكذا هو حال الدنيا، ينشق الحجاب ويُنسج حجاب آخر.

على حد علمى، لم تبعد قرينتك أبدًا عن "المحمية"، ولا حتى فى أسوأ لحظات القصف أو التمشيط. يقولون لى إنها سمحت لأطفال

مدرسة ابتدائية بالإقامة فى منزلها وكل من طلب منها معونة لم تبخل عليه بأية مساعدة معنوية أو اقتصادية أو عملية.

بمجرد أن أجد الظروف مواتية لفتح مكتب المحاماة من جديد، سوف أخبر سيادتك على الفور.

فى الوقت نفسه، أرجو من سيادتك أن تغفر لى الألفة المفرطة فى الأسلوب الذى سمحت لنفسى أن أستخدمه فى مخاطبتكم، والذى لا أجد له مبرراً سوى النشوة التى أحسها عند إدراكى بأننا أخيراً بلد حر. حتى إنْ كانت مراسلاتنا تمليها علينا دوافع مهنية، فهى تذكرنى بفترة زمنية معينة، وهى ربيع خمس سنوات مضت، واليوم يبدو أن هذه الفترة تنتمى إلى ما قبل التاريخ السحيق.

مع أخلص تحياتى القلبية.

المحامى چوزيبى ريكورسى

تورينو، فى ٢٢ مايو ١٩٤٥

حضرة المحامى العزيز،

أخيراً وصلتنى أخباركم! لقد رجعت إلىَّ ثلاثة خطابات مكتوب عليها "مرسل إليه مجهول الهوية"، وكنت أخشى حدوث أمور أسوأ مما رويته لى!

يريحنى بحق أن أعرف أن الضرر الوحيد الذى سببته لك الحرب هو ضرر معنوى، هذا بالطبع بخلاف الجرح وما استتبعه من غرز.

أرجوك لا تبرر أسلوبك الذى يتسم بالألفة، فخطاباتى التى أرسلتها إليكم قبل الحرب، وكانت بمثابة متنفس لى عن غضبى العارم وضعفاتى تمنحكم أكبر الحق والدافع المقنع فى تلك الألفة.

وكى أصل إلى لب الموضوع، أكتب إليكم هذه المرة كى أعفيكم رسمياً من خدمة حماية الكونتيسة، كما يمكن أن نسميها. فكما سبق أن كتبتم لى، والحق معكم فى ذلك، لقد انقضت الآن خمس سنوات غيرت كل التوقعات والرؤى المستقبلية، علاوة على أنها غيرت، بطبيعة الحال، وجه أوروبا والعالم أجمع وكذلك غيرتنا نحن أيضاً، لقد حدث ما لم يكن فى الحسبان وانقلبت كل الموازين.

قد يصعب عليك أن تصدق، ولكن لتعلم أنه طوال هذه المدة، طوال هذه السنوات من الحرب والمعاناة بجميع أشكالها، ما من مرة واحدة شعرت فيها زوجتى، لا أقول بالرغبة، وإنما على الأقل بالحاجة أن تلجأ لمن كان زوجها فى يوم من الأيام، وهو بالفعل زمن يعود إلى ما قبل التاريخ!

لا خطاب ولا كلمة، لا شىء إطلاقاً.

تقابلنا فقط فى جنازة والدها، حيث تعانقنا عناقًا رسميًا لم يتجاوز لحظات وكان بمثابة التصديق النهائى على ما أصاب علاقتنا من برود وفتور. ماذا تظن يا حضرة المحامى؟ فمع مضى الوقت تتغير وتتبدل المشاعر والأمزجة، بصورة لا يدركها المرء فى البداية، ثم رويداً رويداً تتغير بصورة جلية واضحة، إلى أن يكتشف المرء أنه تبدل بصورة لا رجعة فيها.

هذا ما حدث لى بالضبط. لذلك، أحلك من أى التزام تجاهنا. إن أردت، داوم على زيارة زوجتى، لك الحرية فى تقدير طبائعها وروحها دون أى أغراض أخرى، واصدر حكمك عليها بناءً على حقيقتها وجوهرها، إذ هى امرأة هاربة من عصر ومن عالم لم تواتها شجاعة الانصياع لأحكامه وقواعده ولا حتى تغييرها.

من واقع خطاباتكم السابقة، استطعت التكهن بأنك تعتبرها امرأة ذات شجاعة لا محل لها من الشك. لا تسِئ فهمى، فلست أتحدث بلسان الزوج الساخط الذى هجرته زوجته، لم يعد هذا حالى الآن على الأقل، فلا تسئ فهمى إن قلت لك إن كل ما فعلته زوجتى المحبوبة، على مدار حياتها، إنما فعلته ليس بدافع الشجاعة وإنما من قبيل الجبن والنذالة.

لا داعى إذن من استمرار هذه المكاتبات بيننا، وأجدنى آسفًا على عدم مراسلاتكم وذلك لاستحسانى أسلوبكم أكثر من المحتوى والمضمون.

أتمنى لكم عودة سريعة إلى حياتكم التى ألفتموها، وأتمنى ذلك لنفسى أيضًا ولمدينتى ولكل أوروبا.

ڤيللافورستا

فلورنسا، فى ٣٠ يوليو ١٩٤٥

الكونت الموقر ڤيللافورستا،

أسمح لنفسى بأن أكتب لكم، مخالفًا رغبتكم، حيث إنه وقع أمر جديد هنا، أمر تحول إلى موضوع حديث ليس فقط النساء المتعصبات المتشددات وإنما أيضًا نصف أهالى المدينة. وعليه أرى أنه لابد أن تعلموه.

فمنذ حوالى أسبوعين، تتردد الكونتيسة على سيد أجنبى (لم أتمكن بعد من تحديد شخصيته على وجه الدقة، لقبه يبدو نمساويًا أو ألمانيًا وهو ترينرسبرج، ولكن لغته، على حد قول الآنسة باراتا المجتهدة، لغة إيطالية دون أدنى شك تشوبها بعض الأخطاء النحوية التى يقع فيها الأجنبى عادة) ولا أعرف المزيد فى الوقت الحالى.

أنا فى انتظار تعليمات تصلنى من قِبَلكم.

أجدد لكم وافر الاحترام والتوقير.

المحامى چوزيبى ريكورسى

تورينو، فى ١٥ أغسطس ١٩٤٥

عزيزى ريكورسى،

أحسنت صنعًا بإبلاغى. أما بالنسبة لزوجتى، فماذا بوسعى أن أقوله لك، لا سبيل سوى تهميش جراحاتنا وحتى العميق منها.

لا أستشف الكثير من اسم ترينرسبرج ولكننى سأستعلم عنه وسوف ترى أننى سأحصل على كل ما يفيدنا من معلومات ضرورية.

أرجوك أن تكتب لي، إن وافتك معلومات أخرى.

ڤيللافورستا

تورينو، في ٣٠ أغسطس ١٩٤٥

الأستاذ المحامى ريكورسى،

على اعتبار أن لقب صديق زوجتى ذو وقع ألمانى، وشعبية الألمان فى الانحدار! فالأخبار المتقطعة الناقصة التى جمعتها لا تدعو للاطمئنان. يقولون إن ترينرسبرج، واختصارًا الكل يدعوه بلقب بشع وهو تروت، كان يتردد قبل اندلاع الحرب على أوساط الأغنياء بلندن وباريس، وإنه أنفق أموالاً طائلة على طاولة اللعب الخضراء، ولكن بما أن اللعب هو نقطة الضعف المشتركة بيننا، فهذا خبر لا يثير شكوكى كثيرًا. لم أنجح فى معرفة المزيد هنا فى تورينو؛ فمن الصعب إجراء تحريات فى الأوساط التى يتردد عليها عشيق زوجتى.

سوف ألجأ إلى مساعدة شخص يدعى بوريكيّ أو بوريكى، وهو شرطى سابق يسترزق من الماء العكر، ويرجع الفضل فى ذلك إلى أزواج مثلى.

سوف أوافيكم بالأخبار. أعلمنى بوريكى أنه إذا لم يتحرك ترينرسبرج هذا من إيطاليا، فى خلال شهر سيتمكن من إعداد تقرير واف، أما إذا كان رجلنا المنشود يعيش فى الخارج، والأحوال فى أوروبا رأسًا على عقب، فالأمر قد يستلزم ثلاثة أو أربعة شهور للوصول إلى معلومات ولو غير كاملة.

من يدرى.

إلى اللقاء سريعًا.

ڤيللافورستا

تورينو، ١٠ يناير ١٩٤٦

سيادة المحامى الموقر،

مرفق طيه صورة من تقرير بوريكى. اقرأه لو سمحت، وسترى أنه ليس هناك ما يدعو للاطمئنان، فهذا المدعو ترينرسبرج ما هو إلا كازانوڤا محترف. لا يملك مالاً، ولا أملاكًا ولا أية فرصة للكسب، ويذكر تقرير بوريكى أن هذا المدعو أصبح بعد الحرب خبيراً فى الفن، تُرى هل هى مهنة يمكن أن يتعلمها المرء فى تسعة شهور فقط؟

أترك الحكم لكم. لقد رجوت بوريكى أن يخاطبك، ويمدك باسم شخص ما، يمكنه أن يجمع معلومات حديثة ومفصلة عن ترينرسبرج فى فلورنسا قبل أن نحدد ما ينبغى أن نتخذه من خطوات، من الواجب أولاً أن نحدد طبيعة الشخص الذى نتعامل معه. أما بالنسبة لى، فلم يعد عندى أمل فى أن تندم زوجتى، بما أنها أحضرت إلى منزلها ذلك السيد. مع ذلك، أرى أنه من واجبى أن أسهر عليها من على بُعد لأنها عزيزة عندى ولا تزال تحمل اسمى. فإذا كان هذا المدعو ترينرسبرج مجرد محتال غير مؤذ، فلندعه لها، ولكن، لا سمح الله، إن اتضح أنه مغامر لا ضمير له، سوف يهرب يوماً ما فى ملء الليل بمصوغاتها وقلبها، ففى هذه الحالة أشعر بضرورة التدخل. ماذا تتوقع منى، فروح الفارس الشهم تكون أحياناً سبباً من أسباب القلق والهم.

أرجوك، لا تتهاون فى مراقبة "المحمية".

فيللافوزستا

تورينو، في ٥ مارس ١٩٤٦

عزيزى ريكورسى،

أجدنى مضطراً أن أواجه مشقة السفر حتى مدينة فلورنسا كى أقابل شخصاً يدعى أوتاڤيو بريونى والذى من المفترض، على حد قول بوريكى، أن يقدم لى بياناً مفصلاً وافياً عن شخصية ذلك الامرئ ذى

الأصل الإيطالى - النمساوى الذى ظهر فى طريقنا. وفى ذات الوقت، أفكر فى أننا لو اضطررنا أن نصل إلى حد الرغبة فى إزالة ترينرسبرج نهائيًا من طريقنا، فمن المرجح أننا قد نستطيع... لنقل، شراء هذا. ألا تتفق معى فى الرأى، نظرًا لطبيعة شخصيته؟

وأسعد بلقائكم أخيرًا يا عزيزى ريكورسى بصفة شخصية. سوف أنزل فى فندق الإنجليز من العاشر وحتى الخامس عشر من أبريل.

أنتظر أخباركم.

ڤيللافورستا

فلورنسا، في ٢٠ مارس ١٩٤٦

سيادة الكونت،

أظن أنه ينبغى أن نسلك طريق الاتفاق المالى مع ترينرسبرج.

المعلومات التى تصلنى باستمرار، من خلال بوريكى وخادمه فى فلورنسا، لا يتغير مضمونها المثير للقلق. لدرجة أن بوريكى يحسب أن الأمر قد يتعلق بجاسوس ألمانى سابق، تحول إلى خدمة الأمريكان؛ نظرًا لتغير الظروف والأوضاع. بالتأكيد، هذا الافتراض يثير الحيرة والاضطراب، ولكنه قد يفسر ظهور ترينرسبرج المفاجئ فى سينا وإقامته الطويلة فى "المحمية"؛ إذ تقتضى الضرورة وجود غطاء له فى مكان بعيد تمامًا عن الشبهات.

ومع ذلك، أحرص على أن أقول لكم إن الكونتيسة يبدو عليها البهجة والهدوء وجهلها التام بالأمر حتى إنه يراودنى الشك فى أننا، أنا وسيادتك، بصدد ارتكاب خطأ كبير.

لنأمل ألا يكون الأمر هكذا، بحق الله.

مع وافر الاحترام والتقدير.

المحامي چوزيبي ريكورسي

تورينو، في ٢ أبريل ١٩٤٦

عزيزى ريكورسى،

أرجوك لا تسقط فى المصيدة أنت أيضاً!

فمنذ سنوات طويلة مضت اختارت زوجتى الوحدة التى لا تناسبها، علينا أن نتذكر ذلك، وحينما يصل سيد مهذب لطيف يقبل يدها ويحسن اختيار النبيذ، وأضيف أنه بالتأكيد يجيد رقص الڤالس، فقد تمت أركان اللعبة ووقع الجميع تحت تأثيره الفتان الجذاب.

ولندع الوقائع هى التى تتحدث، فالشاب هو، على أفضل تقدير، نصاب ومحتال اندس فى فراش زوجتى؛ لأنها جميلة، ولأنها ثرية، ولأنها وحيدة. أو إنه، ولعل الله لا يسمح بذلك، جاسوس على حد قولك!

فليطمئن قلبك، يا سيادة المحامى، فهذا هو حال الدنيا منذ الأزل، وما من أمل فى تغييرها. لقد أخذت قرارى (انتبه، فعليك أن تهتم أنت بالأمر شخصياً).

تفضل بإعداد مسودة اتفاق مالى أستطيع أن أتحمله دون أعباء تعيقنى.

أنتظر ردكم.

ڤيللافورستا

فلورنسا، فى ٣٠ أبريل ١٩٤٦.

الكونت العزيز،

أكرس كل همتى وتصميمى لإقامة علاقة وثيقة مع ترينرسبرج، هادفاً فى النهاية إلى التلويح له بفرصة لا تعوض فى مستقبل وردى من الناحية الاقتصادية بفضل عرضكم الكريم، وذلك حينما تحين الفرصة المواتية، دون أن يكون هناك أى خطر من أن يوجه لى تروت ضربة تطيح بى أرضاً.

فى الوقت نفسه، سأكون شاكراً لكم إن تفضلتم وأرسلتم لى صورة من الاتفاق الذى أرسلته لكم قبل رحيلكم إلى فلورنسا حيث لا أحتفظ بصورة منه، وأرجو أن تدونوا ملاحظاتكم عليها.

وبما أننا لسنا نعلم ماهية الشخصية التى نتعامل معها، فإن إيداع المبالغ وتغيير الاسم على الأسهم، ينبغى أن يتم تجزئته على مدار عدد من الأشهر.

علاوة على ذلك، يلزم أن تقوموا من جانبكم بتقدير دقيق بقدر الإمكان للرقم الإجمالى الذى أنتم على استعداد لدفعه لإنجاز هذا الاتفاق. أذكركم بأنه يجب أن تتوقعوا أن يكون الطلب باهظًا.

وأنا على يقين من أنه، فى خلال شهرين على الأكثر، سوف يتم حفظ هذا الأمر نهائيًا.

أطيب تحياتى.

المحامى چوزيبى ريكورسى

فلورنسا، فى ١ يونيو ١٩٤٦

الكونت الموقر،

تمت المهمة! تروت موافق. سيأتى بعد غد إلى مكتبى. لقد قمت بتحرير اتفاق وكتابته، عقد خاص يقر بجدول زمنى محدد لإتمام عمليات الدفع. يقول تروت إننا نمزق قلبين، فلنعطه على الأقل الوقت اللازم لتنظيم رحيله (أعتقد أنه يقصد: الوقت اللازم كى يخبر الدائنين بأن مبلغًا لا بأس به من المال فى طريقه للوصول).

ذكرت له أنه يمكنه أن ينسحب فى أى وقت إن أراد هذا، ولكن إن قبل الالتزام بالعهود، فإن شرط الاتفاق الذى لا يمكن التغاضى عنه هو التكتم والسرية المطلقة، أعتقد أنه يمكننى أن أؤكد لك، يا سيادة الكونت، أننا فى خط مستقيم نحو طريق الوصول، وسوف أُطلع سيادتك على الأخبار على وجه السرعة.

أخلص التحيات.

المحامى چوزيبى ريكورسى

٥

فى النهاية، يؤسفنى أننى عرفت كل شىء. لقد انقضت سنوات وأنا أتعلل بفكرة عدم وجود دافع قاس لرحيل تروت. كنت أظن أنه، فى النهاية، غلب عليه احتياجه للبقاء بمفرده، وللتنقل من مكان لآخر، وأن رغبة لا تُقاوَم فى الترحال قد غلبت على حبه لى.

أنا أعرف أن الغجر الرُحل يتسمون بنظرة ثابتة وصافية، حينما يراقبون تغير المناظر الطبيعية والعادات والتقاليد، نظرة ثاقبة نحو الأمام، فالمرحلة القادمة هى التى تهم، وليس ما يخلفه المرء من ورائه،

فالتغيير لا يزعجهم، ولا ذلك الشكل الدقيق الذى لا يتبدل من أشكال التغيير؛ وهو الاختفاء، وهم لا يرتجفون حينما يؤول المعبد الچوڤانى إلى حطام لأنهم حولوه إلى جبخانة سفينة، وحينما يبزغ بجوار البرج الذى يعود إلى القرن الثالث عشر عمارة حديثة سلالمها من رخام ويتم تلميعها بالرصاص، وأبداً، أبداً لن يلبث ذلك المشهد على حاله. وهم لا يرتجفون حينما يقع ما لا يُحمد عقباه، وأبداً لا يزعجهم ترك عالم بأسره خلف أكتافهم.

لطالما قلت لنفسى إن هذا هو طبع تروت.

أما أنا على العكس فقد اخترت التوقف وكان تروت يعلم هذا. فلم يحاول حتى إقناعى، بل على العكس. ساعدنى على مد جذور هنا؛ لأنه كان يقول إن "هذا هو مكانك". كان يخمن أنه لا مجال لتغيير طبيعة الأشياء أو الأشخاص. حاول أن يعيش معى، واحتمل بقدر استطاعته، إلى أن طالبت طبيعته الهائمة بحقوقها، دافعة إياه فى النهاية إلى اختيار الرحيل من جديد. كان يعلم دوماً أنه فى يوم من الأيام سيرحل، فالاضطراب وعدم الهدوء الداخلى يشبه حيواناً يصعب ترويضه.

لعل تعليمه إياى صناعة النبيذ كان هو هديته لى، من يدرى. هناك أشخاص ينتهجون نهجًا ثم نهجًا آخر، وآخر، ثم طريقًا وطريقًا آخر، والتوقف ما هو إلا هدنة لاستلقاط الأنفاس واستجماع القوى قبل

الرحيل من جديد، خطوة خطوة، متظاهرين بأنه يوجد هدف فى مكان ما، أى هدف.

كان ينبغى الاستسلام لفكرة أن طبيعة تروت مختلفة جداً عن طبيعتى.

علاوة على ذلك، ألم يكن تروت صاحب نظرة تائهة شاردة، وطبع سكوت كان من الممكن الخلط بينه وبين اللا مبالاة بكل سهولة، وعدم وضوح خططه مما كان يثير دهشتى ويعيقنى، فى شهر يونيو قبل زمن طويل مضى، من أن أحكى له نقاط ضعفنا وكل أمر مستحدث بيننا؟

لقد قرأت كل هذه الرسائل التى تتحدث عنى، وتولينى اهتماماً، وبدلاً من أن ينشأ بداخلى أخيراً الإحساس بأننى وجدت قطعة الفسيفساء الناقصة، يبدو لى أننى وسخت شيئاً ما، وأننى لطخت يدىّ بشىء ما لزج وبشع لا أعلم ماهيته بالضبط، وأنه كان يتحتم علىّ أن أتركه يرقد هناك حيث كان طوال كل هذه السنوات.

أفكر من جديد فى تروت، فى اللحظة التى عانقنى فيها بقوة وكان ينظر مباشرة فى عينىّ هامساً "أنتِ لا تفهمين، أنتِ لا تفهمين".

ماذا كان يحاول أن يقول لى؟

ما هو الشىء الذى لم أكن أفهمه؟ أنه تركنى لأنه كان فى احتياج إلى المال أكثر من احتياجه إلى الحب؟

٦

بعد كل هذه الكلمات، يسود الصمت منزلى.

بعد كل هذه الذكريات، الحاضر.

فى الخارج يلف الظلام الفناء، ولكن يمكن أن نلمح الظلال وحدود الجراچ غير الواضحة، والبوابة، وأشجار السرو الأربع الواقية من الرياح والتى تحمى حائط السور. لابد أن القمر بزغ أخيراً. فى بداية الشتاء يكون ضوء النجوم خافتاً وبارداً ويغشاه السحاب.

إن حياتى هى نتاج هذا التذبذب، ونتاج استمرارية وتكرار الانتقال من هذا الفناء الذى يغمره الظل إلى الضوء، ونتاج صباح أحد أيام شهر يونيو الذى ينذر بالقيظ الشديد، أو نتاج حجرة نوم الأطفال حيث قضينا أنا وأنريكو سنوات طفولتنا.

. لابد أن آلية من آليات المخ قد وقعت تحت الأسر فى حركة متذبذبة إلى الأمام وإلى الخلف، بين ظلمة إحدى أمسيات شهر نوفمبر الرطبة ويوم من أيام شهر يونيو حيث صرصرة زير الحصاد تختلط بصوت مذيعة الراديو المرتجف والتى تعدد أرقامًا وبيانات معلنة نهاية عصر وبداية عصر جديد. إيطاليا جمهورية، وحتى إن تساءلنا جميعنا ما الذى سوف يتغير، تتنبأ أمى وتقول فى صوت مستعار "التغيرات لن تُعَد ولن تُحصى"، فإننا لا نكف عن وضع خطط لكل يوم، فى أى ساعة سنتناول

فطورنا، وإن كنا سوف نذهب لعمل نزهة على ظهر الجياد لمدة ساعة أو لمدة ساعتين.

نعم، ربما تتغير بلادنا، ولكن فى الوقت ذاته هذا اليوم من شهر يونيو سوف يكون مثل أيام أخرى كثيرة، سوف يكون مثل أمس، ومثل الغد وبعد الغد. يقترب منى تروت ويداعب شعرى بحنان بالغ.

أتذكر تفاصيل يمكن نسيانها تمامًا، مثلاً الدجاجة التى قامت نوڤيللا بطهيها، بعد أن غمستها فى النبيذ الأبيض وأضافت السالڤيا والروزمارى. أتذكر أننا قررنا أن نذهب للقيام بنزهة بعد وجبة الإفطار، إنه يوم فى غاية الجمال، وغاية الصفاء، وعدنا نمتطى الخيل فى العصر، حينما تقل شدة الحر. فى آخر لحظة يعتذر تروت عن المجىء ويقول إنه يفضل أن يمكث فى "المحمية".

أتذكر إحساس النزول من على ظهر الخيل، بعد أن نصل إلى البيت، وفرد أرجلنا المتعبة المتصلبة، بينما أسأل ماريو عما إذا كان يعلم مكان تروت، فيبدو لى أننى أهملته طوال اليوم، وكرست كل وقتى لأصدقائى ولواجباتى كربة منزل. منذ يوم الأحد، أى قبل أربعة أيام، وأنا منشغلة فقط بمتابعة نوڤيللا لاختيار أنواع الطعام، وبمساعدة ماريو فيما يتعلق بالجياد، جيادى وتلك التى قمنا بتأجيرها من أجل الضيوف، وأجتهد فى تنظيم نزهات سيرًا على الأقدام وعلى ظهر الخيول، ورحلات لمدينة سيينا وأشياء من هذا القبيل.

أتذكر ماريو الذى يرتدى بنطالاً من القماش الغامق وسترة من قماش الجوخ، صيفًا وشتاءً، وكأنها زى رسمى، وهو يهز رأسه، علامة على أنه لا يعرف مكان تروت. يندفع أصدقائى داخل المنزل كى يخلعوا أحذيتهم ذات الرقبة الطويلة، ويغيروا ملابسهم، وربما لأخذ قسط من الراحة، فى هذه الأثناء تضحك كل من نينا وإيريس وتمزحان وتهمسان. أصعد إلى الطابق العلوى كى أغير ملابسى، غرفة نومى حارة جداً، فشمس يونيو صارت بالفعل متقدة، من يدرى، من الواضح أننى نسيت أن أغلق المصراع هذا الصباح. غريب هذا الأمر، كنت أحسب أننى أغلقتها، كما كان يبدو لى أيضًا أننى أغلقت ضلفة الدولاب، وأدراج الخزانة لأننى امرأة منظمة. أجتاز الغرفة، بلاطة رمادية وبلاطة سوداء وأخرى بيضاء، كى أغلق خزانة الملابس. أتذكر الضوء الذى يصل حتى هذه النقطة من النافذة، محملاً بغبار الصيف، ويقع بميل ويضىء كل رف، كل درج، وكل دعامة خشبية داخل خزانة الثياب التى يضع فيها تروت أغراضه.

الخزانة خاوية، خاوية تماماً، لم يبق بها سوى أكياس اللاڤندر ضد العتة.

أتذكر نينا التى وجدتنى، من يدرى هل بعد ساعة؟ أم ساعتين؟ وأنا لا أزال جالسة على الفراش، أنظر إلى الخزانة الخاوية تماماً مثلما كنت أنظر دوماً وأنا منبهرة مفتونة بكرات الثلج التى تتقافز وتلف وتدور

فى ضوء أعمدة النور بالشوارع، شلال من كرات الثلج، تختلف كل منها عن الأخرى، والتى ما كنت أقدر أن أغض النظر عنها.

تفهم نينا على الفور، أكانت تعرف بالفعل كل شىء؟، تحاول أن تواسينى، وتهدّئ من روعى بكلمات حمقاء لا أصدقها ولو حتى للحظة واحدة مثل ("سيعود، لابد أنها أمور عاجلة، فقد انتهت الملكية، الأمر فى غاية الجدية أنت تعرفينه منذ وقت قصير، لعله ذهب إلى روما كى يحتفل ويعاين الأمور شخصيًا، لابد أن نفعل ذلك نحن أيضًا، لقد مر التاريخ بجانبنا، على مسافة ٢٥٠ كيلومترًا جنوبًا، لا يمكن أن ننأى بأنفسنا عنه، أو لعله تورط فى أمر غامض، واضطر أن يرحل، حدث هذا لكثير من الناس، لم يجد حتى الوقت لترك بطاقة صغيرة لكِ، وهذا معناه أنه يفكر فى العودة، لا تقلقى، سيكتب لكِ، سيظهر، وسوف تلحقين به لا أدرى أين، تعالى معى إلى روما غداً صباحًا، إنها فترة فى غاية الأهمية، فترة تاريخية، إنها نهاية عالم وبداية عالم آخر، لا تبقى هنا بمفردك، انزلى إلى أسفل وسأحضر لكِ مشروبًا، لن نقول أى شىء لأى شخص، اتركى الأمر لى، سترين، سيعود كل شىء إلى ما كان عليه...")، كم تتكلم نينا كثيراً. أغلق عينىّ.

"اصمتى، يا نينا، اسمعينى. لقد رحل وأنا هنا وحدى. وحدى، أتفهمين؟ أنا حامل يا نينا. قولى لى ماذا بوسعى أن أفعل. أنتِ امرأة

لها خبرة فى هذه الحياة، وشجاعة. لم يراودك أبداً أى إحساس بالخوف. أنا مختلفة عنك. فلقد خفت من كل شىء. لقد هربت وأتيت إلى هنا كى أفلت بحياتى من تورينو، من ڤيللافورستا، وأبداً لن أعود للخلف. هذا هو يقينى الوحيد".

كنت مجنونة حينما اعتقدت أننى أستحق حياة مختلفة عن تلك الحياة التى أرادوها لى. هناك امتيازات لا ترحم، بل تستلزم واجبات لا يمكن بأى حال من الأحوال التفكير فى التنصل منها. لقد اختاروا لى طريقًا وأرغمونى على السير فيه، لكننى أردت أن أتجنبه. والنتيجة؟ البقاء وحيدة أمضغ مرارة الهجر، تحت بصر نينا المشفق والذى لا أعتقد أننى أستطيع أن أتحمله لحظة واحدة أكثر من ذلك.

عاهدينى أنكِ لن تقولى لأى إنسان أنكِ وجدتنى هنا، فى هذه الحالة. عاهدينى ألا يعرف أى شخص أبداً أنه رحل هكذا. عاهدينى أنكِ سوف تنسين هذا اليوم. عاهدينى. وساعدينى يا نينا، أرجوكِ.

ساعدينى يا نينا. تجلس بجانبى وهى تتنهد. تمسك بيدى وتقول: "يا لكِ من حمقاء، كل شىء سيستقيم. سترين. لا تحكى لأحد ما حدث. عليكِ فقط أن تنتبهى، ولن يفطن أحد ولا حتى ذلك السخيف الساذج ريكورسى. عليكِ فقط أن تلدى الطفل وأعطيه لـ ماريو ونوڤيللا وهما يربيانه، كما لو كان ابنهما... إن لديهما ابنة بالفعل، فماذا عساه أن

يغير هذا فى حياتهما؟ عليكِ فقط أن تنفقى عليه، وهذا ما ستفعلينه على أية حال...

اطمئنى، إنه أمر جائز... سأبحث لكِ أنا عن المربية المناسبة، مربية لا تخلق لنا مشاكل كثيرة وتكتب فى شهادة الميلاد الاسم الذى نريده نحن...

أتتذكرين الطبيب اليبراندى، الذى أحضرته لكِ هنا فى إحدى الليالى؟ لنطلب مساعدته... فلقد قمتِ بمساعدتنا ولن تكونى لا الأولى ولا الأخيرة.

ثم، من عساه أن يراكِ هنا فى الجنوب؟ من عساه أن يعرف؟ ماريو ونوڤيللا شهمان ويكنان لكِ كل الحب. لو لم تخبئى ماريو فى الخزان لشهور طوال، من يدرى ماذا كان سيحدث له... لقد كنتِ كريمة، والآن اتركينا نساعدك. الآن أنصتى إلىّ وافعلى تمامًا كما أقول لكِ...".

الآن أدرك أن أول رد فعل جبان من جانبى هو أننى لم أقل لوالدى إننى لن أختار زوجًا لى أى اسم من الأسماء الخمسة التى كان قد كتبها على الوريقة ذات اللون الأزرق السماوى، وتبع ذلك ردود فعل أخرى، واحد تلو الآخر، غير واضحة للغرباء ولكنها حددت مصيرى. من كان ينظر إلىّ، كان يرى امرأة جميلة أبية، ذات خصال قوية وقدر كاف من الشجاعة المتعنتة.

وعلى العكس، لم يكن هناك شىء من هذا كله، اللهم إلا كبرياء لا نهائى والخوف من العالم ومن ثرثرة الناس. لقد تخلصت من ابنى. عشت كل حياتى بقربه، ورأيته يكبر ويتعلم السير، والجرى وركوب الدراجة. علمته كيف يمتطى الجواد ويدير هذه الأرض الزراعية التى ستصبح أرضه فى يوم من الأيام، ولكننى لم أكن له أمًّا. لم أمتلك الشجاعة لفعل هذا.

بعد رحيل تروت مباشرة، كان الأمر صعبًا. لم أكن أنام جيداً، لم أكن آكل وكنت أشعر بكره خفى تجاه الطفل الذى أحمله فى أحشائى. ولما وُلِد، قررت أن أنسى كل شىء، كل شىء، منذ البداية، وأن أجفف ذاكرتى كما يُفرَّغ الدلو من المياه المتسخة.

أتذكر أننى قررت ألا يتسرب بداخلى أى ألم، ولا أى إحباط. وأننى لن أسمح لثورتى العارمة أن توبخ تروت، وتلومنى، لن أسمح للغضب والأسى أن يتكاتفا معًا كى يسمما علىَّ حياتى. لا. ببساطة سوف أنتظر حتى تعبر الموجة، وسوف أغوص تحت سطح المياه، تمامًا كما نفعل فى البحر حينما تواجهنا الأمواج العالية. لا، لن يصيّرنى رحيل تروت امرأة ضعيفة متذمرة شكّاية من لا شىء تم إغواؤها وملاطفتها ثم، وببساطة، صارت امرأة مهجورة وحُبلى.

إن عاجلاً أو آجلاً، ستستأنف حياتى مسارها الهادئ الذى كانت عليه يومًا ما. إن إدارة أرض زراعية مساحتها ثلاثمائة هكتار عمل شاق

لمن يجهله ولمن لم يعتد عليه وأنا لم أكن معتادة عليه. ولا واحد منا معتاد عليه، فوالدى ربح هذه الأرض من لعب الورق، وشقيقى ما كان يعرف ماذا يفعل بها، إلى أن تخلص منها وتركها لى بوفاته.

أمامى أعمال كثيرة أقوم بها. لن أتكاسل. ينتظرنى ماريو كل صباح فى الفناء، وهناك صف كامل من أشجار الكرم الآخذة فى الجفاف، على القمة من ناحية الغابة، ما العمل، هل نخلعه أم نتركه هكذا حتى بعد فصل الصيف؟ طلبنا مجىء منتج نبيذ فرنسى، يدعى دى جاسكى، وقد اقترح علينا أن نمزج العنب بنسبة مختلفة. فى خلال بضعة أعوام سيكون لدينا نبيذ عالى الجودة، ثقيل ولزج يصلح للتعتيق فى براميل من البلوط القوى، وأنا أمتلك بالفعل الاسم، وهو "أحمر قانى"، مثل لون القمر فى بعض الأمسيات الصيفية، حينما يبزغ من وراء التل، ويبدو كبيراً للغاية خلف تلك الغابات لدرجة أننا قد نعتقد أنه غلطة.

حينما لا يكون هناك إلا الصمت، حينما لا يحتاجنى أحد، أختلس نصف فترة ما بعد الظهر، وأمتطى جواداً وأسلك فى اتجاه الجنوب، نحو بوچو دى چينوفيزى، أو فى اتجاه الشمال نحو مونتيتى حتى أنظر إلى أسفل، هناك حيث تُرى أراضى "المحمية" بأكملها، وأشجار الكرم الجديدة المتسلقة على التل وهكتارات من الغابات، وحقل الزيتون

والمنحنيات الطويلة فى الطريق الضيق المؤدى للمنزل. أحيانًا أبكى، ولكننى لا أستطيع أن أجزم هل هى دموع غضب أم حزن، أم امتعاض تجاه شخصى أم دموع تحسر وندم.

أحيانًا أهبط من على الجواد وأجلس على قطعة حجر وألبث هناك أنظر إلى هذه الأرض التى لا تتغير مع الزمن، بألوانها وروائحها، متمهلة وصامتة مثلما عرفتها.

كل شىء سار على ما يرام إلى أن بدأت أتذكر. كان يبدو لى أننى لا أرتكب أى خطأ فى استعراض وقائع صغيرة كنت أحسبها فى طى النسيان منذ زمن بعيد، ولكنها على العكس، وبمجرد مداعبتها، عادت واضحة جلية، كما لو كانت حدثت لتوها.

أعرف أنه غالبًا ما ينسى كبار السن الماضى القريب، بينما يتذكرون بدقة لا تخطر على بال الماضى البعيد السحيق. يتسع باستمرار نطاق تأرجح الذاكرة، إلى أن عجزت تمامًا عن التصدى لنهرٍ من الكلمات تتصارع كى تخرج، وتعبّر كل واحدة منها عن نفسها فى الهواء، فى الشمس، مثل قطع صغيرة من الورق، قصاصات من الرسائل التى لم تصل أبدًا، أو أغلب الظن لم تُكتب أصلاً، كلمات تنفرد مثل أجنحة الطيور المهاجرة حينما تحين ساعة العودة.

٧

حينما يصير الجواد كسيحاً، ينبغى قتله.

إنه أمر مؤلم، ولكن ليس من حل بديل، فلا سبيل للشفاء من تبعات حوادث معينة. لقد قاموا بتربيتى، على هذا النحو، ووفقًا لهذا المبدأ. وقد آن الأوان لتطبيقه.

سأذهب لڤيللافورستا. أذهب لطلب تفسير من عجوز وهن يضنى فى فراشه، شبه منهك من الحمى والمسكنات، من رجل كان يظن أنه يحمينى ولكنه على العكس سلبنى كل شىء. ولكن اكتشاف أن ڤيللافورستا قد اشترى تروت بالمال حتى يرحل لا يُعد شيئًا بالمقارنة بفكرة قبول تروت لهذا المال.

أشعر بسريان غضب مخنوق وبارد كالثلج فى أوصالى وقلبى وحلقى.

يجلس دينو على مقعد غير مريح، ورأسه تتدلى على ذراعه؛ إذ قد غلبه النعاس. الساعة تجاوزت العاشرة مساءً. بمجرد أن ألمسه وأربت على كتفه، يستقيم فى الحال، وعيناه ناعستان بعد. يرانى ويود أن يقول لى ألا أقلق، وأن أخلد للنوم فهو موجود هنا بقربى.

لا يزال دينو يعتقد أن زيارتى لڤيللافورستا هى من باب المجاملة إن لم تكن من باب الود والمحبة. لكن تكفى نظرة واحدة منى كى تجعله يصمت وينتفض واقفًا، ليتركنى مع زوجى على انفراد.

حتماً نظرتى وتعبير وجهى لا يقبلان مناقشة ولا جدالاً.

ربما لم يغلب النعاس تماماً على ڤيللافورستا؛ إذ يبدو بالأحرى بين حالة من اليقظة شبه واعية ونعاس خفيف للغاية. يتنفس بطريقة منتظمة هادئة.

أنحنى عليه حتى أسأله "لماذا؟". لماذا أقصيت تروت عنى؟ لماذا لم تدعنى وشأنى أسلك طريقى؟ لماذا داهمتنى بحبك وحنقك علىّ؟ لماذا قمت ببيع بيك، جوادى الخاص؟ لماذا لم تخبرنى أنا أبداً بالكلمات التى كتبتها لآخرين؟ لماذا أتيت إلى هنا، الآن، بعد كل هذا الزمن؟ لماذا تريدنى أن أعرف أنك أنت من كنت خلف كل هذه الأحداث، وأن لا شىء كان مثلما تخيلته أو تصورته، وأن كل واحد منكم، أنت وتروت وحتى المحامى ريكورسى، قد خدعتمونى وسخرتم منى وأننى كنت مخطئة، فى سذاجة وحمق، فى تقديرى لكل واحد منكم؟ لماذا يا فرنشيسكو؟ قل لى لماذا؟

أنحنى كى أطرح عليه هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة الأخرى الكثيرة، وعلى العكس أبقى خرساء، لا أقوى على التلفظ بكلمة واحدة. ولا كلمة واحدة. لا تخرج من فمى كلمة واحدة، لقد تجبس فمى وأنا أنظر إلى هذا الرجل ذى القسمات التى لا تزال قاسية، ورأسه تغوص فى الوسادة، الرجل الذى أتى حتى هنا، من مكان سحيق زمنياً، على الرغم من قربه جغرافياً، كى يتمم آخر عمل مؤثر وصادق يمكن أن يكون

قد تبقى له، وهو أن يجعلنى أرى ضعفه أخيراً. حرص على رؤيتى مجدداً، غير أنه ينبغى أن أقول بالأحرى إنه حرص على أن أراه أنا، كى أفهم، في نهاية المطاف، ما هى طبيعة الرباط الذى كان يجمعنا.

وحتى أدرك أن ما أشعر به من أسف لا يمكن أن يكون مجرداً من تأنيب الضمير ومن الإحراج ومن الغضب.

لا أعتقد أن ڤيللافورستا سيتوفى هذه الليلة، أو صباح الغد، وربما ليس بعد أسبوع أو بعد شهر، ولكنه هنا فى هذه الأثناء، فى بيتى، بجانبى، هنا حيث لم أرغب فى وجوده.

عندئذ لا أقول شيئًا على الإطلاق، وأدرك أننى لا أريد أن ألوم أو أعاتب، ولا أن أتهم أحداً بشىء. أمكث بجانبه، أنظر إليه وهو نائم وأحيانًا ينتفض كالطفل الذى يحلم بكوابيس، إلى أن أتمكن من التحكم فى تعبى. وبمجرد خروجى من الحجرة، أقول لدينو، الذى يأتى فى مواجهتى وعلى ثغره ابتسامة، إننى سآوى لفراشى وغداً عليه أن يطلب مساعدة الخادمات حتى نرفع الأطباق من على المائدة، ونزيل المفارش، ونعيد الفضيات إلى البنك، ونعيد وضع أغطية الأثاث فى حجرة الصالون. لقد غيرت فكرى، فلن أقيم أى حفل.

يسألنى دينو مندهشًا:

– كيف يكون هذا، كيف لن يُقام الحفل؟

– لن يكون هناك حفل، يا دينو.

– ولكن... الاستعدادات... إننا نجهز لهذا الحفل منذ شهر... الموسيقيين و...

– دينو.

– نعم.

– اسمع يا دينو.

أشده من ياقة السترة حتى يميل نحوى وأطبع قبلة خفيفة على وجنته.

على شفتىّ كلمتان أود أن أنطق بهما منذ فترة، وأقولهما له بطريقة هامسة:

– أنا أمك.

يبتسم دينو وكأنه يتعامل مع طفل وقح.

– الوقت تأخر، يا سيدتى الكونتيسة. كان يومنا طويلاً. فلنترك علاقات القرابة للغد. اذهبى إلى فراشك، سيدتى، وأنا سأبقى هنا.

أكاد أكرر على مسامعه أننى أمه، غير أن شفتىّ ترتجفان. أبغى الآن استعادة هاتين الكلمتين اللتين سقطتا من جيبى كالعملات الصغيرة.

– طابت ليلتك يا دينو.

– طابت ليلتك سيدتى.

بينما أغلق باب حجرة نومى، أسمع صوت صرير إطارات سيارة تقف على الحصى أمام المنزل.

لابد أنه الدكتور سكاورى وقد أتى للكشف على ڤيللافورستا.

أطفئ النور. الظلام يلف المكان فى الخارج.

يكفينى أن أخطو خطوات قليلة واضعة يدى على جبهة الرجل المحمومة، الرجل الذى أحبنى أكثر من أى مخلوق آخر.

أسأل نفسى، هل لو كنت قد تخيلت مقدار هذا الحب، لكنت قد تصرفت بطريقة مختلفة؟ كنت دومًا أعتقد أننى امرأة ذكية أفكارها واضحة، وقادرة على الحكم حكمًا سليمًا على من هم حولى.

كان بإمكانى معرفة كل هذا قبل وقت طويل مضى. كان بوسعى أن أكتشف كل هذا عام ١٩٢٨، فى تورينو، ثم فى باريس، بعد ذلك بأيام، لو لم يكن القلق والخوف اللذان تسبب فيهما ذلك الزواج الذى اختاره

والدى قد جعلانى صماء وعمياء. ثم ظهر تروت فى حياتى، فلم أر أى شىء آخر سواه.

حتى الأسياخ التى كانت وسط النار مليئة عن آخرها بفراخ الحَجَل والديوك البرية قد انطفأت، كما انطفأت النيران أيضاً.

كل هذا حدث فى لحظة، فالساحرات لم يحتجن إلىٰ وقت طويل لأداء مهمتهن.

نعم، أحياناً تكون الساحرات سريعات جداً فى نشاطهن ويتحقق السحر والافتتان فى بضع ثوان، ولكن ولا حتى مائة عام تكفى لفك هذا السحر. آخر صوت أسمعه هو صياح عصفور ليلى، أدرك أننى أخيراً نسيت اسمه.

الشكر

أشكر ألبرتو روللو، الذى تابعنى خطوة بخطوة بلطف حليم وجدارة وعلم غزير. كما أشكر چوڤانا سالڤيا لأنها صدقت فى رواية "أحمر قانى" وقد قرأتها وأعادت قراءتها بعين ناقدة يقظة ولكن بحماس أيضاً، وأصبحت صديقة غالية فى وقت وجيز.

ثم أود أن أشكر من كل قلبى فرانكا دى أجستينو، التى كرست أمسيات كثيرة من أجلى وساعدتنى على تشذيب وتنقيح مادة الصياغة الأولى التى كانت تفتقر إلى وحدانية الشكل، كما أتاحت لى أن أستمتع بما تتميز به من خصلتين نادرتين هما الذكاء والحساسية المرهفة.

وأخيراً وليس آخراً، أشكر أسرتى الكبيرة الفريدة من نوعها فقد كانت متضامنة معى، ناقدة، كريمة مشاركة ودائماً حاضرة.

طباعة تخطيطية سيبيال

ميلانو، سبتمبر ٢٠٠٨

تورينو ١٩٢٨. ترغم أناقة الأرستقراطية وصرامتها في إقليم بيمونتى امرأة شابة على العيش فى تعاسة بسبب زواجها المدبر. غير أن قدرها يضع فى طريقها الرجل الجذاب الغامض تروت، فيبدو الأمر وكأنها استيقظت من سحر سبى عقلها. كل شىء آخذ فى التغيير فى المجتمع الإيطالى وأيضًا بداخلها، وعلى الرغم من أنها عصرية للغاية بحيث لا تستطيع أن تتكيف فى خنوع وتمضى فى الطريق الذى شقته وانتهجته غيرها من سيدات الأسرة، إلا أنها لا تزال هشة وضعيفة جداً حتى تستطيع أن تعيش تمردها.

لذا تختار أن تنتقل بمفردها إلى سان بياچو؛ وهى أرض زراعية جرداء تمتلكها فى ريف مدينة سيينا. ومن حولها تعصف عاصفة الحرب العالمية الثانية، وسقوط الفاشية. فى النهاية، تتزامن رغبة بلد بأكملها فى النهضة مع التحول التدريجى الذى تشهده المزرعة التى كانت شبه

مهجورة إلى أن تصبح مصنعًا عصريًا لإنتاج النبيذ عالى الجودة. وهنا، يظهر تروت من جديد ظهورًا خاطفًا ولكنه قوى يسبق اختفاءه المفاجئ، الغامض وغير المبرر. تدرك البطلة فى معرض حياتها الطويلة أن المسافة التى تفصل بين الواقع والظاهر، بين الصواب والخطأ، بين الحقيقة والكذب يمكنها أن تكون قريبة جدًا لدرجة لا يمكن الإحساس بها أو إدراكها.

المؤلف فى سطور:

بينيديتا تشيبيراريو

ولدت بينيديتا تشيبيراريو فى مدينة فلورنسا عام ١٩٦٢ وقضت فترة طفولتها وصباها فى مدينة تورينو حيث حصلت على ليسانس تاريخ السينما. عاشت طويلاً فى إنجلترا، ولكنها مرتبطة بصفة خاصة بإقليم توسكانا الذى تعيش فيه حاليًا.

فازت الكاتبة عام ٢٠٠٨ بجائزة Campiello السادسة والأربعين عن أولى رواياتها "أحمر قانى" التى نشرتها لها دار النشر Feltrinelli فى خريف عام ٢٠٠٧.

فى أوائل عام ٢٠١٠ أصدرت لها أيضًا دار النشر Feltrinelli روايتها الثانية وعنوانها "تحت سماوات لا مبالية"، وقد حصلت بها على جائزة Rapallo Carige فى ٢٠ يونيو ٢٠١٠.

فى ١٨ نوفمبر ٢٠١١ خرجت للنور روايتها الثالثة بعنوان "Lo Scurnuso".

المترجمة فى سطور:

نرمين وجيه

تخرجت فى كلية الألسن عام ١٩٨٨، ثم حصلت على الدكتوراه فى اللغة الإيطالية تخصص الترجمة، من كلية الألسن عام ١٩٩٩.

تعمل حالياً مدرساً بقسم اللغة الإيطالية بكلية الألسن جامعة عين شمس.

قامت بالاشتراك فى ترجمة كتاب "تاريخ مسلمى صقلية" للكاتب الإيطالى ميكيلى أمارى.

كما قامت بترجمة رواية "ألعاب نارية" للكاتب الإيطالى ميكيلى بريسكو.

التصحيح اللغوى: رفيق الزهار

الإشراف الفنى: حسن كامل



"اسمعى. فلنرحل".
"إلى أين؟"
"لنعد إلى المنزل. سأنتقل للعيش معكِ. سأعلمكِ صناعة النبيذ".

قرن من التاريخ. زواج فاشل. عشق فى أوروبا. تلال نبيذ الـ"كيانتى". العشق الذى أطاح وأتى على سحر وافتتان دام حياة بأكملها.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

المركز القومى للترجمة
٣٦